مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الحادي والعشرون

الفقيه المحقق

الشيخ جعفر السبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء الواحد والعشرون

الجزء الواحد والعشرون ويشتمل على تفسير السور التالية: العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة

تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية

تأليف:الفقيه المحقّق :جعفر السبحاني

نشر مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآن مُبِين) الحجر:١.

مقدّمة المؤلّف

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المصطفى محمّد وآله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وجعلهم(صلى الله عليه وآله وسلم) أحد الثقلين بقوله: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي».

أمّا بعد

فقد قال رسول الله الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم):«إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفّع وماحل مصدّق، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومَن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل» الكافي:٢/٥٩٩..

لا يشكّ أحد ممّن له إلمام بالأوضاع السائدة في بلاد الإسلام والمسلمين في أنّ الفتن أحاطت وحاقت بهم كقطع الليل المظلم، ولو دامت هذه الفتن عبر سنين لأحرقت الأخضر واليابس، وعند ذاك يصدق علينا قوله سبحانه:(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الأنفال:٢٥..

وأيّة فتنة أضرّ على الإسلام والمسلمين من الفتنة التي أشعل فتيلها الاستكبار العالمي والصهيونية الحاقدة، لضرب المسلم بالمسلم، وتخريب المنشآت الحيوية، وتهجير العوائل المسالمة عن ديارها وبيوتها، إلى غير ذلك من المصائب والويلات التي تنشرها وسائل الإعلام يوماً بعد يوم.

وهناك جماعة من المسلمين ربّما يلتجئون اليوم إلى أحضان الغرب، وجماعة أُخرى إلى أحضان الشرق ويتصوّرون أنّ الدواء لهذا الداء العياء بيد هؤلاء، غافلين عن أنّ هؤلاء هم الذين أشعلوا فتيل الفتن وهم الذين يموّلون طائفة ضد طائفة أُخرى، ولو فتّشنا عن العلاج الشافي لهذه الفتن لوجدناه في التمسّك بالكتاب والسنّة، اللّذين دعيا المسلمين إلى الصلح والصلاح والمشاورة والائتمار عند ظهور الفتن، وإلى ردع مَن يتمادى في بغيه وعدوانه، كما قال سبحانه:(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرى فَقَاتِلُوا التي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). الحجرات:٩.

***

وممّا يُدمي قلب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتعرّض الآلاف من ضيوف الرحمن وفي يوم العيد عاشر ذي الحجة الحرام سنة ١٤٣٦هـ. في الحرم الآمن إلى القتل وبنحو فظيع، دون أن يمدّ إليهم أحد يد المساعدة، لا المؤسسات المختصّة، ولا غيرها.

وأسوأ من ذلك أن يقوم وعّاظ السلاطين من على منبر الحرم الشريف بتوجيه هذه الجريمة الشنيعة بأنّها من قبيل تقدير الله سبحانه، دون أن يكون أحدٌ مسؤولاً عنها!!

ودَعْ عنك نَهْباً صيحَ في حَجَراتِهِ *** ولكنْ حديثاً ما حديثُ الرّواحلِ

***

إنّ من ألطافه سبحانه أن وفّقنا لزيارة الإمام الثامن عليّ بن موسى الرضا عليه آلاف التحية والثناء في أواخر شهر شوال المكرّم عام (١٤٣٦هـ) مضافاً إلى إلقاء محاضرات حول الشبهات التي نسجها الإلحاد حول القرآن الكريم ونبوّة النبيّ الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) وكان لهذه المحاضرات صدىً واسع، وقد قام بطبعها المركز الذي ألقينا فيه هذه المحاضرات.

***

ولمّا زرنا ضريح الإمام الثامن(عليه السلام) دار في خلدي، عند التوسّل بدعاء الإمام الذي لا يُردّ، ما قاله ابن حِبّان (أحد كبار علماء السنّة)، وهو يذكر قبره الشريف: قد زرته مراراً كثيرة، وما حلّت بي شدّة في وقت مقامي بطوس، فزرت قبر عليّ بن موسى الرضا صلوات الله على جدّه وعليه، ودعوت الله إزالتها عنّي إلاّ استجيب لي، وزالت عني تلك الشدّة، وهذا شيء جرّبته مراراً فوجدته كذلك. أماتنا الله على محبّة المصطفى وأهل بيته صلّى الله عليه وعليهم أجمعين. كتاب الثقات:٨/٤٥٧.

وقلت في نفسي: إنّ دعاء الإمام الهمام لا يُردّ، فلأتوسّل بدعائه إلى الله سبحانه أن يصلح أُمور المسلمين، ويوحّد كلمتهم، ويرفع عنهم هذا البلاء الوبيل.

ثمّ إني وقفت بعد ذلك على ما جادت به قريحة صديقي الوفيّ الأُستاذ حيدر الطحّان البغدادي المحترم عند زيارته الإمام(عليه السلام)ذاكراً ما أشرت إليه، في قصيدة له:

أيُزال الكربُ بعد الكرب عن *** إبن حبّان، ويحظى بالعطاءْ

ويُلاقي مَن يواليكم أذىً *** ليس هذا من سجايا الكرماءْ

***

ثمّ إنّ هذا الجزء يتضمّن رسالتين حول موضوعين مهمّين:

١. رسالة حول أُميّة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ودلائلها وما حولها من الشبهات وقد جاءت الرسالة بعد تفسير سورة العنكبوت.

٢. رسالة حول صفات الله سبحانه الموسومة بالخبرية التي يفسّرها أهل الحديث بما يلازم التشبيه والتجسيم وقد بيّنا ما أُريد منها. وقد جاءت في آخر الجزء.

***

وقد التقيت في سفري هذا بالأُستاذ الشيخ حسن الصفّار أحد علماء المنطقة الشرقية في الحجاز، جاء أيضاً زائراً، وهو رجل مجاهد وكاتب قدير له آثار قيّمة، وقد اطّلع على موسوعتنا التفسيرية وأبدى إعجابه بها، فكتب مقالاً أعرب فيه عن رأيه بالكتاب، وها نحن نأتي بنصّه تقديراً وشكراً له.

المؤلّف

كتاب كريم: بقلم الأُستاذ الشيخ حسن الصفّار

حين تواجه الأُمّة تحدّياً خطيراً في أي بُعد من أبعاد وجودها وحياتها، وخاصة في الجانب الفكري والمعرفي، فإنّ عليها أن تفزع إلى كتاب الله المجيد، القرآن الكريم، لأنّه معقد إيمانها، والمرجعية الأساس لدينها وشريعتها، وهو مصدر الهدى، ومبعث النور الّذي يضيء للأُمّة دروب الحياة، ويقدّم لها أفضل الحلول والمعالجات لمختلف المشاكل والأزمات، يقول تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ) الإسراء: ٩ ..

ولذلك حثّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)الأُمّة على الرجوع والعودة إلى كتاب الله تعالى عند مواجهة التحدّيات والمشاكل، كما جاء في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إذا التبست الأُمور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن».

ولمّا سئل (صلى الله عليه وآله وسلم)عن المخرج أمام الأمّة من الفتن الّتي ستواجهها؟ أجاب (صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله: «كتاب الله العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، مَن ابتغى العلم في غيره أضلّه الله».

وحيث تواجه الأُمّة الإسلامية اليوم خطراً من أعظم الأخطار التي مرّت بها في تاريخها الطويل، وهو خطر نمو التوجّهات التكفيرية والتعصّبية المتطرّفة، الّتي رفعت شعارات العنف، وأعلنت حرب الإرهاب باسم الإسلام على كلّ من يخالف توجّهاتها من المسلمين والعالم أجمع، فدمّرت بلاد المسلمين، ومزّقت وحدتهم، وهتكت كلّ الحرمات، وشوّهت صورة الإسلام أمام الرأي العام العالمي، حتّى أصبح عنواناً للوحشيّة والعنف والإرهاب.

والجانب الأخطر في هذه التوجّهات المتطرّفة هو قدرتها على استقطاب مجاميع كبيرة من أبناء الأُمّة وشبابها من مختلف البقاع والأصقاع، وتنشئتها على أساس التعصّب المذهبي، والتشدّد الديني، وحشو أدمغتها بثقافة الكراهية والتكفير والعنف، بادّعاء أنّ ذلك يمثّل العقيدة الصحيحة، ومنهج السلف، ومفهوم التوحيد الخالص، والبراءة من الشرك والابتداع، مستغلّة مشاعر الغضب والسخط الّتي تسود أجواء الأُمّة، بسبب واقع التخلّف والاستبداد والجور، واستمرار العدوان الصهيوني والهيمنة الأجنبية.

ولا يخفى دور الاستكبار العالمي والحركة الصهيونية وأنظمة الاستبداد الحاكمة، في دعم هذه التوجّهات التكفيرية المتطرّفة لأنّها تحقّق لهم كثيراً من الأهداف والخدمات.

في مواجهة هذا الخطر الماحق على الدين والأُمّة لابدّ من اللجوء إلى القرآن الكريم، لتستلهم الأُمّة من هديه ما يحصّن وعي أبنائها من تأثيرات هذه التوجّهات المنحرفة، وكشف مكامن الخلل والفساد في هذا الفهم المعوجّ للدين، ولتحفيز طاقات الأُمّة واستنهاضها للدفاع عن حقائق الإسلام ومفاهيمه الصحيحة، ولحماية كيان المجتمعات الإسلامية من التمزّق والانهيار، ولتجلية الصورة المشرقة الناصعة للإسلام أمام الرأي العام العالمي.

وفي هذا السياق تأتي أهمية التفسير القيّم «منية الطالبين في تفسير القرآن المبين» الّذي يتابع إصدار أجزائه الفقيه المحقّق المرجع الديني الشيخ جعفر السبحاني «أدام الله ظله وتأييده». إنّه دعوة ونداء للأُمّة للاحتكام إلى كتاب الله تعالى، والانفتاح الصادق على معاني آياته دون حواجز أو عوائق ينتجها التقيّد بآراء السابقين. فهو تفسير يشكّل استجابة لحاجة فكرية ملحّة في ساحة الأُمّة في هذا الظرف العصيب، حيث يركّز على استنطاق آيات القرآن الكريم في مهمّات المسائل العقدية والكلامية، وخاصّة تلك الّتي تسلَّل الفكر التكفيري المتطرّف من خلال بعض تفاصيلها إلى تراث بعض المذاهب والمدارس الإسلامية .

إنّه يقدّم الرؤية القرآنية في مختلف جوانب العقيدة والشريعة والتاريخ عبر منهجية علمية موضوعية، وبأُسلوب أدبي رفيع، لا غموض ولا تعقيد في كلماته ومصطلحاته، حيث يجمع بين عمق المضمون ودقّة البحث العلمي من جهة، وبين وضوح المطلب وإشراقة اللغة من جهة أُخرى، فهو مرجع علمي للباحث المتخصّص، ومورد لاستفادة القارئ المثقّف المتطلّع لمعارف القرآن وفيض علومه.

ومن الميزات المهمّة لهذا التفسير الرائع للقرآن الكريم، أنّه يؤصّل ثقافة التسامح، وإقرار حرية الرأي والفكر، واحترام وجهات النظر الأُخرى، والتعاطي معها في ميدان البحث العلمي بموضوعية وإنصاف، بعيداً عن التعصّب والتشدّد، والإساءة والعدوان، انطلاقاً ممّا تؤكّد عليه آيات القرآن الكريم في منهج الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار والجدال بالتي هي أحسن. إن رسالة هذا التفسير هي بناء الشخصية الإيمانية العقائدية للإنسان المسلم على أساس رصين من هدي القرآن

ومعارفه، مع التحلّي بأرفع درجات الخلق الإنساني والسلوك الحضاري في الحياة الاجتماعية.

حقاً أنّ تفسير «منية الطالبين» يشكّل إضافة نوعية مهمّة في هذا العصر للمكتبة القرآنية، ويمثّل استجابة لتحدٍّ فكريّ خطير تواجهه الأُمّة، نأمل أن يشقّ هذا التفسير القيّم طريقه إلى أوساط العلماء والباحثين وأساتذة الجامعات والشباب المثقفين، وأن يطيل الله في عمر شيخنا المعظّم الشيخ السبحاني، ويمتّعه بالصحّة والعافية والنشاط ليكمل هذا المشروع المبارك، وليواصل خدمة العلم والدين، بحقّ القرآن العظيم.

والحمد لله رب العالمين

حسن الصفار

١٧ شوال ١٤٣٦ هـ

٢٩سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا
سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ
وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ
وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ
رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا
مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ

فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا
قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا
الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ
لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ
أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ
الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا
تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)
وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى
عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ
(٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)
فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت في المصاحف بسورة «العنكبوت» لورود هذا اللفظ فيها، ولم يرد في سورة أُخرى.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها تسع وستون آية بالإجماع. وهي مكّية بشهادة مضامين أكثر آياتها.

وربّما تستثنى الآيات العشر الأُولى من كونها مكّية، فيقال إنّها مدنية اعتماداً على ما روي أنّها نزلت في أُناس بمكّة قد أقرّوا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من المدينة لمّا نزلت آية الهجرة: أنّه لا يُقبَل منكم قرار ولا إسلام حتى تهاجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فأتبعهم المشركون فردّوهم، فنزلت فيهم هذه الآية، فكتبوا إليهم أنّه قد نزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا: نخرج فإن اتَّبعَنا أحد قاتلناه، فخرجوا فأتبعهم المشركون، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) النحل:١١٠..

تفسير الدر المنثور:٦/٤٤٩.

ومع ذلك لا دليل في سياق الآيات على أنّها نزلت بعد الهجرة، بل أقصى ما يستفاد منها أنّ جماعة أسلموا في مكّة المكرمة وقد مارس معهم المشركون ضغوطاً حتى يرجعوا إلى دين آبائهم وملّتهم فصاروا موضعاً للفتنة والمحنة، فمنهم مَن رجع ومنهم مَن ثبت، وقد حفظ التاريخ تعذيب المشركين عمّار بن ياسر ووالديه، كما ورد في السيرة تعذيب بلال وغيره. وما مرّ من شأن النزول لا يوافق سياق الآيات، فالظاهر أنّ السورة كلّها مكّية.

أغراض السورة

التدبّر في آيات السورة يكشف عن أنّ المحور الّذي تدور عليه هو الافتتان والاختبار، وأنّه سبحانه لا يريد الإيمان المجرّد القائم باللفظ، بل يريد الإيمان الذي لا تزيله العواصف ويستقر في القلوب وإن دارت عليه الدوائر، ويُعلم ذلك من خلال التعرّض لأنواع الفتن والمحن التي تميّز المؤمن القويّ ذا الإيمان العميق الثابت عن المؤمن الضعيف ذي الإيمان الطارئ المتزلزل. كما تكشف الآيات أنّ المحنة والفتنة سنّة من سنن الله سبحانه، ولا تختصّ بأُمّتنا المرحومة، بل كانت سائدة في الأُمم السابقة، وهم بين ثابت وزالق.

ويؤكّد ذلك أنّه سبحانه يحدّثنا في سورة البروج عن الفتنة التي مرّ بها أصحاب الأخدود، فيقول سبحانه في حقّهم:(قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ* إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)، البروج: ٤ ـ ٨. وهذا دليل على أنّ الأُمم الماضية لم تكن بمنأى عن الفتن والامتحانات الإلهية.

هذا هو الهدف المهمّ في هذه السورة، وتأتي في إطار توضيحه، الإشارة ـ في ثنايا السورة ـ إلى قصص الأنبياء العظام كنوح وإبراهيم ولوط وشعيب(عليهم السلام) الّذين واجهوا أعداء الله من الطغاة المترفين والفاسدين، بقلوب ثابتة.

سورة العنكبوت: الآية الأُولى (الم):

التفسير

١. (الم):

هي من الحروف المقطّعة وسيوافيك في سورة الأحقاف تفسير هذه الحروف، ولقد اخترنا بين الأقوال الكثيرة الناهضة إلى

العشرين أنّه سبحانه يشير بالإتيان بهذه الحروف في صدر هذه السور إلى أنّ القرآن معجزة كبرى نازلة من الله سبحانه وليس للبشر فيه أي صنع حتى النبيّ النازل على قلبه، وإن كنتم في شكّ من كونه كلام الله فانهضوا إلى معارضته واستعينوا بكل أحد، فإنّه أُلّف من تلك الحروف وهي في متناول المخاطبين فليقوموا فليأتوا بسورة من مثله في البلاغة والفصاحة والنظم، فإذا عجزوا فهو الدليل على أنّه فوق الطاقة البشرية، وصحّ أنّه من عند الله تعالى.

والعجب أنّ فخر الدين الرازي استوفى البحث في الحروف المقطّعة في الجزء الأوّل من تفسيره عند تفسيره لسورة البقرة، ولكنّه في هذا المقام جاء برأي خاص بعيد عن ساحة القرآن، وحاصل نظره: أنّه ليس لهذه الحروف معنى ولا رمز وإنّما أُوتي بها لطلب إقبال السامع إلى كلام المتكلّم، يقول: يحسن من الحكيم أن يقدّم على الكلام المقصود، حروفاً هي كالمنبّهات، لأنّ تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع وكان قولاً مفهوماً فإذا سمعه السامع ربّما يظن أنّه كلّ المقصود ولا كلام له بعد ذلك، فيقطع الالتفات إليه، أمّا إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجذبه بأنّ ما سمعه ليس هو المقصود، فإذاً تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع، على الكلام المقصود، فيه حكمة بالغة. تفسير الرازي:٢١/٢٦.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّه لو كان المراد هو جلب إقبال المخاطب لكلامه فلماذا خصّ ذلك بسور يبلغ عددها تسعاً وعشرين سورة، وأهمل سائر السور وهي كثيرة، حيث يبلغ عدد السور (١١٤) سورة، وهذا يعني أنّ ثلاثة أرباع القرآن يخلو من هذه الحروف!! ولمّا التفت الرازي إلى هذا الإشكال لجأ إلى القول بأنّ عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز.

وثانياً: أنّ الرازي تصوّر أنّه سبحانه أتى بهذه الحروف التي يبلغ عددها أربعة عشر حرفاً بلا حساب ولا مناسبة، لكنّه غفل عن أنّ هذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، فمثلاً تجد فيها من المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها إلى غير ذلك من صفات الحروف. وسوف تجد تفصيل ذلك في سورة الأحقاف في الجزء السادس والعشرين.

وثالثاً: أنّه سبحانه كلّما بدأ سورة بهذه الحروف ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن بعدها، إلاّ سور أربع وهي: مريم وهذه السورة والروم والقلم، ومع ذلك جاء ذكر الوحي والكتاب في أثناء هذه السور أيضاً، وهذا يؤيّد الرأي الذي اخترناه وأشرنا إليه آنفاً.

سورة العنكبوت: الآيات ٢ ـ ٧ (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ... أَحْسَنَ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ):

الآيات: الثانية إلى السابعة

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ):

المفردات

يفتنون، فتنّا: الفتنة: الامتحان والاختبار.

فليعلمنّ الله: أي ليظهرنّ صدقهم. ويمكن أن يراد العلم الفعلي الذي هو عين الأشياء في مقابل العلم الذاتي الذي هو قبل خلق الأشياء.

السيئات: الشرك والمعاصي الموبقة.

أن يسبقونا: أي أن يفوتون عن المجازاة.

ساء ما يحكمون: بئس الشيء الّذي يحكمون بتصوّرهم أنّهم يهربون من الله.

لقاء الله: يريد في يوم القيامة، وهو إمّا بمعنى لقاء جزائه أو لقاءً شهودياً لا صلة له بالرؤية البصرية.

أجل الله: الزمان الذي عيّنه الله تعالى للقائه، وهو يوم القيامة.

جاهد: بمعنى السعي للسعادة، نظير قوله سبحانه:(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي) العنكبوت:٨، وليس المراد الجهاد ضدّ المشركين لافتراض أنّ السورة مكية، ومن زعم أنّها مدنية تمسّك بهذا اللفظ وبالمنافقين في الآية ١١، وسيوافيك توضيح المراد من اللفظين خلال التفسير.

لنُكفِّرنّ: التكفير: الستر، أي ستر السيئات، من كفَر بمعنى ستَر.

التفسير

أشرنا فيما سبق إلى أنّ الامتحان الذي عبّر عنه سبحانه بالفتنة، سنّة إلهية جارية في عامّة الأُمم من غير استثناء وفي الأُمّة المرحومة خاصّة، والغرض من الفتنة هو أحد أمرين:

الأوّل: إخراج ما بالقوّة إلى الفعل، بمعنى أنّ الكمالات المعنوية المكنونة في نفس الإنسان تخرج بالامتحان من حدّها إلى الفعلية، ولولا الامتحان لبقي الكمال في حدّ القوّة، وذلك كامتحان الله سبحانه خليله إبراهيم(عليه السلام)الّذي كان مخلصاً في طاعته لربّه، ممتثلاً لأوامره ونواهيه، مستعدّاً لأداء ما يُعهد إليه من تكاليف، من غير فرق بين أن ترجع إلى نفسه أو إلى نفيسه من الأولاد والأموال، ولكن ذلك الكمال كان مكنوناً في ذات إبراهيم (عليه السلام)، فلمّا أمره سبحانه بذبح فلذة كبده، وامتثل هذا الأمر بالعزم على تنفيذه، تجلّى إخلاصه لله وفناؤه في حبّه، وصار ذلك سبباً لارتقائه إلى قمّة الكمال الإنساني حتى سمّي خليل الله ووفيّه. وإلى هذا المعنى يشير الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) في تفسير قوله:(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ)، قال: «وَمَعْنَى ذلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَ الرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلـكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ؛ لاِنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ، وَيَكْرَهُ انْثِلاَمَ الْحَالِ». نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ١٩٣.

الأمر الثاني: تمييز الصادق من الكاذب، فالمجتمع إذا كان مشتملاً على المؤمنين والكافرين، والطيبين والخبيثين، فتميّز إحدى الطائفتين عن الأُخرى هو الغاية السامية للفتنة، وإليه يشير سبحانه في قوله: (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) آل عمران:١٧٩.وهذه الغاية هي المقصودة من الآية التالية.

٢. (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ):

الفعل «حسب» يستعمل في الاستنكار، كما في قوله: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ) البقرة:٢١٤. ، ومعنى الآية أزعمَ (النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا) بمجرّد(أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا) بألسنتهم (وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ):أي لا يُمتحَنون ويُختَبرون؟ فهذا النوع من الإيمان دون أن يُعلم ثباته في القلب وانعكاس أثره في السلوك وفي الموقف العملي، غير كاف عند الله، ولذلك يقول:

٣. (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ):

يشير إلى أنّ الفتنة بمعنى الامتحان من سنن الله تعالى في سائر الأُمم، ولأجل التأكيد يقسم ويقول: (وَلَقَدْ) اللام للقسم (فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)اختبرناهم وامتحنّاهم بألوان الامتحانات الإلهية. ثمّ أشار إلى الغاية من ذلك، فقال : (فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) ومن المعلوم أنّه سبحانه عالم بكلّ الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ويعلم ما توسوس به نفسه، ورغم ذلك فهو يمتحن، لماذا؟ حتى يتحقّق صدق الصادقين وكذب الكاذبين، وتتبيّن مظاهرهما في ساحة الواقع.

وكأنّ الامتحان بمنزلة النار التي يتعرّض لها الذهب إذا أُريد تنقيته من الشوائب. وقد أُشير إلى هذه الغاية في آيات أُخرى، يقول سبحانه في تغيير القبلة:(إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ)(البقرة:١٤٣.) ويقول سبحانه:

(وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) آل عمران:١٤٠.، فعلمه سبحانه هنا عبارة عن ظهور الواقع للناس وتحقّقه.

وإليك بعض ما ورد عن المعصومين(عليهم السلام)حول الفتنة وأشكالها وسبل النجاة منها.

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: «إنّ لكلّ أُمّة فتنة، وفتنة أُمّتي المال». الترغيب والترهيب: ٤ / ١٧٨ برقم ٥٧ .

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: «لأنا لفتنة السرّاء أخوف عليكم من فتنة الضرّاء. إنّكم ابتُليتم بفتنة الضرّاء فصبرتم، وإنّ الدنيا حلوة خَضِرة». الترغيب والترهيب: ٤ / ١٨٤ برقم ٧٤ .

وقال الإمام علي (عليه السلام):«إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلاَئِقِ إِلَى اللهِ رَجُلاَنِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلاَمِ بِدْعَة، وَدُعَاءِ ضَلاَلَة، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ». نهج البلاغة: الخطبة ١٧ .

وقال (عليه السلام): «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لاَ ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلاَ ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ». نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١ (وابن اللَّبون: ابن الناقة إذا استكمل سنتين).

وقال (عليه السلام): «وَلاَ تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا، فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ». نهج البلاغة: الخطبة ١٨٧ .

وعن هشام بن سالم عن الإمام الصادق (عليه السلام)، قال: «ما من قبض ولا بسط إلاّ ولله فيه المنّ والابتلاء». التوحيد للصدوق: ٣٥٤ برقم ١، الباب ٥٧ ؛ بحار الأنوار : ٥ / ٢١٦ برقم ٤ (وفيه: لعلّ القبض والبسط في الأرزاق بالتوسيع والتقتير، وفي النفوس بالسرور والحزن، وفي الأبدان بالصحة والألم، وفي الأعمال بتوفيق الإقبال إليه وعدمه، وفي الأخلاق بالتحلية وعدمها، وفي الدعاء بالإجابة له وعدمها، وفي الأحكام بالرخصة في بعضها والنهي عن بعضها).

وأمّا صلة الآية ببيئة مكّة فهذا ما سنذكره تالياً.

٤. (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ):

(أَمْ) بمعنى «بل»، وقوله سبحانه:(أَمْ حَسِبَ) استفهام إنكاري يراد به إبطال هذا الحسبان، وأريد من (السَّيِّئَاتِ)الأعمال التي كانوا يقومون بها ضد المؤمنين من فنون الأذى والاضطهاد والتعذيب (أَنْ يَسْبِقُونَا): أي يغلبونا (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ): أي بئس الشيء الذي يحكمون حكمهم هذا، ونظير الآية قوله سبحانه: (فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ ومَا كَانُوا سَابِقِينَ). العنكبوت:٣٩.

وحاصل الآية: إنّ مجرمي قريش الذين كانوا يصبّون ألوان العذاب على المؤمنين يحسبون أنفسهم سابقين وغالبين كما يحسبوننا مسبوقين ومغلوبين، ساء هذا الحسبان وهذا الحكم، فسوف يُعلم من الغالب ومن المغلوب. وفي هذا الكلام نوع تقوية لقلوب المسلمين المعذَّبين ليتحمّلوا ما ينزل بهم من ضُرٍّ وأذىً، بصبر وثبات ، فالآية السابقة كانت ناظرة إليهم وأنّهم لا يُتركون بل يُفتنون حتّى تستبين حقيقة إيمانهم، وهذه الآية ناظرة إلى أعدائهم الذين كانوا يظنون أنّ لهم الغلبة بتسلّطهم على المؤمنين وسعيهم في أن يفتنوهم عن دينهم بالتعذيب .

٥. (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللّه فَإِنَّ أَجَلَ اللّه لآت وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ):

الآية تشتمل على مقاطع ثلاثة:

١. (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ).

٢. (فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآت).

٣. ختم الآية باسمين كريمين أعني: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

فلنرجع إلى تفسيرها فنقول:

أمّا الأوّل: فالظاهر أنّ ظرف اللقاء هو يوم القيامة، وهو المتبادر من هذه اللفظة في غير هذا المقام، مثل قوله:(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ) الأنعام:٣١.ومن المعلوم أنّ المشركين ينكرون البعث ويوم القيامة، كما في قوله تعالى:(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ). الروم:٨.

إنّما الكلام فيما هو المراد من اللقاء أو لقاء الله، فربّما يفسّر بلقاء جزاء الله من ثواب أو عقاب، ولكن الظاهر المراد وقوف العبد موقفاً لا حجاب بينه وبين ربّه إلاّ حجاب الذات، فإنّ يوم القيامة شأن ظهور الحقائق.

وأمّا الثاني ـ أعني:(أَجَلَ اللّه) ـ : فإنّه يستعمل تارة في نهاية الأجل المضروب، وأُخرى في مجموع المدّة، وأُريد هنا الأوّل وهو أجل يوم القيامة، الأجل الذي عيّنه الله سبحانه لحشر المؤمنين والكافرين فهو آت قطعاً فيَجزي فيه كلّ إنسان بفعله.

وأمّا الثالث ـ أعني: تذييل الفقرتين بالوصفين ـ : فواضح، فالله سميع لأقوال هؤلاء، عليم بأحوالهم وأعمالهم.

وفي الآية ـ أيضاً ـ نوع تقوية لقلوب الموحّدين في مكّة المكرمة بأنّ مَن يرجو لقاء الله ـ بأي معنى فسّر اللقاء ـ فليعلم أنّ أجل الله، أي الأجل الذي أجله سبحانه ليوم القيامة، سيأتي ويحشر الناس. فالناس خيّرهم وشرّيرهم يجزَون، والله كان سامعاً لكلامهم عليماً بأفعالهم.

٦. (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ):

الجهاد هنا بمعنى السعي في طريق الفلاح والصلاح وليس بالمعنى المصطلح، أعني: القتال مع الكفّار، وإنّما هو نظير قوله:(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي) العنكبوت:٨..

وحصيلة الآية: إنّ الذين كانوا راجين لقاء الله فليعملوا لهذا اليوم وليسعوا، ولذلك يقول:(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) فهو المنتفع بعمله ونظيره قوله سبحانه: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ).

ثمّ علّل ذلك بقوله:(إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ): أي مُستغن عن جميع خلقه، فليس له بطاعتهم انتفاع.

٧. (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ):

الآية عطف على قوله: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)فتكون تفسيراً له، فقال: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فالله سبحانه يجزيهم بوجهين:

١.(لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ): أي لنعفونّ عن سيئاتهم، فإنّ التكفير وإن كان بمعنى الستر ولكنّه كناية عن العفو.

٢. (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي نجزيهم بأحسن أعمالهم الصالحة، فلو كانت في أعمالهم جهة رديئة أو خسّة فنتعامل معها معاملة الجهة الفاقدة لها، وهذا هو المراد من قوله: (أَحْسَنَ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي فلمّا كان عملهم فاقداً لبعض وجوه الكمال نرفعه نحن إلى المرتبة الكاملة أي الأحسن.

وحصيلة هذه المجموعة من الآيات عبارة عن الأُمور التالية:

١. الاختبار والمحنة من سنن الله سبحانه، فلا يترك الإنسان بمجرّد قوله بلسانه: آمنت، وإنّما يختبره في ظروف مختلفة، حتّى يتكشّف جوهره.

٢. أنّ هذه السنّة كانت سائدة في الأُمم السابقة منذ زمن نوح إلى عصر المسيح(عليهما السلام)، فلقد امتحنهم سبحانه بضروب من البأساء والضرّاء من غير فرق بين الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا) آل عمران: ١٤٦ ..

٣. أنّ الغاية من المحنة هي إخراج ما بالقوّة إلى الفعل وتمييز الخبيث من الطيّب.

٤. أنّه سبحانه يمهل المشركين المتجاهرين بالسيئات، ولكن ظنّهم بأنّهم يسبقونه ويهربون من سلطانه ظنّ باطل، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال الإمام علي (عليه السلام): «وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ» نهج البلاغة: الخطبة ٩٧ ..

٥. أنّ الله يحثّ الراجين لقاء الله على السعي والجهاد قائلاً بأنّ مَن يجاهد فإنّما يجاهد لنفسه، وقد قال عزّ وجلّ في آية أُخرى: (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) الأنعام: ١٠٤ . .

٦. يبيّن عزّ وجلّ حقيقة السعي والجهاد بأنّه يتمثّل بالإيمان والعمل الصالح، ويذكر أنّ هذين العاملين يستتبعان تكفير السيئات وجزاء كلّ الأعمال بأحسن عمل يعمله الإنسان في حياته.

سورة العنكبوت: الآيتان ٨ ـ ٩ (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ... لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) .

الآيتان: الثامنة والتاسعة

(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) .

المفردات

وصّينا: الوصية: التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترن بوعظ، قال سبحانه: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) البقرة: ١٣٢ ..

حُسناً: الحسن عبارة عن كلّ مبهج مرغوب فيه .

جاهداك: الجَهد: ـ بالفتح ـ المشقّة، والجُهد ـ بالضمّ ـ الطاقة، والمراد هنا: جعلاك في المشقّة.

التفسير

٨ . (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

تستهدف الآية الأمر بالإحسان إلى الوالدين وطاعتهما ويقول: (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)ويركّز على ذلك في آية أُخرى أيضاً ويقول: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الإسراء: ٢٣ . .

إنّما الكلام في صلة الآية بما قبلها، والّذي يوضحه ما أخرجه غير واحد من المحدّثين عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أُمّي: لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتّى تكفر بمحمد، فامتنعت من الطعام والشراب حتّى جعلوا يسجرون فاها بالعصا، فنزلت هذه الآية . تفسير الدر المنثور: ٦ / ٤٥٢ .

الخدمة الكبرى

من بين الخدمات الّتي يقدّمها بعض الناس للبعض الآخر، لا تجد خدمة أفضل وأكبر ممّا يبذله الوالدان في حقّ أولادهما، فلا أبالغ إذا قلت: إنّ مثلهما مثل الشمعة الّتي تذيب نفسها وتضيء ما حولها فينتفع الغير بضوئها، وهكذا الوالدان فهما يبذلان ما في وسعهما من جهد وطاقة لأجل إسعاد الولد حتّى يبلغ إلى حدٍّ يستطيع فيه إدارة نفسه.

ولذلك نرى أنّ الإسلام يؤكّد على الإحسان إلى الوالدين والبِرّ بهما في غير واحدة من السور والآيات، كما في الموارد التالية:

١. قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).(البقرة: ٨٣ .)

٢. قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) النساء: ٣٦ ..

٣. قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الأنعام: ١٥١

٤. قال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الإسراء: ٢٣ ..

٥. قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) لقمان: ١٤ ..

٦. قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) الأحقاف: ١٥..

والإمعان في هذه الآيات يوقفنا على رؤية الإسلام لعلاقة الولد بوالديه، فالقرآن الكريم تارة يجعل عبادة الله في جنب الإحسان إلى الوالدين، وأُخرى يجعل النهي عن الشرك مقروناً بالأمر بالإحسان إلى الوالدين، فإذا كان الشرك من أعظم المحرّمات، فالإحسان إلى الوالدين يصبح من أعظم الواجبات.

وثالثة يوصي بشكرهما، ويبيّن وجه الإيصاء بالأُمّ وهو معاناة الحمل والضعف الناشئ عنه، وكذلك مشقّة الرضاع لمدّة حولين كاملين، كُلّ ذلك حباً بالولد وإيثاراً له، وأي إيثار أفضل من ذلك؟ والأنبياء مع عظمتهم ومقامهم عند الله جلّ شأنه كانوا يراعون حقوق الآباء والأُمهات أحياءً وأمواتاً.

فهذا نبي الله نوح (عليه السلام)يجعل استغفاره لنفسه في جنب استغفاره لوالديه ويقول: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا) نوح: ٢٨ ..

وهذا إبراهيم الخليل (عليه السلام)يدعو لنفسه كما يدعو لوالديه ويقول: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) إبراهيم: ٤١ ..

وهذا هو المسيح عيسى بن مريم (عليهما السلام)يفتخر بأنّ الله سبحانه جعله بارّاً بوالدته ويقول: (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي) مريم: ٣٢. ومع ذلك كلّه لم يأمر الله بإطاعة الوالدين على وجه الإطلاق وإنّما حدّدها وجعل لها إطاراً خاصّاً، وهو الإطاعة في الأمر المشروع لا المحظور، ولذلك قال: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا)لأن إطاعة الله سبحانه مقدّمة على إطاعة الوالدين. أضف إلى ذلك: أنّه إذا كانت إطاعة الغير ـ وإن كانت ذاتية على الإنسان ـ مورثة للضلال والانحراف عن طريق الهدى، فالعقل يحكم برفض الإطاعة في ذلك المقام .

ثم إنّه سبحانه ربّما يوعد من يطيع الوالدين بالأُمور المحظورة بقوله: (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فمرجع الجميع إلى الله فهو يجزي كلّ حسب عمله.. المحسن بإحسانه، والمسيء بما هو أهل له.

ومن المعلوم أنّ رفض إطاعة الوالدين لا يُعدّ عقوقاً، فالذي يجب على الولد حُسن معاشرتهما، والقيام ببرّهما، ورعاية الأدب معهما، وأمّا امتثال أمرهما فيما يضرّه ولا ينفعهما فالعقل والشرع ينفيه.

قال الإمام علي (عليه السلام): «فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْء، إِلاَّ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سبحانه». نهج البلاغة: الكلمات القصار برقم ٣٩٩ .

وروى الكليني عن معمر بن خلاّد] البغدادي [قال: قلت لأبي الحسن الرضا (عليه السلام): أدعو لوالديّ إذا كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: ادعُ لهما وتصدّق عنهما، وإنْ كانا حيَّين لا يعرفان الحقّ فدارِهما، فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال: «إنَّ اللهَ بَعَثني بالرَّحمة لا بالعُقوق». الكافي: ٢ / ١٥٩ برقم ٨ ، كتاب الكفر والإيمان، باب البرّ بالوالدين .

ويعجبني أن أذكر هذه الرواية للتدليل على مدى اهتمام أئمة أهل البيت(عليهم السلام)برعاية الوالدين :

روى الكليني عن زكريا بن إبراهيم، قال: كنت نصرانياً فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبدالله (عليه السلام)فقلت: إنّي كنت على النصرانيّة وإنّي أسلمت، فقال: وأيّ شيء رأيت في الإسلام؟ قلت: قول الله عزَّ وجلَّ: (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ

الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ) الشورى: ٥٢ .فقال: لقد هداك الله، ثمّ قال: اللّهم اهده ـ ثلاثاً ـ سَلْ عمّا شئت يا بُنيّ، فقلت: إنّ أبي وأمّي على النصرانيّة وأهل بيتي؛ وأُمّي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم؟ فقال: يأكلون لحم الخنزير؟ فقلت: لا ولا يمسّونه، فقال: لا بأس، فانظر أُمّك فبرّها، فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت الّذي تقوم بشأنها ولا تخبرنّ أحداً أنّك أتيتني حتّى تأتيني بمِنى إن شاء الله، قال: فأتيته بمنى والنّاس حوله كأنّه معلّم صبيان، هذا يسأله وهذا يسأله، فلمّا قدمت الكوفة ألطفت لأُمّي وكنت أطعمها وأفلّي ثوبها ورأسها أفلّي وفلّى: يفتش ويفحص. وأخدمها، فقالت لي: يا بنيّ ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني فما الّذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفيّة؟ فقلت: رجلٌ من ولد نبيّنا أمرني بهذا، فقالت: هذا الرّجل هو نبيّ؟ فقلت: لا، ولكنّه ابن نبيّ، فقالت: يا بنيّ إنَّ هذا نبيٌّ إنَّ هذه وصايا الأنبياء، فقلت: يا أُمّه إنّه ليس يكون بعد نبيّنا نبيّ ولكنّه ابنه، فقالت: يا بنيّ دينك خير دين، أعرضه عليّ فعرضته عليها فدخلت في الإسلام وعلّمتها، فصلّت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثمَّ عرض لها عارضٌ في اللّيل، فقالت: يا بنيَّ أعد عليَّ ما علَّمتني فأعدته عليها، فأقرَّت به وماتت، فلمّا أصبحت كان المسلمون الذين غسّلوها، وكنت أنا الّذي صلّيت عليها ونزلت في قبرها. الكافي: ٢ / ١٦٠ ـ ١٦١ برقم ١١، كتاب الإيمان والكفر، باب البرّ بالوالدين.

٩. (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) :

تضمّنت الآية أثراً ثالثاً للإيمان والعمل الصالح، فقد تقدّم في الآية السابعة أنّ من آمن وعمل صالحاً تُكفَّر عنه سيئاته أوّلاً ويُجزى بأحسن ما كان يعمل، وأشارت هذه الآية إلى أثر ثالث وهو أنّه سبحانه يجعله من الصالحين، والمراد من الصالحين هم الأبرار. ومن المعلوم أنّ الإدخال في زمرة الصالحين كالشهداء والأولياء أرفع بكثير من العفو والجزاء.

سورة العنكبوت: الآيات ١٠ ـ ١٣ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللّه ... وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .
الآيات: العاشرة إلى الثالثة عشرة

المفردات

فتنة: عذاب.

خطاياكم: الخطايا: الآثام.

أثقالهم: جمع ثقل، أُريد بها خطاياهم وأوزارهم.

التفسير

١٠ و ١١. (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ):

هاتان الآيتان صارتا سبباً لتوهُّم أنّ الآيات العشر من هذه السورة مدنية خصوصاً بالنظر إلى ذكر المنافقين فيهما، ولكنّ أسباب النزول توضّح لنا مفاد الآيتين وأنّه لا صلة لهما بما ذكر، وقد نقل الطبرسي عن الكلبي سبب نزول الآية وقال: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنّه أسلم، فخاف أهل بيته، فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فحلفت أُمّه أسماء بنت مخرمة بن أبي جندل التميمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل كِنّاً حتّى يرجع إليها، فلمّا رأى ابناها: أبو جهل و الحارث ابن هشام ـ وهما أخوا عيّاش لأُمّه ـ جزعها ركبا في طلبه، حتّى أتيا المدينة فلقياه وذكرا له القصة، فلم يزالا به حتّى أخذ عليهما المواثيق أن لا يصرفاه عن دينه وتبعهما، وقد كانت أُمّه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت، فلمّا خرجوا من المدينة أخذاه وأوثقاه كتافاً، وجلده كلّ واحد منهما مئة جلدة حتّى برئ من دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

جزءاً من الضرب، وقال ما لا ينبغي فنزلت الآية. مجمع البيان: ٨ / ٨ ـ ٩. وانظر: الكامل في التاريخ: ٢ / ١٠١ .

وقال ابن إسحاق، والواقدي: إنّ عيّاشاً هاجر إلى المدينة، فلمّا نزل قُباء قدم عليه أخواه لأُمّه: أبو جهل والحارث ابنا هشام، فلم يزالا به حتّى ردّاه إلى مكة فأوثقاه وحبساه، ثم أفلتَ بعد ذلك فقدم المدينة. طبقات ابن سعد: ٤ / ١٢٩ .

وعلى كلّ تقدير، فإنّ مَنْ دخل في حظيرة الإيمان على قسمين:

فقسم خالط الإيمان دمهم ولحمهم ومشاعرهم وفكرهم، فلا تزعزعهم الحوادث القاسية بل يبقون صامدين يردّون سهام الأعداء بصدورهم، وربّما ينتهي بهم الأمر إلى أن يذوقوا كأس المنون في طريق دينهم، وهؤلاء هم الّذين يصدّق قولَهم عملَهم، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) الحجرات: ١٥ ..

وقسم منهم يتظاهر بالإيمان فربّما يصلّي ويصوم ولكنْ إذا تعرّضت مصالحه للخطر، تراه يتخلّى عن الإيمان ويترك ما كان عليه سابقاً، فهؤلاء هم المذبذبون الانتهازيون الّذين يميلون مع كلّ ريح، وإليهم يشير قوله سبحانه: (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) النساء: ١٤١ ..

وهؤلاء هم الذين يصفهم أبو الشهداء وسيدهم الإمام الحسين (عليه السلام)بقوله: «الناس عبيد الدنيا، والدين لَعْق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قَلَّ الديّانون» تحف العقول: ٣٤٥ ..

وبهذا ظهر معنى قوله سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ)بلسانه (فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ): أي أُوذي لأجل إيمانه رجع عنه ولم يثبت عليه، ليتفادى ما يلحقه من أذى الناس، فيساوي بين عذاب منقطع وعذاب دائم، كما قال: (جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ). والعجب أنّ هؤلاء يتظاهرون بالإيمان والإخلاص إن هبّت على المؤمنين أنسام العافية واليُسر، وانقشعت عنهم سُحُب الشدّة والعسر، كما يقول تعالى: (وَلَئِنْ جَاءَ) للمؤمنين (نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ)وقد فسّره بعضهم بالنصر العسكري الّذي سيحصل بعد الهجرة، فتراهم يغيّرون اتجاههم بمقدار زاويتين قائمتين، ويدّعون الإيمان، كما يقول: (لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ): أي متابعين لكم في الإيمان ثابتين عليه ، فنحن معكم في المنافع والمغانم، ولكن بطل ادّعاؤهم؛ لأنّ الله عالم بحقيقتهم: (أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ): أي أنّه اعلم بكذبهم.

وقد مرّ أنّ الغاية من المحنة خروج ما بالقوّة إلى الفعل وما في السريرة إلى الظاهر، كما قال الإمام علي(عليه السلام): «فِي تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ» نهج البلاغة: الكلمات القصار برقم ٢١٧ ، فيُعرف المؤمن بثباته في مقابل عذاب الناس، كما يقول سبحانه: (وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا): أي يحقّق إيمانهم ويظهره (وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) كما يحقّق نفاقهم وعدم إيمانهم وأحابيلهم، فأُريد من المنافقين هؤلاء الذين كان لهم درجة من الإيمان على حدٍّ إذا اصطدم مع مصالحهم الدنيوية تنكّروا له وعادوا إلى الكفر، وهذا النوع من النفاق غيره في الفترة المدنية، فالمنافقون في المدينة لم يؤمنوا من أوّل أيامهم بل كانوا عبدة للأصنام باطناً وتظاهروا بعبادة الله صوناً لدمائهم. وبذلك يُعلم أنّ المراد بالنفاق في هذه السورة ـ مع القول بأنّها مكّية ـ هو الإيمان المتزلزل غير الراسخ والّذي يرجع عنه صاحبه عند الابتلاء والامتحان، وهو غير النفاق الّذي تلبّس به فريق من الناس في العهد المدني، فهؤلاء كانوا يبطنون الكفر ولم يكونوا مؤمنين لحظة واحدة.

١٢ و ١٣. (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْء إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ):

ثم إنّ المشركين كانوا يخدعون الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)خداعاً أشبه ما يكون بخدعة الصبيّ عن اللبن، وكانوا يقولون لهم: لا تتّبعوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فإن كنتم تخافون خطاياكم عند الله كما خوّفكم بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فنحن نحملها عنكم، ومن المعلوم أنّ كلامهم هذا كان هراءً وتكذيباً للبعث، وإن كان ظاهر كلامهم على الخلاف، كما يقول: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)المشركون (لِلَّذِينَ آمَنُوا)الذين يريدون إيذاءهم (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا)أي سبيل آبائنا (وَ) لو كان عليكم خطايا عند ربكم (لْنَحْمِلْ)نحن (خَطَايَاكُمْ): أي ذنوبكم عند البعث، ولكنّهم يكذبون في هذا الوعد (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْء)لفظة (مِنْ)الثانية زائدة للتأكيد، ووجه ذلك (إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ): أي يقولون قولاً ليس عليه مسحة من الصدق ولا لمسة من الحق؛ لأنّ كلّ إنسان يحمل أوزاره، ولا معنى لأن يقترف إنسان ذنباً ويحمل تبعته آخر. ومع ذلك كلّه فالله سبحانه يعاقب هؤلاء المخادعين بعقابين: عقاب لضلالهم: وعقاب لإضلالهم الناس، وليس هذا بمعنى تحمّل خطايا الآخرين، بشهادة أنّهم أيضاً يعاقَبون على ضلالهم، كما يقول: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ): أي خطاياهم وأوزارهم بعينها فهي لازمة لفاعليها، ومع ذلك يحملون من الأوزار مثل أثقال فاعليها من دون أن ينقص من فاعليها شيء (وَأَثْقَالاً)مثل أثقالهم، أضف إلى ذلك (مَعَ)ما للمخدوعين من (أَثْقَالِهِمْ)فيصير معنى الآية: للمضلّ عقابان، وللضالّ عقاب واحد، فقوله: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً)إشارة إلى العقابين للخادعين (مَعَ أَثْقَالِهِمْ)إشارة إلى عقاب المخدوعين، نظير قوله سبحانه: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ). النحل: ٢٥ .

قوله تعالى: (وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) والظاهر أن المراد من الافتراء هو ادعاؤهم حمل أوزار المخدوعين أي قولهم: (وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ).

مسألة الفداء عند النصارى

تعتقد النصرانية بأنّ سيدنا المسيح (عليه السلام)قد صُلب وعلّق على صليب اليهود لأجل أن يكفّر عن ذنوب البشر وينقذهم من العقاب، وأُريد من الذنوب الذنب الذاتي الّذي ورثوه من أبيهم آدم (عليه السلام)، فإنّه لمّا عصى الله سبحانه بالأكل من الشجرة المنهيّ عنها ركبه ذنب، وانتقل ذلك الذنب إلى أبنائه وأولاده، فصار كلّ البشر مذنبين إلى يوم القيامة. وبما أنّ المسيح لم يكن من صُلب آدم فكان طاهراً من ذلك الذنب، فلأجل أن يطهّر البشرية من الذنب تعرّض للصلب.

وهم يصرّون على ذلك ويعتقدون بأنّ طريق الخلاص من العذاب هو الإيمان بهذه المسألة.(لاحظ: الكتاب المقدّس (الإنجيل) في مواضع مختلفة.) وهو بعيد عن المنطق، ولا يمكن تفسيره بأي وجه.

ولكن العقل الحصيف يردّ ذلك وأنّه افتراء على المسيح وذلك:

أوّلاً: لو أنّنا فرضنا أنّ أبانا آدم (عليه السلام)اقترف ذنباً، فما معنى انتقال ذنبه إلى أولاده؟ ولو صحّ ذلك فلماذا لا تنتقل ذنوب الطبقة الأُولى من أولاده إلى الطبقة الثانية ومعاصي هذه الطبقة إلى الطبقة الثالثة، وهلمّ جرّا؟ فإنّ أخذ البريء بذنب المجرم أمر لا يقبله كلّ ذي لُبّ.

وثانياً: لو افترضنا الانتقال وصار ذراري آدم كلّهم مذنبين، فتطهير هؤلاء من هذا الذنب موكول إليهم أنفسهم حتّى يستغفروا وينيبوا إلى ربّهم، وإلاّ فقيام المسيح بقبول الفداء لا يطهّر الأولاد من الذنب .

لنفترض أنّ ثمّة إنساناً ضعيفاً نحيفاً يحتاج لرفع ضعفه إلى الغذاء والدواء، وشرب ما يقوّيه، فهو لا يتقوّى بتناول أخيه أو أُمّه أو جاره ذلك الغذاء أو الدواء، ولذلك نرى أنّه سبحانه يؤكّد في آيات مختلفة على أنّ كلّ فرد مسؤول عن أعماله، وعن تحمُّل تبعة آثامه ، فيقول مثلاً: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبى). فاطر: ١٨ .

ويقول أيضاً: (وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ).(المعارج: ١٠ ـ ١١.)

***

بقي هنا سؤال، وهو أنّ المتبادر من قوله سبحانه: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ) وقوله سبحانه: (أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) النجم: ٣٨ .هو عدم تحمّل أي إنسان وزر آخر، ولكنّنا نجد انتقاض هذه القاعدة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

أمّا الأُولى: فلأنّ العاقل يضمن دية الجاني الخاطئ كما هو قول الفقهاء عامّة، لاحظ : الخلاف للشيخ الطوسي: ٥ / ٢٨١، المسألة ١٠٤ . وقد ذكروا في كتبهم الفقهية شروطاً لتحمّل الدِّيَة. وعلى كلّ تقدير، ففي مورد وجود الشرائط تنتقض القاعدة.

الجواب: أنّ تحمّل العاقلة ديّة الجاني خطأً، نوع إعانة للخاطئ حيث إنّ القيام بوجوب دفع جميع ما على الجاني أمر باهظ موجب للعسر والحرج، يقول سبحانه: (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَة مُؤْمِنَة وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ). النساء: ٩٢ .

يقول ابن قدامة: إنّ جنايات الخطأ تكثر ودية الآدمي كثيرة، فإيجابه على الجاني في ماله يُجحف به، فاقتضت الحكمة إيجابها على العاقلة على سبيل المواساة للقاتل، والإعانة له، تخفيفاً عنه إذا كان معذوراً في فعله وينفرد (الجاني) بالكفّارة. المغني لابن قدامة: ٩ / ٤٩٧ .

وليس ضمان العاقلة أمراً بديعاً، بل له نظير في الفقه الإسلامي، وهو عقد ضمان الجريرة بين الطرفين، كأن يقول أحدهما: عاقدتك على أن تنصرني وتدفع عنّي وتعقل عنّي وترثني، فيقول الآخر: قبلت، وهو من العقود اللازمة. (الروضة البهية للشهيد الثاني: ٨ / ١٨٩ ط . دار العالم الإسلامي .)

فإنّ ضمان الجريرة عند ذاك مبنيّ على نوع تعاون بين العاقدين، فهذا يتحمّل جريرته مقابل أن يرثه.

وقد قام عقد التأمين في العصر الحاضر مقام ضمان الجريرة أو ضمان العاقلة، لكن بصورة أُخرى كما هو محرّر في محلّه، وليس لنا أن نفسّر هذا التشريع السماوي بالتقاليد القَبَليّة في المجتمع القبليّ.

هذا ما حرّرناه في الإجابة عن هذا السؤال، ومن أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى «أحكام الدّيَات في الشريعة الإسلاميّة الغرّاء».
أحكام الدّيَات في الشريعة الإسلاميّة الغرّاء: ٦٠١ ـ ٦١٩ .

وأمّا الثانية ـ أي انتقاض القاعدة في الحياة الأُخروية ـ فممّا روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: «مَن سنّ خيراً فاستنّ به كان له أجره ومن أُجور من تَبِعهم غير مُنتقص من أُجورهم شيئاً، ومن أسنّ شرّاً فاستنّ به كان عليه وزره ومن أوزار من تَبِعه غير مُنتقص من أوزارهم شيئاً » الدر المنثور: ٦ / ٤٥٥ ..

وروي عن إسماعيل الجعفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي صلوات الله عليهما يقول: «مَن سنّ سنّة عدْل فاتُّبع كان له مثل أجر من عمل بها من غير أن يُنقص من أُجورهم شيء، ومن سنّ سنّة جور فاتُّبع كان عليه وزر مَن عمل بها من غير أن يُنَقص من أوزارهم شيء». أمالي المفيد: ١٩١ ح ١٩ .

فإذا كان على مَن سنّ سنّة سيئة وزر من عمل بها فقد انتقضت القاعدة، أعني قوله سبحانه: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى).

والجواب: أنّ القاعدة ناظرة إلى ما إذا لم يكن هناك أي صلة بين الشخصين، فحمل وزر من لا صلة له بارتكاب الآخر ظلم منزّه عنه سبحانه، وأمّا مورد الرواية فيخصّ مَن سنّ سنّة سيّئة وصار ـ بعمله هذا ـ سبباً لاقتداء الآخرين به وإقبالهم على اجتراحها، ولولا سنّته السيّئة لما تبعه الآخرون فيها.

***

سورة العنكبوت: الآيات ١٤ ـ ١٨ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ ... وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ).

الآيات: الرابعة عشرة إلى الثامنة عشرة

المفردات

الطوفان: السَّيل المُغرق. يقول الراجز: أفناهم الطوفان موت جارف. والموت الجارف موت عام يحيط بالناس كالسَّيل.

آية للعالمين: علامة للخلائق أجمعين يعتبرون بها إلى يوم القيامة لأنّها فرّقت بين المؤمنين والكافرين.

إفكاً: الإفك: كلّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن مهابها بالمؤتفكة، ويوصف الكذب بالإفك لأجل صرفه عن الحقّ إلى الباطل. المفردات للراغب: ١٩، مادة «افك».

التفسير

لمّا ذكرت الآيات السابقة أذى المشركين للمؤمنين، وهم بين صامد أمام عذاب الناس، ومتولّ وراجع إلى دين آبائه، نزلت هذه الآيات لتسلية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وأصحابه، وذلك بالإشارة إلى ما تعرّض له الأنبياء السابقون وأقوامهم من ابتلاء واختبار، وكيف أنّ الله سبحانه نجّى المؤمنين منهم وعذّب الآخرين، وذكر في هذا الصدد قصّة نوح وقصة إبراهيم اللّذين يُعدّان بَطَلين في نشر التوحيد ومكافحة الوثنية، أمّا الأوّل فقال عنه:

١٤. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَة إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ):

لقد قام النبي نوح (عليه السلام)بدعوة قومه إلى التوحيد كما يقول سبحانه: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)لمكافحة الوثنية (فَلَبِثَ فِيهِمْ): أي عاش فيهم (أَلْفَ سَنَة إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا) يدعوهم فيها إلى عبادة الله وحده وإلى الكفّ عن الظلم والفساد.

ثم إنّ المتبادر من قوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَة إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا) أنّ هذه المدّة كانت مدة رسالته بقرينة تفرّع (فَلَبِثَ)على (أَرْسَلْنَا) وإلاّ فلو كان المراد مدّة عمره وعيشه لجاء التعبير بشكل آخر فيقول: لقد عاش نوح في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. وعلى أي حال فقد قام بدعوة قومه إلى التوحيد ورفض الوثنية بأساليب مختلفة، ولكن لم تؤثر دعوته إلاّ في عدد قليل منهم، فاستحقّ المعاندون العذاب (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ): أي السيل المغرق (وَهُمْ ظَالِمُونَ) وأي ظلم أكبر من الشرك بالله . والآية تدلّ على أنّ في وسع الإنسان أن يعيش مئات السنين بإذن الله سبحانه. والعجب أنّ هناك مَن يتلو هذه الآية ومع ذلك تراه يعترض على مسألة طول عمر الإمام المهديّ المنتظر «عجل الله فرجه الشريف»، وكأنّه لم يخشَ أن يكون من الّذين (مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ). الحجّ: ٧٤ وسيوافيك فيه الكلام بعد قليل.

هذا، وليس أمراً عجيباً أنّ يعيش نوح بين قومه، وهو يستنشق الهواء الطلق ويأكل ويشرب ممّا يمدّ حياته، وأين هو من إمكان العيش في بطن الحوت الّذي أخبر عنه سبحانه ـ في مورد يونس ـ بقوله: (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).(الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤.)

١٥. (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) :

ولمّا كانت هنا مظنّة سؤال عن أنّ الطوفان لا يعرف الصديق والعدوّ، فإذا نزل يُغرق المشرك والمؤمن على السواء، جاءت الآية جواباً لهذا السؤال وهو أنّه سبحانه لا يترك عمل المؤمن سُدىً، فلذلك (فَأَنْجَيْنَاهُ): أي أنجينا نوحاً (وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ)الذين كانوا فيها (وَجَعَلْنَاهَا)السفينة أو الحادثة (آيَةً لِلْعَالَمِينَ).

والظاهر أنّ الضمير في (جَعَلْنَاهَا) يرجع إلى السفينة، فالآية هي السفينة بقرينة قوله سبحانه: (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر) القمر: ١٥ ، وقوله في سورة أُخرى (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) الحاقة: ١١ ـ

١٢. وسيوافيك توضيح ذلك في تفسير سورة القمر.

استبعاد وليس ببرهان

ثم إنّ بعض مَن ليس له قدم راسخة في المعارف الدينية يستبعد إمكانية أن يطول عمر صاحب العصر والزمان كلّ هذه المدّة، ويقول: كيف يمكن لإنسان أن يعيش أكثر من ١١٨٠ سنة؟ ونجيب عن ذلك بالقول: لو أراد سبحانه حفظ وليّه عبر الزمان إلى أن ينهض بدوره العظيم في بسط العدل وقلع جذور الظلم في أنحاء المعمورة، فليس ذلك أمراً بديعاً أو شيئاً غير ممكن، فهذا نوح (عليه السلام)ـ كما مرّ عليك ـ قد مكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يمارس فيها دوره الرسالي، والله يعلم في أي سنة من سنين عمره بعث لتبليغ الرسالة.

وهذه هي قدرة الله البالغة تحفظ رسوله يونس (عليه السلام)في بطن الحوت، ويخبر بأنّه لولا تسبيحه للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون.

ويؤكّد ذلك اتّفاق الأُمّة الإسلاميّة على أنّ المسيح (عليه السلام)حيّ يرزق إلى أن ينزل في آخر الزمان ويأتمّ في صلاته بالإمام المهدي (عليه السلام). قال محمد بن الحسين الآبُريّ الشافعيّ (المتوفّى ٣٦٣ هـ): قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)في المهدي، وأنّه من أهل بيته... وأنّه يؤمّ هذه الأُمّة، وعيسى صلوات اللهِ عليه يصلّي خلفه. تهذيب الكمال: ٢٥ / ١٤٩ برقم ٥١٨١، وفتح الباري: ٦ / ٤٩٣ ـ ٤٩٤ .

قال العلاّمة الكراجكي في «كنز الفوائد» في الكتاب الموسوم بالبرهان على صحّة طول عمر الإمام صاحب الزمان: إنّ أهل الملل كلّهم متّفقون على جواز امتداد الأعمار وطولها، وقال بعد ذكر بعض ما في التوراة: وقد تضمّنت نظيره شريعة الإسلام، ولم نجد أحداً من علماء المسلمين يخالفه أو يعتقد فيه البطلان، بل أجمعوا على جواز طول الأعمار على ما ذكرناه.

وقد نقل مثل ذلك عن المجوس والبراهمة والبوذيين وغيرهم.

هذا كلّه مع ما ثبت في علم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم الطب، من إمكان طول عمر الإنسان إذا واظب على رعاية قواعد حفظ الصحة، وأنّ موت الإنسان ليس سببه أنّه عمّر تسعين أو ثمانين بل لعوارض تمنع من استمرار الحياة. وقد تمكّن بعض العلماء من إطالة عمر بعض الحيوانات (٩٠٠) ضعف عمره الطبيعي، فإذا اعتبرنا ذلك في الإنسان وقدّرنا عمره الطبيعي (٨٠ سنة) كان بالإمكان إطالة عمره (٧٢٠٠٠ سنة). وهذا هو العالم هوفلند (وهو من العلماء الذين صرفوا عنايتهم إلى درس الحياة) يقول في كتابه: «فن إطالة العمر»: إنّ المرء يولد مستعدّاً للحياة قرنين من حيث تركيب بنيته ونظام قواه قياساً على ما نراه في الحيوانات.

ويقول الدكتور فورونوف بإمكان إطالة الأعمار وبإمكان عود الشباب وقد أجرى تجاربه على بعض الحيوانات وقد تكلّلت العمليات بالنجاح، وغيرها من أقوال العلماء الّتي تؤكّد على إمكان إطالة عمر الإنسان. راجع بصدد هذا الموضوع: منتخب الأثر:٢/٢٧٦ـ ٢٨٢، ففيه بحث مفصّل.

وثمّة بحث قيّم للشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره)تناول فيه هذه المسألة على ضوء الإمكانات الثلاث: الإمكان العلمي، والإمكان العملي، والإمكان المنطقي أو الفلسفي، وخلص إلى هذه النتيجة:

أنّ طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعدّدة أمر ممكن منطقياً، وممكن علمياً ـ سواء أُخذ بوجهة النظر العلمية الّتي تتجّه إلى تفسير الشيخوخة بوصفها نتيجة صراع واحتكاك مع المؤثرات الخارجية، أم أُخذ بوجهة النظر الّتي تميل إلى افتراض الشيخوخة قانوناً طبيعياً للخلايا والأنسجة الحيّة نفسها ـ ولكنّه لا يزال غير ممكن عملياً، إلاّ أنّ اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل. بحث حول المهدي: ٢٦ ـ ٣٧، المطبوع في مقدمة كتاب «تاريخ الغيبة الصغرى» للشهيد السيد محمد بن محمد صادق الصدر، دار التعارف، ١٤١٢ هـ .

إلى هنا تمّت قصة نبي الله نوح (عليه السلام)ثم بدأ سبحانه بذكر قصة إبراهيم (عليه السلام)الّذي لاقى في طريق دعوته ما لاقى من المصاعب والأهوال.

١٦. (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) :

بدأ سبحانه بذكر ثاني الأنبياء الكبار من أُولي العزم وهو النبيّ إبراهيم الخليل (عليه السلام)، الذي نشأ في أُمّة عريقة في الوثنية ولكنّه قام بنفسه في مكافحتها بكلّ ما أُوتي من حول وقوّة إلى حدّ لم يجد القوم بدّاً من الحكم عليه بالإحراق، وهذا يدلّ على أنّ أعداء التوحيد يقابلون رجال الإصلاح بمنطق القوة الغاشمة.

ثم إنّ إبراهيم دعاهم إلى أمرين:

١. عبادة الله سبحانه.

٢. التقوى، كما قال: (وَإِبْرَاهِيمَ)معطوفاً على نوح والتقدير: وأرسلنا إبراهيم (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ)لا الأوثان والأصنام (وَاتَّقُوهُ): أي اتّقوا عذابه (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ): أي لو فكّرتم في ذلك لوجدتم أنّ ما دعوتكم إليه خير لكم، ففي عبادة الله ثواب الآخرة وفي الاجتناب عن معصيته نجاة من عذابها.

١٧. (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

كان الأنبياء(عليهم السلام)يكافحون الوثنية بوجوه متنوّعة، ويقيمون، على صحّة دعوتهم إلى التوحيد والهدى وبطلان عقيدة المشركين، مختلف الحجج والبراهين، وفي هذا المقام يحتجّ عليهم إبراهيم الخليل بوجوه ثلاثة:

الأوّل: قوله لهم (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا)لا تسمع ولا تعقل ولا تبصر، والوثن عبارة عن صورة من حجر أو خشب مجسّمة على صورة إنسان أو حيوان، والفرق بين الوثن والصنم كون الأوّل أخصّ من الثاني، إذ لا يشترط في الصنم أيّة صورة، فأكثر ما كان العرب يعبدونه كان أصناماً بلا صور، فالنبي إبراهيم (عليه السلام)يؤكّد في هذه الفقرة على أنّ هذه الأصنام فاقدة للروح، إذ ليس لها إرادة ولا شعور.

الثاني: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا)وأنتم بتسميتهم آلهة تكذبون، إذ ليس لها من الأُلوهية سوى التسمية الكاذبة، ولذلك يقول سبحانه: (أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) الأعراف: ٧١ ..

قال الشريف الرضيّ: وهذه استعارة، والمراد أنّكم خلقتم من الأصنام صوراً، أي قدّرتموها على اختياراتكم ـ وأصل الخلق التقدير ـ ثم جعلتموها آلهة تعبدونها، والإله المعبود إنّما هو الخالق لا المخلوق والصانع لا المصنوع، فكأنّه قال: إنّكم جعلتم كذباً من الإله تعبدونه من دون الله ، والإفك هاهنا هو الكذب. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٠.

الثالث: (لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا): أي لا يملكون لكم رزقاً أصلاً، فمن لا يملك الرزق لا يستحقّ العبادة.

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ)فالتمسوا الرزق عند الله لا عند أوثانكم، وبما أنّه الرزّاق فرّع عليه الأمرين التاليين وقال: (وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ). ثم إنّكم تجدون نتيجة أعمالكم، إذ (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فلابدّ للحياة الأُخروية من استعداد.

١٨. (وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ):

ثم إنّ إبراهيم (عليه السلام)لمّا أتمّ الحجّة عليهم أخذ في النصح لهم قائلاً بأنّ تكذيبكم ليس شيئاً جديداً، بل هو ديدن الأُمم الماضية مع أنبيائهم، فأنتم إنْ تصدّقوني فقد فزتم بسعادة الدارين (وَإِنْ تُكَذِّبُوا): أي تكذبوني فيما دعوتكم إليه فلا عجب (فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ)رسلهم كنوح وهود وصالح فذاقوا وبال عملهم. وأمّا الرسول فليس عليه إلاّ الدعوة لا

الإكراه كما يقول سبحانه: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ): أي التبليغ الذي يرفع الشكّ عن ذهن المخاطب ويريه مستقبل أمره، وقد قمتُ بذلك.

سورة العنكبوت: الآيات ١٩ ـ ٢٣ (أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ... وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

الآيات: التاسعة عشرة إلى الثالثة والعشرين

(أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِير * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

المفردات

النشأة: الخلقُ والإيجاد.

تُقلَبون: القلب هو الرجوع والردّ. أي إليه ترجعون يوم القيامة.

مُعجزين: أي جاعلين الله عاجزاً.

وليّ: قريب.

نصير: معين.

التفسير

لمّا تقدّم ذكر المعاد في قوله: (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) صار ذلك سبباً للتحدّث عنه بإقامة البرهان عليه، وهذه الآيات الخمس من كلامه سبحانه وردت في خلال قصة إبراهيم، ووجه ذلك ما أشرنا إليه من وجود الإشارة إلى المعاد في قصة إبراهيم. ويمكن أن يكون له وجه آخر فقد تقدّم ذكر التوحيد في قوله: (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ) العنكبوت: ٦ .، وتقدّم ذكر الرسالة في قوله: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) العنكبوت: ١٨ .فأوجب ذلك ذكر المعاد حتّى يتم بيان الأُصول الثلاثة الّتي يدور عليها فلَك الإسلام .

ثم إنّه سبحانه احتجّ على مشركي قريش الذين كانوا ينكرون المعاد ببيانين مختلفين: الأوّل في الآية التالية:

١٩. (أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ):

يذكر سبحانه إنشاء الخلق وإعادته، ويوجّه نظر الإنسان إليهما بصورة الاستفهام الإنكاري، فيقول: (أَوَ لَمْ يَرَوْا)رؤية حسّيّة أُولئك الّذين ينكرون البعث والنشور (كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ)كيف يُنشئُه؟ ومن المعلوم أنّه رؤية حسّية، فكلّ إنسان يرى بأُمّ عينه ولادة بعد ولادة في الإنسان، وإنّما الكلام في الجزء الثاني، أعني قوله: (ثُمَّ يُعِيدُهُ)، فلأجل أنّه ليس أمراً محسوساً ذكر الزمخشري بأنّ الجملة عطف على (أَوَ لَمْ يَرَوْا)لا على قوله: (يُبْدِئُ)فكأنّه قال: أو لم يروا كيف يُنشئُ اللهُ الخلق بعد الخلق، فعند ذلك فاعلموا أنّ الله سبحانه: (ثُمَّ يُعِيدُهُ)وعندئذ لا تكون الإعادة جزءاً للمرئيّ، وإنّما هي كلام مستقل جاء بعد عطف نظر الإنسان إلى النشأة الأُولى فنبّهه على أن لا يقصر نظره على النشأة الأُولى بل يعطف نظره أيضاً إلى النشأة الأُخرى. قال في «الكشّاف»: (ثُمَّ يُعِيدُهُ)ليس بمعطوف على يبدئ، وليست الرؤية واقعة عليه، وإنّما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت، كما وقع النظر في قوله تعالى: (فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ) على البدء دون الإنشاء، ونحو قولك : مازلت أُوثر فلاناً وأستخلفه على من أخلفه. تفسير الكشّاف: ٣ / ١٨٧ .

ولمّا كان هذا التأويل ـ أي فصل قوله: (ثُمَّ يُعِيدُهُ) عن قوله: (يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ)ـ على خلاف الظاهر من جانب، ومن جانب آخر

أنّ الرؤية الحسّية تتعلّق بالأمر الأوّل دون الثاني؛ لأنّ المفروض أنّه يتحقّق يوم القيامة، لجأ بعضهم إلى التصرّف في معنى الإعادة وقال: إنّ المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم، ولكنّه غير تام، لأنّ الإعادة في المعاد إعادة نفس الشيء لا مثله، فعندئذ يكون الاستدلال غير كاف في إثبات المقصود.

ويمكن أن يقال: إنّ الإبداء والإعادة متعلّقان بالرؤية ولكنّ المراد من الرؤية هي العلمية، فالإبداء مرئيّ بالرؤيتين الحسيّة والعلمية لكنّ تعلّق العلم بالإبداء يكون دليلاً علمياً على تعلّق الرؤية العلمية بالإعادة أيضاً ببيان أنّ الإبداء ثم الإعادة من سنخ واحد وهو الإنشاء والإيجاد، فالقادر على الإنشاء الأوّل قادر على الإنشاء الثاني.

ويدلّ على ما ذكرنا من أن الإعادة أمر مرئيّ كالإبداء قوله في ذيل الآية: (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) وذلك لأنّ القادر على الإنشاء ابتداء من غير سبق مادة أَولى بالإنشاء بعد وجود المادة. نعم قولنا: هذا أيسر من ذاك حسب منظارنا، وإلاّ فالجميع أمام قدرة الله سبحانه على وجه سواء.

قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ» نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥..

٢٠. (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ):

تضمّنت الآية برهاناً ثانياً على رفع الاستبعاد عن المعاد، والفرق بين البرهانين هو أنّ الأوّل عَطَفَ نظر الإنسان إلى الأنفس، حيث أمر بالتدبّر في الخلق أي خلق الإنسان، ولكنّه في هذه الآية عطف نظره إلى الآفاق، وروح البرهان في الموردين واحد فقال: (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ)وشاهدوا ما فيها من جبال ومهاد، وبراري وقفار، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، وما في البحر من عظائم الخلق، وما في البرّ من عجائب الحيوانات، كلّ ذلك يدلّ على أنّ خالق الأرض وما فيها من العجائب والعظائم قادر على كلّ شيء خصوصاً إذا جاوز بنظره الأرضَ إلى السماوات وما فيها من الكواكب والنجوم والمجرّات، وكلّما تقدّم العلم في معرفة الأرض وما فيها يظهر للعلماء أنّهم ما زالوا يمشون رويداً على طريق معرفتها ولذلك قال: (فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)وتفكّروا في بدء الخلق على وجه الإطلاق فإنّه يدلّكم على أنّ ذلك الّذي أنشأ النشأة الأُولى هو الّذي ينشئ النشأة الآخرة، كما قال: (ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ): أي يعلمون كيف يعيد الإنسان عند البعث ويوجده مرّة أُخرى، وذلك (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)فلا يعجزه شيء، فالآية بمنزلة قوله: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ) الواقعة: ٦٢ ..

٢١. (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ):

لمّا كان سبحانه حكيماً وأنّ جميع أفعاله موصوفة بالحكمة، وكان قد أخبر في الآيتين السابقتين عن النشأة الأُخرى، بيّن في هذه الآية سرّ تلك النشأة بقوله: (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)ولا يشاء إلاّ لحكمة وحسبما يقتضيه العدل، فمن عمل السيئات يستحقّ العذاب، ومن عمل الصالحات يستحقّ الرحمة.

قوله:(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ): أي إليه ترجعون، وكأنّ هذه الفقرة تبيّن محلّ العذاب والرحمة، وإنّما عبّر عن الحياة الأُخروية بالقلب لظهور باطن الإنسان وسريرته الخافية كما يقول: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) الطارق: ٩ . .

وإنّما قدّم العذاب على الرحمة ؛ لأنّ الخطاب هنا ناظر إلى المشركين وهم بالعذاب أكثر استحقاقاً من الرحمة.

والمراد من قوله: (وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)هو الدخول في الجنة بشهادة قوله: (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) الإنسان: ٣١ ..

ولمّا كانت هنا مظنّة توهّم بأنّ الإنسان في ذلك اليوم، الّذي يجمع الله الناس فيه على صعيد واحد، قد يستطيع الإفلات من عذاب

الله سبحانه، يقول في ردّه هذا التوهّم:

٢٢. (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ):

أي إنّكم مهما أُوتيتم من حول وقوة لا تُعجزون الله في الأرض، ولو فرضنا أنّ باستطاعتكم الصعود في السماء فلا تخرجون عن قدرته، فإنّ الوجود كلّه سلطان الله كما يقول: (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ)قريب (وَلاَ نَصِيرٍ): أي معين. وقريب من ذلك ما يقال: الوليّ مَن يعين الإنسان من دون طلب الاستعانة، والنصير من يعين الإنسان بطلب منه.

قلنا قريب من ذلك، لأنّ القريب لأجل العصبة والعِرق يعين من ينتمي إليه بلا طلب، بخلاف الغريب فإنّه لا يُنصر إلاّ بطلب من المنصور. وعلى أيّ حال فمضمون الآية أنّ الآخرة كلّها بيد الله سبحانه فلا مجال لأحد أن يخرج من سلطان قدرته. ونظير الآية قوله سبحانه: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ) الرحمن: ٣٣..

٢٣. (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

لمّا ذكر سبحانه التوحيد والرسالة ودلائل البعث بدأ بتوعّد المشركين وقال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ): أي الدلائل الدالّة على توحيده والآيات النازلة إلى نبيه الدالّة على رسالته وصدق مقاله (وَ) كفروا بـ (لِقَائِهِ): أي بالورود عليه تعالى يوم الحشر (أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي)التفت من الغيبة ـ أعني قوله: (بِآيَاتِ اللهِ) ـ إلى التكلّم لتأكيد التنبيه على استحقاقهم لذلك (وَأُولَئِكَ): أي هؤلاء الآيسون (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)لكفرهم بآيات الله .

سورة العنكبوت: الآيات ٢٤ ـ ٢٧ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ ... وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

الآيات: الرابعة والعشرون إلى السابعة والعشرين

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

المفردات

اتّخذتم: الاتّخاذ: الاستمرار والبقاء على الشيء.

المودة: المحبّة.

يكفر بعضكم ببعض: أي يتبرّأ القادة من الأتباع.

التفسير

٢٤. (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

بدأ سبحانه في الآيات السابقة بذكر قصة إبراهيم(عليه السلام) بقوله: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ) العنكبوت: ١٦ . وقبل أن يتمّ القصة بدأ بذكر المعاد لمناسبة اقتضاها المقام، وبعد الفراغ منه ذكر بقية القصة وهي: أنّ إبراهيم لمّا قام بعمل ثوريّ، وهو أنّه كسر جميع ما في الهيكل من أصنام وأبقى الكبير منها، أحدث ذلك ضجّة في المدينة، فاجتمعت كلمتهم على قتله ومجازاته أشدّ المجازاة، والله سبحانه يذكر ما اتّفقوا عليه من عقابه ويقول: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ): أي فما كان ردّ قوم إبراهيم على ما احتجّ به عليهم من البراهين الدامغة إلاّ استعمال منطق القوّة وهو إعدام المصلح بأحد أمرين: إمّا قتله بالسيف كما يقول: (إِلاَّ أَنْ قَالُوا

اقْتُلُوهُ)أو الإحراق (أَوْ حَرِّقُوهُ)وهذا يدلّ على اتّفاقهم على إعدامه وتردّدهم في كيفيته، ويحتمل أن يراد إعدامه بكلا الأمرين: القتل أوّلاً، ثم الإحراق. ويظهر من سائر الآيات استقرار نظرهم على الإحراق كما يقول: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) الأنبياء: ٦٨ ، (فَأَنْجَاهُ اللهِ مِنَ النَّارِ)الّتي سعّروها وألقوه فيها، وذلك بإرادة صارمة من الله أن تصبح النار برداً وسلاماً عليه كما قال: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) الأنبياء: ٦٩ .وقد بلغ عناد القوم وجهلهم إلى حدّ لم يستبصروا معه بهذه المعجزة الكبرى، حيث رأوا بأُمّ أعينهم انقلاب حفرة هائلة من النار إلى روضة من الجنان، ولذلك يخصّ سبحانه المؤمنين بالاعتبار بهذا الانقلاب ويقول: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

٢٥. (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْض وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ):

الظاهر أنّ بطل التوحيد قال هذه المقالة بعد أن أنجاه الله سبحانه .

ويدلّ على ذلك مسألة القصر حيث حصر بقاءهم على الوثنية بأمر المودّة في البين، وهو يدل على أنّه قد تجلّى للقوم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأوثان وأنّه كان أمراً تافهاً لا قيمة له، ولكنّهم مكان الاستبصار بقوا على الوثنية، وهذا ما تفسّره الآية إذ تقول: (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا): أي صرتم مستمرين بعد ذلك على عبادة الأصنام لأجل (مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

وهنا تفسيران:

الأوّل: أنّ استمراركم على الوثنية لأجل حبّ الآباء الّذي يقود إلى تقديس عقائدهم والتعصّب لسيرتهم.

الثاني: أنّكم تعلمون أنّ عبادة هؤلاء الآلهة المكذوبة لا تنفعكم، ولكن تستمرّون على عبادتها لغاية كون العبادة حلقة اتصال بينكم وبين قادتكم. فيكون المعنى: لغاية التوادد والتواصل بسبب اجتماعكم على عبادتها واتّفاقكم عليها وائتلافكم، كما يتّفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابّهم وتصادقهم. تفسير الكشّاف: ٣ / ١٨٩.

وعلى هذا، فقوله: (اتَّخَذْتُمْ)ـ على كلا القولين ـ فعل له مفعولان: أحدهما: (أَوْثَانًا)، والآخر محذوف تقديره: آلهة. وقوله: (مَوَدَّةَ)مفعول لأجله لقوله:(اتَّخَذْتُمْ)، فيكون تقدير الآية: إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً آلهة لسبب استمرار المودة بينكم في الحياة الدنيا، غير أنّ هذه المودّة ستتحول إلى عداء يوم القيامة، كما يقول سبحانه: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْض): أي يتبرّأ القادة من الأتباع (وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا): ويلعن الأتباع القادة، وكلٌّ يلوم الآخر، قال سبحانه: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ) الزخرف: ٦٧ . .

وقد جاء مضمون الآية في سورة أُخرى، يقول سبحانه: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذَابَ) البقرة: ١٦٦ ، وقال تعالى: (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) الأعراف: ٣٨ ..

ثم إنّه سبحانه ذكر أنّ نهاية مسير التابع والمتبوع هو النار ولا يفيد جدالهم يوم القيامة كما يقول: (وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

٢٦. (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

يظهر من الآية أنّه لم يؤمن بإبراهيم إلاّ (ابن أخيه) لوط، ولو آمن له غيره لذكره الله . قال سبحانه: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)فالإيمان يتعدّى باللام تارة، وبالباء أُخرى، يقول سبحانه: (يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) التوبة: ٦١ . وقال: (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)وكأنّه هاجر مع إبراهيم، فقطن إبراهيم أرض فلسطين، واستقرّ لوط في أرض أخرى، كما سيوافيك. ووصّف الهجرة بكونها إلى ربّه، لأنّه عزم على التخلّص من الشرك وأهله، والتوجّه إلى أرض أُخرى، يتمكّن فيها من ممارسة دوره الرسالي.

والظاهر أنّ الضمير في قوله: (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ)يرجع إلى إبراهيم (عليه السلام)، ويؤيّده قوله سبحانه ـ حكاية عن إبراهيم ـ وقال: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) الصافات: ٩٩ ..

ثم إنّه سبحانه ختم الآية بوصفين: (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)فالله سبحانه عزيز لا يذلّ مَن نصره كإبراهيم ولوط (عليهما السلام)، و حكيم لا يضيع إيمان من آمن به. قال سبحانه: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) البقرة: ١٤٣ ..

٢٧. (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

الضمير في قوله: (لَهُ) يرجع إلى إبراهيم (عليه السلام)فقد تفضّل سبحانه على هذا العبد المؤمن الأوّاه الحليم، أعني: إبراهيم بأُمور:

١. وهب له إسحاق ويعقوب بعد ما كانت زوجته عاقراً، كما قال : (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ).

٢ و ٣. تفضّل عليه بأن جعل كلّ الأنبياء الذين بُعثوا بعده من ذريته، كما تفضّل بإنزال الكتاب عليهم، والمراد به جنس الكتاب السماوي، كالتوراة والزبور والقرآن، وأشار إلى هاتين النعمتين بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ).

٤. جمع له أجرين، كما قال: (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا)حيث الثناء الحسن والذكر الطيّب في جميع الشرائع، (وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)الموعودين بالجنّة والرضوان.

سورة العنكبوت: الآيات ٢٨ ـ ٣٠ (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ... انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ).

الآيات: الثامنة والعشرون إلى الثلاثين

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ).

المفردات

الفاحشة: الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة. وقال الراغب: الفُحْش والفَحشاء والفاحشة: ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال. المفردات للراغب: ٣٧٣، مادة «فحش».

العالَمين: المراد بهم هنا الذكور من البشر.

السبيل: الطريق.

ناديكم: النادي والمنتدى والنديّ: المجلس إذا اجتمعوا فيه .

التفسير

لمّا أشار سبحانه في قوله: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) صار ذلك سبباً لتبيين دعوته ورسالته، وما لاقى في طريقها من المصائب والمحن.

كان لوط (عليه السلام)قد آمن بدعوة إبراهيم الخليل (عليه السلام)الّذي بُعث في أرض بابل (العراق) ثم رافقه في هجرته إلى الأرض المباركة (فلسطين)، ولكنْ استقرّ لوط في بلاد الأردن وأقام في إحدى مدنها الّتي تسمّى «سدوم». قال المسعودي: «وأرسل الله لوطاً إلى سدوم وقراها الخمس وهي: صبغة، وعمرة، وإدماء، وصبوغ، وبالع». نقله عنه السيد عبد الصاحب الحسني في كتابه:«الأنبياء: حياتهم ـ قصصهم»: ص ١٥٨.

ولكنه شاهد في مهجره أقبح الأعمال وأشنعها.

٢٨. (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ):

قوله: (وَلُوطًا)معطوف على قوله سبحانه: (نُوحًا): أي أرسلنا لوطاً (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ): أي الفعلة القبيحة الّتي

تنفر منها النفوس الكريمة، حتى طباع الوحوش والحشرات (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ): أي ما نزا ذكر على ذكر قبلكم، وقد أطلق العالمين في الآية على المجتمع البشري أو خصوص الرجال منهم، ولعلّ الأوّل أفضل. والآية دليل على أنّ المراد من العالمين في الذكر الحكيم هو المجتمع الإنساني. وما قاله بعضهم من أنّ العالم عبارة عن كُلّ ما يُعلم به الله حتّى يشمل كلّ موجود ممكن، لا ينسجم مع هذه الآية.

وأمّا الخبائث الّتي كانوا يقترفونها، فعبارة عن الأُمور التالية:

١. الشذوذ الجنسي.

٢. قطع الطريق على المارّة ليرتكبوا معهم الفاحشة.

٣. ارتكاب القبائح والمنكرات علانية في نواديهم.

وقد أشار سبحانه إلى هذه الأُمور في الآيات التالية:

٢٩. (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

وصفهم بأُمور ثلاثة:

١. (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ): أي كانوا يشبعون الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق، والّتي تسمى لواطاً، وكانت جريمة لم يسبقهم بها أحد من قبلهم .

٢. (وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ): أي يقطعون الطريق على المارّة ليرتكبوا معهم الفاحشة.

٣. (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)ولا يرون ذلك عملاً قبيحاً. فهذه هي الجرائم الّتي كانوا يرتكبونها، والله يعلم ببقيّة الجرائم الّتي كانوا يمارسونها. قال الطبرسي: كانت مجالسهم تشتمل على أنواع من المناكير والقبائح، مثل الشتم، والسخف، والصفع، والقمار، وضرب المخراق، وحذف الأحجار على من مرّ بهم، وضرب المعازف والمزامير، وكشف العورات واللواط. مجمع البيان: ٢٠ / ٢٢ . فقام النبيّ لوط بمهمته الرسالية على أتمّ وجه حيث وعظ قومه وحاورهم ونصح لهم وخوّفهم من بأس الله وعذابه ولكنّهم لم يعبأوا به ولم يرتدعوا، فلمّا ألحّ عليهم بالعظات والإنذار صاروا يستخّفون بإنذاره وتخويفه كما يقول: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

ويظهر من آيات أُخرى أنّهم هدّدوه بالنفي والإبعاد من بلدهم، كما يحكي سبحانه ذلك عنهم بقوله: (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).(الأعراف: ٨٢ .)

إن ردّهم هذا يعرب عمّا أصاب فطرتهم الإنسانيّة من تشويه وانحراف، حيث أصبح العمل القبيح عندهم حسناً، فعابوا لوطاً ومن آمن معه باجتنابهم ذلك، وقد يبلغ الجهل بالإنسان إلى مستوى يصبح عنده العمل القبيح حسناً والحسن قبيحاً، وهذا المستوى الهابط هو الّذي يلحق الإنسان بشر (الدَّوَابِّ)كما يقول سبحانه: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) الأنفال: ٢٢ ..

وهناك حديث طريف مرويّ عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)يتحدّث فيه عن درجات فساد النساء والشباب، فيقول مخاطباً أصحابه: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله ؟ فقال: وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً وسائل الشيعة: ١٦، الباب ١ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث ١٢ ..

الشذوذ الجنسي جريمة بحقّ الإنسانيّة

لقد جرت سنّة الله سبحانه على استمرار وجود هذا الإنسان على وجه الأرض إلى يوم القيامة، وهذا لا يأتي إلاّ من خلال الميل الجنسي في البشر إلى الجنس المخالف والاتّصال به بعقد الزواج، وهذا أمر فطري تعارف عليه البشر.

وأمّا إطفاء الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق، فهو يضادّ حكمة خلق الذكر والأُنثى، ويؤدّي بالنسل البشري إلى الانقطاع مضافاً إلى ما فيه من آثار نفسية وصحيّة سيئة كشف عنها العلم، أخطرها مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) الّذي يهاجم فيه فيروس (HIV) كريّات الدم البيضاء ممّا يؤدي إلى تحطيم القدرة الطبيعية في جهاز المناعة ضد الأمراض، ويعتبر الاتصال الجنسي، السبب الرئيسي لانتقال الفيروس، ويكون احتمال الانتقال أكبر في اللواط (الشذوذ الجنسي) كما يعدّ الزنا ـ أي الاتصال الجنسي خارج نظام الأُسرة ـ أيضاً من الأسباب الرئيسية في عدوى هذا المرض الّذي يودي بحياة الانسان في النهاية . الموسوعة العربية العالمية: ٣ / ٤٥٧ .

والعجب أنّ بعض المفكّرين في الدول الغربية ومجالس التشريع فيها (كمجلس العموم البريطاني) أقرّ هذا المجلس في عام ١٩٦٧ م، حقّ ممارسة هذه الرذيلة، الّتي تعبّر عن انحطاط النفوس وانحراف الطبائع . قد أضفوا على هذه الفاحشة النكراء صبغة الشرعية والقانونية، ووضعوا لذلك حدوداً وقوانين، وهم في الوقت نفسه يدّعون التقدّمية، ويتّهمون الآخرين بالتأخّر والوحشية. وعلى هذا يركّز لوط (عليه السلام)في خطابه لقومه: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ). الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦ .

فالغريزة الجنسية نعمة من الله سبحانه لكلّ إنسان، ليصون بها نسله ووجوده في المجتمع، وقد جعل الله هذه الغريزة في الزوجين المتخالفين في الجنس فإعمالها في الجنس الموافق انحراف عن الفطرة وصرف للنعمة في غير موردها، والّتي يعبّر عنها بالإسراف يقول سبحانه: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) الأعراف: ٨١ ..

ولمّا يئس لوط من هدى قومه واستماع كلامه، طلب من الله نصرته، كما في الآية التالية:

٣٠. (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ):

أي انصرني على الذين فعلوا المعاصي وارتكبوا القبائح وأفسدوا في الأرض وأتوا بفاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فاستجاب الله دعاءه، فأنزل عليهم عذاباً من السماء كما تذكره الآيات التالية:

سورة العنكبوت: الآيات ٣١ ـ ٣٥ (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى ... آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْم يَعْقِلُونَ) .

الآيات: الحادية والثلاثون إلى الخامسة والثلاثين

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْم يَعْقِلُونَ) .

المفردات

القرية: ذكرنا سابقاً أنّ لوطاً نزل بقرية سَدوم.

الغابرين: الباقين.

سيءَ بهم: أي ساء لوطاً مجيئهم لما رآهم في أحسن صورة لما كان يعلم من خبث فعل قومه.

ضاق بهم ذرعاً: أي ضاق قلبه، وهو كناية عن العجز عن تدبير الشؤون، لأنّ طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيره.

الرجز: العذاب.

التفسير

٣١. (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) :

لمّا استنصر لوطٌ ربّه كما في الآية السابقة، استجاب الله دعوته وبعث ملائكة لإهلاكهم، ثم إنّ الملائكة مرّوا في طريقهم بإبراهيم وبشّروه بأنّ الله سيهب له غلاماً عليماً من امرأته العجوز العقيم، وأطلعوه على أنّهم مأمورون بإهلاك قوم لوط، لأجل كونهم ظالمين، وهذا ما يذكره قوله سبحانه: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى): أي جاءت الملائكة في طريقهم إلى إبراهيم (وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَم عَلِيم) الذاريات: ٢٨ . فهؤلاء الرسل كانوا حاملين بشارة وإنذاراً، أمّا البشارة فتخصّ إبراهيم (عليه السلام)، وقد جاء بيانها في سورة أُخرى تحدّثت عن قصته (عليه السلام)بهذا الأُسلوب: (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْل سَمِين * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَم عَلِيم * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّة فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ). الذاريات: ٢٥ ـ ٢٩ .

وأمّا الإنذار فهو ما ذكروه بقولهم: (إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ)أشاروا بكلمة هذه ـ الّتي وضعت للقريب ـ إلى قرية «سَدوم» المجاورة للبحر الميّت (جنوب الأردن حالياً)، لقربها من مسكن إبراهيم. (إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)وهو بيان لسبب إهلاك هذه القرية.

ولمّا سمع إبراهيم (عليه السلام)قول الملائكة بإهلاك تلك القرية انتابه القلق لوجود لوط (عليه السلام)فيها، وهذا ما تحكيه الآية التالية، ففيها سؤاله وجواب الملائكة :

٣٢. (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ):

قلنا: لمّا اطّلع إبراهيم على مصير قوم لوط اعتراه القلق، لأنّ العذاب إذا نزل على أهل بلد يبيد الأخضر واليابس، ولذلك سألهم بقوله: (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا): أي كيف تنزلون العذاب عليها مع وجود ذلك النبيّ فيها؟ فأجاب الملائكة: (قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا): أي نعرف كلّ من فيها من المؤمنين والمجرمين (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ)ولمّا كانت كلمة الأهل تشمل الزوجة لغةً، وكانت امرأته غير صالحة، استثنوها بقولهم: (إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)فإنّها لا تنجو من العذاب. وإنّما عبّر عن المستقبل بالماضي ـ حيث إن مقتضى الحال أن يقول: تكون من الغابرين ـ لأجل أنّ الأمر محقّق الوقوع.

٣٣. (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ):

دخل الملائكة على لوط بوجوه وضّاءة ناضرة، فشعر بالضيق وأحسّ بالقلق، وليس هو كالقلق الّذي انتاب إبراهيم بل بوجه آخر :

(وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ): أي ساءه مجيئهم لما رآهم ذوي وجوه وضّاءة ناضرة واحتمل أنْ يصيبهم أذى قومه (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا): أي ضاق صدره. ولمّا وقف الملائكة على حالته النفسية خاطبوه بقولهم وقالوا: (لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ): أي لا تخف من قومك علينا ولا تحزن بما نفعله بهم، فإنّهم قد بلغوا في الخبث مبلغاً لا مطمع في رجوعهم عنه، وأضافوا: (إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ): أي الباقين في العذاب، فقومك كلّهم هالكون إلاّ أنت وأهلك إلاّ امرأتك فيصيبها ما يصيب القوم.

ولمّا سمع لوط ما ذكره الملائكة استراحت نفسه وارتفع عنه الخوف والحزن، ثم شرحوا له كيفية تعذيبهم وإبادتهم بقولهم:

٣٤. (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ):

أي إنّا سننزل على هذه القرية عذاباً يهلكهم، وما هذا إلاّ (بِمَا): أي بسبب الذي (كَانُوا يَفْسُقُونَ) .

وأمّا كيفيّة إهلاكهم فقد ذُكرت في سور مختلفة. وأجمع آية تذكر ذلك قوله سبحانه: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ). الحجر: ٧٣ ـ ٧٤ .

فحدثت زلزلة خسفت بهم الأرض وابتلعتهم في باطنها بعد أن أمطر الله عليهم حجارة من سجيل.

ثم إنّ في قولهم: (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجزًا مِنَ السَّمَاءِ)أفضل دليل على وجود الأسباب والمسبّبات والمدبّر والمدبّرات، فقد نسبوا الإنزال إلى أنفسهم فقاموا بذلك بقدرة مكتسبة من الله سبحانه، وأين هذا من قول الأشاعرة من سلب أية قدرة وفاعلية لسبب من الأسباب؟!

ثم إنّه سبحانه ختم قصّة لوط هنا، بهذه الآية:

٣٥. (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ):

تدلّ الآية على أنّ آثار قوم لوط كانت شاخصة في طريق أهل مكّة عند ذهابهم إلى الشام للتجارة كما يقول سبحانه: (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) الحجر: ٧٦.: أي مدينة لوط واقعة في طريقهم وهي قائمة ثابتة فيها. والظاهر أنّ المراد أنّ إهلاك قوم لوط آية تركها سبحانه لكلّ مَن يمرّ على ديارهم وهي باقية على طول الزمان إلى الآن. والمشهور أنّ البحر الميت هو قرية سدوم، وانقلبت بحراً بعد هذا الانفجار.

سورة العنكبوت: الآيات ٣٦ ـ ٤٠ (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ ... وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

الآيات: السادسة والثلاثون إلى الأربعين

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

المفردات

مدين: هي مدينة قوم شعيب، سُمّيت بمدين بن إبراهيم (عليه السلام)، تقع على بحر القلزم (البحر الأحمر)، وهي محاذية لتبوك على نحو ست مراحل، وبها البئر الّتي استقى منها موسى (عليه السلام)لسائمة شعيب. ومدين اسم القبيلة. انظر: معجم البلدان: ٥ / ٧٧ . والظاهر أنّ المراد بها المدينة، قال سبحانه: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ...).(القصص: ٢٣ .)

وربّما يقال: إنّ مدين يطلق عليها اليوم اسم «مَعان» . أعلام القرآن: ٥٧٢ .

شعيباً: شعيب: من أنبياء الله العرب كهود وصالح، وعلى هذا فأهل مدين كلّهم عرب.

ولا تعثوا: ولا تفسدوا.

الرجفة: الزلزلة الشديدة.

جاثمين: الجاثِم: البارك على ركبتيه مستقبلاً بوجهه الأرض، وهو هنا كناية عن الهلاك.

حاصباً: الحاصب: الريح العاصفة الّتي فيها حصباء، أي الحصى الصّغار.

التفسير

تضمّنت الآيات السابقة قصص أنبياء ثلاثة ـ أعني: النبي نوحاً، والنبي إبراهيم، والنبيّ لوطاً (عليهم السلام) ـ وتضمّنت هذه الآيات الخمس قصة أنبياء أربعة، وهم : شعيب وهود وصالح وموسى(عليهم السلام). كما تضمّنت أسماء ثلاثة من طواغيت الزمان، وهم: قارون وفرعون وهامان . ثم ذكر سبحانه أنّ الله أهلك هؤلاء الظالمين بأربعة ضروب من العذاب. هذا إجمال ما في هذه الآيات، وإليك التفصيل.

قصة شعيب(عليه السلام)

٣٦. (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ):

قوله: (وَإِلَى مَدْيَنَ): أي أرسلنا إلى مدين (أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)فاللفظ الأوّل ـ أعني: «مدين» ـ مفعول لفعل محذوف ـ أعني: أرسلنا ـ وشعيباً عطف بيان .

ثم إنّ وصف النبيّ شعيب بكونه: (أَخَاهُمْ) لعلّه لغاية التواضع، وأنّه لم تكن دعوته لغاية السلطة بل كان لهم كالأخ الّذي لا يحبّ لأخيه إلاّ ما يحبه لنفسه. ولعلّه وُصف بذلك لصلة القرابة الّتي كانت بينه وبين قومه.

وأمّا رسالته فقد أوجزتها الآيات في أُمور ثلاثة:

١. (اعْبُدُوا اللهَ)ولا تشركوا به شيئاً. والآية تدلّ على أنّ القوم كانوا مشركين.

٢. (وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ): أي ترقّبوا، أو ارجوا بعبادتكم وأعمالكم جزاء اليوم الآخر وثوابه.

٣. (وَلاَ تَعْثَوْا): أي لا تفسدوا في الأرض، وهو لفظ عام يشمل كلّ فساد وانحراف في الفرد والمجتمع. وهذه الأُمور الثلاثة هي أُصول عامّة لجميع الأنبياء، أعني: الدعوة إلى التوحيد، وإلى الحياة الأُخروية، وإلى الصلاح والفلاح في الحياة الدنيا. نعم جاء تفسير أُصول دعوة النبي شعيب في السور التالية: الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦ ؛ هود: ٨٤ ـ ٨٦ ؛ الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٤. فلاحظ.

وبما أنّ تفسير هذه الآيات مذكور في محلّها، اقتصرنا في المقام على ما جاء في سورتنا هذه.

وأمّا مصير قومه فلم يكن إلاّ الإبادة والاستئصال جزاءً على موقفهم الرافض للرسالة وصاحبها، كما يقول:

٣٧. (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ):

اجتهد شعيب (عليه السلام)ـ كما أبانت سائر الآيات ـ في إرشاد قومه والنصيحة لهم بأبلغ حجّة وأسطع برهان وألطف أُسلوب، ولكنّهم سخروا منه واستهزأوا به، فلم يجد شعيب بُدّاً من تهديدهم قائلاً: (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) هود: ٩٣ ، ولذلك يقول سبحانه: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ): أي أخذتهم الزلزلة وجثوا على الرُّكب، إلاّ أنّ الزلزلة تزامنت مع الصيحة فخرّوا صرعى منكبّين على وجوههم، يقول سبحانه: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)(هود: ٩٤ .) ولعلّ الصيحة كانت متزامنة مع الصاعقة، فيكونوا قد هلكوا غِبّ عوامل ثلاثة: الرجفة والصيحة والصاعقة.

قصة عاد وثمود

٣٨. (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) :

أشار في هذه الآية إلى قصة نبيّين آخرين ـ أعني: هوداً وصالحاً ـ وقد بعث الله هوداً إلى عاد، قال سبحانه: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) الأعراف: ٦٥ . كما بعث صالحاً إلى ثمود، يقول سبحانه: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ) الأعراف: ٧٣ ..

وأمّا مضمون دعوته فكانت نظير دعوة شعيب، فتارة كان يدعوهم إلى التوحيد كما يقول: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ

اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ) هود: ٥٠ ،. وأُخرى إلى الإيمان برسالته من الله سبحانه، وفي هذه الدعوة كفاية عن الدعوة إلى الحياة الأُخروية.

هذا كلّه حول النبي هود (عليه السلام)، وأمّا صالح، فقد بعثه سبحانه إلى ثمود، وكان مضمون دعوته نظير دعوة النبيّين، فدعا إلى التوحيد في العبادة وقال: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ) الأعراف: ٧٣ ..

وقد أوجزنا الكلام في دعوة هذين النبيين تبعاً للقرآن حيث أوجز هنا واختصر بقوله: (وَعَادًا وَثَمُودَ...): أي أهلكنا عاداً وثمود، ثم اقتصر سبحانه في بيان قصتهم على الجمل التالية: (وَقَدْ تَبَيَّنَ)إهلاكهم (لَكُمْ مِنَ مَسَاكِنِهِم)أي: من النظر إليها عند مروركم بها(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ): أي وحسّن لهم الشيطان ما هم عليه من ضلال وفساد، بإظهاره في صورة الحقّ (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ): أي منَعهم ـ لاتّباعهم دعوته ـ عن طريق الحقّ المتمثّل بالإيمان بالله والتصديق بنبيّه (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ): أي وكانوا عقلاء ذوي عقل يمكنهم التمييز بين الحقّ والباطل، وقد قصّروا.

٣٩. (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ):

جاءت في هذه الآية الإشارة إلى طغاة ثلاث:

١. (وَقَارُونَ): وجاءت قصته في سورة القصص حيث قال: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ) القصص: ٧٦ ..

٢. (وَفِرْعَوْنَ): طاغية مصر.

٣. (وَهَامَانَ): وزير الطاغية فرعون ومعينه. وهؤلاء الطغاة: أوّلهم مظهر للمترف المسرف، وثانيهم مظهر للقوّة الغاشمة، والثالث مظهر لتشجيع الظلم وترسيخ جذوره . (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ)والدلائل والمعجزات فاستكبروا في الأرض حيث غرّت قارونَ ثروتُه وخزائنُه، كما غرّت فرعونَ قدرتُه العسكرية، ومع ذلك (وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ): أي فائتين حيث يفوت السابق. ثم إنّه سبحانه بعد ما ذكر هذه الأقوام الظالمة والطواغيت عاد يبيّن كيفية إهلاكهم وأنّهم لأجل تكذيبهم الرسل وتجبّرهم وتطاولهم على الناس، أُهلكوا بأسباب مختلفة كما يقول:

٤٠. (فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ):

تضمّنت الآية ألواناً أربعة من العذاب:

الأوّل: الحاصب: (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) والحاصب هو الريح الشديدة، سُميّت حاصباً لأنّها تقلع الحصباء من الأرض، وقد أهلك الله سبحانه قوم عاد بهذا النحو من العذاب كما يقول في آية أُخرى: (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَال وَثَمَانِيَةَ أَيَّام حُسُومًا) الحاقة: ٧ . .

الثاني: الصيحة: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ) وهم قوم ثمود حيث أُهلكوا بها، يقول سبحانه في آية أُخرى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) القمر: ٣١ ..

الثالث: الخسف: (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ) والخسف هو انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، وبه هلك قارون قال سبحانه: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَة يَنْصُرُونَهُ) القصص: ٨١ ..

الرابع: الغرق: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا)وبه هلك فرعون وقومه قال سبحانه: (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ) الشعراء: ٦٤ ـ ٦٥ . .

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)، لأنّه غنيّ عن عذاب البريء، فإنّ عذابه ظلم ولا يرتكبه إلاّ الجاهل بقبحه أو المحتاج إليه. (وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، فعذابهم جزاء على أعمالهم ونتيجة لفسادهم وعيثهم .

سورة العنكبوت: الآيات ٤١ ـ ٤٥ (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ... مَا تَصْنَعُونَ) .

الآيات: الواحدة والأربعون إلى الخامسة والأربعين

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ* اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوةَ إِنَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) .

المفردات

أوهن: مشتقّ من الوهن، وهو ضعف من حيث الخَلق. المفردات للراغب: ٥٣٥ ، مادة «وهن».

العنكبوت: حشرة معروفة.

الفحشاء: الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

المنكر: كلّ فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه.

تصنعون: تعملون

التفسير

ضرب سبحانه لآلهة المشركين أمثالاً، نذكر منها مثلين:

الأوّل: شبّهها بالذباب كما في قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ). الحج:٧٣.

الثاني: شبّهها بالعنكبوت وهو ما تضمّنته هذه الآية. ومن المعلوم أنّ التشبيه يترك أثراً بالغاً في النفوس وربّما يكون أقوى من تأثير الدليل والبرهان. مثلاً نرى أنّه تارة ينهى عن الغيبة ويقول: الغيبة حرام مورث للعقاب، وأُخرى يشبّه عمل المغتاب بمن يأكل لحم أخيه الميت ويقول:(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) الحجرات:١٢.. والثاني أبلغ في التأكيد على المقصود.

وجه هذا التشبيه أنّ مَن يغتاب ينال من الغائب وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، فصار عمله عمل من يأكل لحم الميت وهو لا يعلم ما يفعل به.

وعلى أي تقدير، فالغرض من تشبيهات الآلهة بالذباب والعنكبوت هو الحطّ من شأنها والاستهزاء بها.

٤١.(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ):

إنّ العنكبوت حشرة معروفة، ذكورها أصغر أجساداً من إناثها، وهي تتغذّى بالحشرات التي تصطادها بالشبكة التي تمدها على جدران البيوت، فتصنع تلك الشبكة من مادة تفرزها غدد في باطنها محتوية على سائل لزج تخرجه من فتحه صغيرة، فيتجمّد بمجرد ملامسته للهواء ويصير خيطاً في غاية الدقة، وما أن تقع الفريسة في تلك الشبكة حتى تنقضّ عليها وتنفث فيها سمّاً يوقف حركاتها، فلا تستطيع الدفاع عن نفسها. انظر: دائر معارف القرن الرابع عشر:٦/٧٧٢.

ومع ذلك فما نسجته بيتاً لنفسها يعدّ أوهن البيوت وأضعفها، بل لا يليق أن يصدق عليه عنوان البيت، الذي يتألّف من جدران، وسقف مظلّل، وأبواب ونوافذ، وبيتها يفقد أبسط تلك المقوّمات هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ بيتها يفتقد لأدنى مقاومة

أمام الظواهر الجوية والطبيعية، فلو هبّ عليه نسيم هادئ لمزّق النسيج، ولو سقطت عليه قطرات من الماء لتلاشى يُذكر أنّ خيوط العنكبوت (التي تشبه الحرير) لا تذوب بالماء.، ولو وقع على مقربة من نار لاحترق، ولو تراكم عليه الغبار لتمزّق.

هذا هو حال المشبه به، والقرآن يمثّل حال أُولئك الّذين يلجأون إلى الآلهة المزيفة راجين منها النفع والشفاعة والنصرة، بالعنكبوت الّتي اتّخذت بيتاً من شبكة من الخيوط الواهية لتلتجئ إليه، وتقي به نفسها ممّا تتعرّض له من أخطار!! فكما لا يغني عنها هذا البيت شيئاً، فكذلك تلك المعبودات الّتي اتّخذوها من دون الله لا تغني عنهم شيئاً، فلا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضرراً.

بل حال الآلهة المزيفة الكاذبة أسوأ من حال بيت العنكبوت، وذلك أنّ العنكبوت تنسج بيتها لتصطاد به الحشرات ولولاه لماتت جوعاً، ولكن الأصنام والأوثان، من حيث كونها آلهة، لا تنفع المتمسّكين بها في شيء.

وبذلك تقف على عظمة التمثيل الوارد في قوله:(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ): أي الّذين يريدون نصرها ونفعها والرجوع إليها عند الحاجة (كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا) تأوي إليه وتحتمي به، لكن بيت العنكبوت لا يغني عنها شيئاً لأنّه في غاية الوهن والضعف(وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

ثمّ إنّ قوله: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ليس قيداً لقوله:(أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)، لأنّه من الواضح لكلّ أحد أنّ بيت العنكبوت في غاية الوهن، وإنّما هو من متمّمات قوله:(اتّخذوا): أي لو علموا أنّ عبادة ا لآلهة كاتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً، لربّما أعرضوا عنها.

٤٢.(إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

الظاهر أنّ «ما» في قوله:(مَا يَدْعُونَ) موصولة ومعنى الآية: (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ) الذي يدعون من دونه من شيء، أي ما يتّخذونه من دون الله أرباباً، لكنّ هؤلاء لا يضرّونه (وَهُوَ الْعَزِيزُ): أي الذي لا يغالَب فيما يريد (الْحَكِيمُ)في كلّ أفعاله. ولعلّ وجه الإتيان بوصف العزيز في المقام لأجل أنّه لو كان للأصنام حظّ في الإلهية لما سَلِم من ضرّها من يحقّرها، فالله سبحانه عزيز لا يغلب، حكيم لا تجوز عليه الأوهام.

٤٣.(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ):

أي الأمثال المضروبة في كلامه سبحانه يختلف تأثيرها، فهناك مَن يسمعها ولا يتأمّل في حقائقها فلا تزيده إلاّ بعداً، وهناك مَن يتأمّلها ويقف على وجه التشبيه فيها فتزيده علماً وإيماناً.

٤٤. (خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ):

صلة الآية بما قبلها من المثل واضحة عند التأمّل، ولعلّ هناك من يتلقّى التمثيل المذكور أنّه تخيّل وكلام شعري، لكنّه سبحانه يشير في هذه الآية إلى أنّ ما ذكر في المثل أمر حقيقي ولا صلة له بالشعر والتخيّل، وذلك لأنّه سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق، لا للّعب كما يقول سبحانه:(وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) الدخان:٣٨ـ٣٩.بل لغاية أن تسكنهما الخلائق وتنتفع بهما ثم يستدلّوا بالإتقان والنظام السائد فيهما على أنّ ثَمّة خالقاً قادراً حكيماً أبدع خلقهما ودبّر أمرهما على وجه لاترى فيه عوجاً ولا انحرافاً، فهل يصحّ ترك عبادة ذلك القادر الحكيم والعدول عنه إلى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يستطيع فعل أي شيء وهو أدنى في القدرة والحركة حتى من العنكبوت؟ (إنّ في ذلك): أي في خلق السماوات والأرض بذلك النظام المحكم والدقيق (لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)فهم المنتفعون بها من خلال التدبّر فيها وإدراك مغازيها.

نعم لا شكّ في أنّ الكافر ينظر أيضاً إلى السماوات والأرض ويتأمل فيهما، ويجتهد في استخراج أحكامهما وحركاتهما، ولكن نظره

إليهما وتأمّله فيهما لأجل كشف الروابط المادية بين أجزائهما، لا للاهتداء إلى دلالة ذلك على وجود الإله القادر المتفرّد بالخلق والتدبير.

٤٥. (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوةَ إِنَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) :

لمّا ذكر سبحانه أنّ الأمثال التي ضربها للناس في القرآن إنّما ينتفع بها المؤمنون، أمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بالاستمرار في تلاوة كتابه الّذي ضُرب فيه المثل المذكور وسائر الأمثال، والآية تضمّنت أُموراً أربعة:

١. تلاوة ما أُوحي إليه كما يقول: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) حتى ينتفع به المؤمنون ويزداد الآخرون حرماناً وبؤساً.

٢. إقامة الصلاة لا فعل الصلاة وحدها، بل السعي إلى أن تقام الصلاة في المجتمع، ولذلك صار من مهمّات مَن تمكّن في الأرض إقامة الصلاة. قال سبحانه: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ للهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ). الحج:٤١.

ثمّ إنّه سبحانه بيّن سبب إيجاب الإقامة بقوله: (إِنَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ): أي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال (وَالْمُنْكَرِ) أي: كلّ فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه.

وهنا سؤال مطروح بين المفسّرين، وهو: أنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ المصلّين ينتهون عن الفحشاء والمنكر، مع أنّ الجميع ليسوا كذلك، فما هو وجه ذلك؟ والإجابة واضحة، وذلك لأنّ معنى كونها تنهى لا يعني أنّها تصدّ الإنسان عن الفحشاء والمنكر بل بمعنى أنّها تهيّئ الأرضية الصالحة التي تقرّب المصلّي من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. وبعبارة أُخرى: أنّ الصلاة تدعو المصلّين إلى الابتعاد عنهما. ومن المعلوم أنّ الدعوة ليس بمعنى العلّة التامّة الصارمة القاطعة. وإن شئت قلت: إنّ الصلاة تحذّر المصلّين من ارتكاب الفحشاء والمنكر تحذيراً هو من خصائصها.

أضف إلى ذلك: أنّ المراد من الصلاة هي الصلاة الصحيحة، وهي فرع أن يكون المصلّي متطهّراً من الحدث الأصغر والأكبر وأن يكون لباسه وما يسجد عليه أمراً مشروعاً، فحينئذ فلا محيص للمصلّي من الاجتناب عن قسم من المحرّمات التي تتوقّف عليها صحّة الصلاة.

وللسيد الطباطبائي هنا كلام حاصله: أنّ صدّ الصلاة المصلّي عن الأمرين على نحو الاقتضاء يقول: فلطبيعة هذا التوجّه العبادي ـ إذ أتى به العبد وهو يكرّره كلّ يوم خمس مرات ويداوم عليه، وخاصّة إذا زاول عليه في مجتمع صالح، يؤتى فيه بمثل ما أتى به ويهتم فيه بما اهتم به ـ أن يردعه عن كلّ معصية كبيرة يستشنعه الذوق الديني كقتل النفس عدواناً وأكل مال اليتيم ظلماً والزنا واللواط، وعن كلّ ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعاً جامعاً بين التلقين والعمل. ثم يقول: مضافاً إلى حمله إيّاه على التطهّر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرّز عن الغصب في لباسه ومكانه، واستقبال بيت ربّه، فالإنسان لو داوم على صلاته مدّة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق، أثبت ذلك في نفسه ملَكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتة، ولو أنّك وكلت على نفسك من يربّيها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن وتتحلّ بأدب العبودية لم يأمرك بأزيد ممّا تأمرك به الصلاة، ولا روّضك بأزيد ممّا تروّضك به. الميزان في تفسير القرآن:١٦/١٣٣ـ١٣٤.

٣. (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) قوله: (أَكْبَرُ) صيغة أفعل، تفضيل يحتاج إلى مفضّل عليه، فيمكن أن يقال: إنّ المراد من الذكر هو الذكر القلبي الذي يترتّب على الصلاة ترتّبَ الغاية على ذيّها، فكأنّه قيل:أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء والمنكر، بل الذي تفيده الصلاة من ذكر الله المتحقّق بها أكبر من النهي عن الفحشاء والمنكر لأنّ ذكر الله أعظم ما يناله الإنسان من الخير، وهو مفتاح

كلّ خير، والنهي عن الفحشاء والمنكر جزء منه. الميزان في تفسير القرآن:١٦/١٣٦.

ويمكن أن يقال: إنّ المراد من الذكر هو الذكر اللساني الذي تشتمل عليه الصلاة، أكبر من هذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر؛ لأنّه أثر من آثار الذكر الحسنة.

وعلى هذين المعنيين فالمفضّل عليه هو الفحشاء والمنكر، والمصدر ـ أعني: الذكر ـ أُضيف إلى المفعول، أي ذكر العبد الله سبحانه،

وربّما قيل: إنّ المصدر مضاف إلى الفاعل. والمراد: ولذكر الله إيّاكم برحمته أكبر من ذكركم إيّاه بطاعته؛ روي عن ابن عباس وسلمان وابن مسعود ومجاهد. مجمع البيان:٨/٣٠.

أقول: لا شكّ أنّ الله سبحانه يذكر عبده بشهادة قوله: (فَاذْكُروني أذكُرْكُم) البقرة:١٥٢. ولكن الآية بصدد بيان آثار الصلاة، وعلى هذا فذكر الله عباده لا صلة له بالصلاة وآثارها. ولعلّ الأوضح من الوجوه الثلاثة هو الوجه الأوّل.

***

الصلاة في الشرائع السابقة

لمّا كانت الغاية من بعث الرسول هو دعوة الناس إلى عبادة الله سبحانه والتبرّؤ من عبادة غيره كما يقول سبحانه:(وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبوا الطَّاغُوتَ) النحل:٣٦.فربّما يفهم من الآية وجود الأمر بالصلاة في عامّة الشرائع؛ لأنّها أعظم عبادة وخضوع يقوم به الإنسان لله سبحانه. ويدلّ على ذلك أيضاً أنّ النبي إبراهيم (عليه السلام)بعدما أن أسكن أهله وولده بواد غير ذي زرع، دعا الله سبحانه بقوله: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَاد غَيْرِ ذِي زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوةَ) إبراهيم:٣٧. فصارت إقامة الصلاة غاية لإسكانهم عند بيت الله الحرام، ولم يقتصر على ذلك حتى دعا لنفسه أن يجعله سبحانه من مقيمي الصلاة قائلاً:(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوةِ).(إبراهيم:٤٠.)

هذا ويعرّف سبحانه النبيّ إسماعيل(عليه السلام) بأنّه (كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَاةِ) مريم:٥٥.، وهذا هو المسيح عيسى ابن مريم عندما حملته أُمّه إلى قومه بني إسرائيل واتّهموها بالسوء، أشارت إلى طفلها الرضيع ليسألوه عن حقيقة الأمر، فتكلّم بإذن الله وقال: (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا * وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَوةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا). مريم:٣٠ـ ٣١.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ الصلاة كانت أمراً مفروضاً في الشرائع السابقة على أُممهم، فلو دلّ ذلك على أمر فهو يدلّ على أنّها من أكبر الفرائض. وأمّا الذكر الحكيم فقد جاءت فيه لفظة الصلاة وحدها مجرّدة عمّا يشتق منها سبعاً وستين(٦٧) مرّة، حتى ذكر أنّ بعض أهل الجحيم إذا سئلوا عن سبب مصيرهم السيِّئ : (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ). المدثر:٤٣ـ٤٥.

الصلاة في الأحاديث الإسلامية

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):«لا يزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس لوقتهنّ، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه فأدخله في العظائم». الوسائل:٣، الباب٧ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٢.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) في كلام يوصي به أصحابه:«تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً). النساء: ١٠٣. أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). المدّثر: ٤٢.وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّات، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟». نهج

البلاغة، الخطبة ١٩٩.

وروي في «الكافي» عن أبي بصير: قال: قال أبو الحسن الأوّل [الكاظم](عليه السلام):«لمّا حضرت أبي الوفاة قال: يا بنيّ إنّه لا تنال شفاعتنا مَن استخفّ بالصلاة». الكافي:٣/٢٧٠، ح١٥، باب من حافظ على صلاته.

ولعلّ هذا المقدار يكفي في المقام، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الجزء الرابع والثمانين من «بحار الأنوار»، حيث عقد أبواباً مختلفة في الصلاة وغيرها.

آداب الصلاة وأسرارها

قام غير واحد من أصحابنا بتأليف رسائل حول آداب الصلاة وأسرارها، فكان سيدنا الأُستاذ الإمام الخميني(قدس سره) يصف بعض من ألّف رسالة في أسرار الصلاة بأنّها أقرب إلى الآداب من الأسرار، وقد عمل(قدس سره)رسالة في أسرار الصلاة يرجع إليها من له قدم راسخة في السلوك والعرفان، ونحن نقتصر على بيان بعض تلك الأسرار التي تفيد النَّشء الجديد.

١. الصلاة ذكر الله ، وهو يصدّ الإنسان عن كلّ منكر، يقول سبحانه: (أَقِمِ الصَّلَوةَ لِذِكْرِي) فالإنسان مهما يكن إباحياً أو طاغياً فإذا قام إلى الصلاة تنكسر أنانيته خصوصاً إذا تذكّر عند تلاوة قوله سبحانه:(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)ما للمجرمين في الحياة الأُخروية من عقاب وعذاب.

٢. الصلاة رمز الوحدة بين المسلمين، فإذا زالت الشمس وأذّن المؤذنون قائلين:«حيّ على الصلاة»، أو: «قد قامت الصلاة»ترى هناك أنّ كثيراً من المؤمنين يتركون البيع وكلّ عمل ماديّ، ويستقبلون القبلة في صفوف متراصّة، وأي شيء يكون رمزاً للوحدة أفضل من الصلاة جماعة في وقت واحد في عامّة البلاد؟

٣. الصلاة رمز المساواة وإلغاء الطبقية، إذ كلّ فرد من أي طبقة كان، أخذ يخضع أمام الله سبحانه بصورة واحدة، ويرغم أنفه وجبينه بتراب الأرض، وكأنّ الجميع أولاد بيت واحد لا يوجد فرق بينهم.

٤. الصلاة رمز النظم، يقول سبحانه: (إِنّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) النساء:١٠٣. ومعنى ذلك أنّ لكلّ صلاة وقتاً معيّناً يجب إتيانها فيه، لا قبله ولا بعده. إنّ ممارسة العمل بصورة منظّمة عبر سنين ربما يكون سبباً ليكون الإنسان منظّماً في سائر شؤونه، ولذلك نرى الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام)ركّز في وصيته على النظم وقال: «أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ». نهج البلاغة، قسم الرسائل، برقم ٤٧.

سورة العنكبوت: الآيات ٤٦ ـ ٥٢ (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ ... أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

الآيات: السادسة والأربعون إلى الثانية والخمسين

(وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْم يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

المفردات

تجادلوا: الجدل: الحجاج والمناظرة. قال الراغب: الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلتُ الحبلَ أي

أحكمت فَتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته، ودرع مجدولة.. إلى أن يقول: فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه. المفردات:٨٩، مادة «جدل».

مسلمون: مطيعون.

يجحد: الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه، يقال جَحَد جُحوداً وجَحْداً، قال سبحانه: (وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) النمل:١٤.. المفردات:٨٨. وعلى هذا فالمراد الإنكار عن علم.

تخطّه: يقول الراغب: الخطّ كالمدّ، ويقال لما له طول ـ إلى أن قال:ـ ويعبّر عن الكتابة بالخطّ.

بيمينك: اليمين: أصله الجارحة، وإنّما خصّ تلك الجارحة لأنّ أكثر الناس تكتب بها لا بالجارحة اليسرى.

ارتاب: من الارتياب: الشكّ والترديد.

المبطلون: الباطل نقيض الحقّ، وهو ما لا ثبات له عند الفحص، فالمبطلون: الذين يبطلون الحقّ.

الظالمون: الذين ظلموا أنفسهم بإنكار الحق.

التفسير

الجدال الأحسن

٤٦. (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ):

الآية تأمر المسلمين بجدال أهل الكتاب بالنحو الأحسن، ويبدو أنّ الآيتين مدنيتان، وذلك لأمرين: أحدهما:خلوّ مكة من أهل الكتاب. والثاني: تقسيم الآية الأُخرى أهل الكتاب. إلى قسمين: ١. مَن يؤمن بالقرآن الكريم.٢. مَن يجحد به. وهذا يشعر بوجود قسمين من أهل الكتاب عند نزول هاتين الآيتين، فالقول بأنّهما مدنيتان ليس ببعيد. نعم ذهب ابن عاشور إلى نزولهما في مكة المكرّمة مبرّراً ذلك بقوله: قد كانت هذه توطئة لما يحدثه من الدعوة في المدينة بعد هجرة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنّ مجادلة أهل الكتاب لا تعرض للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ولا للمؤمنين في مكّة، ولكن لمّا كان النبيّ (عليه الصلاة والسلام) في إبّان نزول أواخر هذه السورة على وشك الهجرة إلى المدينة وكانت الآيات السابقة مجادلةً للمشركين غليظة عليهم من تمثيل حالهم بحال العنكبوت، وقوله: (وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) هيّأ الله لرسوله عليه الصلاة والسلام طريقة مجادلة أهل الكتاب. فهذه الآية معترضة بين محاجّة المشركين والعود إليها في قوله تعالى:(وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) التحرير و التنوير:٢٠/١٨١..

ما المراد من الجدال بالأحسن؟

دلّ الذكر الحكيم على أنّ الجدال بالطريقة الحسنى، هو أحد طرق الدعوة إلى الإسلام كما في قوله سبحانه:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ) النحل:١٢٥. فقد جعل الجدال بالأحسن في عداد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكلٍّ وجه ومورد، وقد بُيّن في محلّه، إنّما الكلام في معنى الجدال، فنقول: هو يفارق المراء، إذ المراء عبارة عن قصد المغالبة، والاستظهار على الطرف الآخر مع الشكّ في كون ما يدّعيه حقّاً أو باطلاً. أو إنّه يعني الإطالة في المناظرة مع وضوح الحقّ، و (العلماء الحكماء بُرَآء من التمادي بالمراء) التعايش السلمي للدكتور محمود الموسوي:٤١.لأنّ (التماري بالمراء يبثّ الافتراء). التعايش السلمي :٤١.وأمّا المجادلة بالنحو الأحسن فهي عبارة عن عرض الآراء بعضها على بعض لإظهار الحقّ وتبيين الواقع مع عدم الإغلاظ في الكلام والطعن والإهانة للطرف الآخر، بل ينبغي أن تكون المجادلة بالقول الليّن والكلمة الهادئة، وأن تتمّ في أجواء صافية، بعيداً عن إثارة غبار التصادم والتشنّج والانفعال، وعلى نحو إذا تمّ الجدال به وظهر الحقّ، أخذ به من يريد الوصول إليه

دون أن يخدش في عواطفه، ومن هنا قيل: «الحقيقة بنت البحث» فهذا النوع من الجدال هو الذي أمر القرآن به، والتزم بما أمر به في مناظراته مع أهل الكتاب في أكثر من موضع، ونحن نذكر نموذجين من مناظراته مع أهل الكتاب التي تنطوي على مرونة خاصّة وتكريم للطرف الآخر:

١. يقول سبحانه: (وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَل مُبِين) سبأ:٢٤.ترى أنّ الآية لا تركز على هداية أحد الطرفين معيّناً وضلال الطرف الآخر كذلك، وإنّما تسوّي بينهما في ذلك الأمر وإن كانت تشير إشارة خفية إلى أنّ الحق في جانب الموحّد، حيث ابتدأ بقوله: (وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ) وابتدأ بالمقابل (لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَل)ومقتضى النشر المرتّب كون الهداية ترجع إلى الطرف الأوّل.

٢. كان المشركون يدّعون أنّ طريقة آبائهم هي الطريقة المثلى قائلين:(إنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمّة وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) لكن الوحي الإلهي يجادلهم بعطف ويأمر نبيّه أن يقول لهم:(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) الزخرف:٢٤. فيستخدم كلمة (أهدى) التي تدلّ على التفضيل كأنّه يقول: إنّ ما أدعو إليه أفضل من الطريقة التي ورثتموها من آبائكم، وهذا هو الجدال بالأحسن الذي يحترم الآخر مع الاعتقاد ببطلان رأيه، ولكن يصل إلى المقصود بأفضل وجه. وبهذا اتّضح معنى قوله سبحانه:(وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ).

نعم لكلّ قاعدة تخصيص واستثناء، فالجدال بالنحو الأحسن إنّما يفيد مع مَن كان مستعدّاً لسماع الطرف الآخر والتدبّر في قوله قبل أن يتّخذ موقفاً عدائياً بالنسبة إليه، وأمّا الذين أظهروا العداء للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وأصرّوا على العناد، فلا يفيدهم الجدال بالتي هي أحسن كما يقول:(إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)(من أهل الكتاب) إذ ربّما يتلقّى المجادل حسن الجدال نوع مذلّة فلذلك لا تنفع معهم المجادلة بالأحسن، وأمّا ما هو طريق السلوك معهم، فقد بيّنه بقوله سبحانه:(وَقُولُوا آمَنَّا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا): أي بالكتاب الذي أُنزل إلينا(وَ)ما (أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ):أي الكتاب الذي أُنزل إليكم.(وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ)ليس له شريك (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ): أي طائعون. وعلى هذا فقوله: (وَقُولُوا آمَنَّا بِالذِي) ناظر إلى المستعدّين للجدال من أهل الكتاب حيث يجب الإشارة إلى المشتركات في التوحيد والنبوة.

وعلى هذا فالجدال بالأحسن يختصّ بمن كان مستعدّاً للحوار والتفاهم، وأمّا غير المستعدّين لذلك من المعاندين والمكابرين فيجب المماشاة معهم أيضاً بصورة الدعوة إلى الإله الواحد وأنّ الكتابين من الله سبحانه.

وهذا هو أدب الإسلام فيركّز على حفظه، سواء أكان بصورة جدال أو بصورة مذاكرة عابرة.

٤٧. (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ):

قوله:(وَكَذَلِكَ) إشارة إلى أنّه كما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى(أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) أي القرآن وكأنّه تأكيد للآية السابقة: (وَقُولُوا آمَنَّا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُم) ولكنّ أهل الكتاب بالنسبة إليه على صنفين:

١.(فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ): أي الذين هم أُمناء على الكتاب ولذلك لم يقل أهل الكتاب، مشيراً إلى مقامهم السامي بالنسبة إلى التوراة والإنجيل، وفي آية أُخرى وردت الإشارة إليهم بقوله: (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ) المائدة:٤٤.. وأُريد من هذه الفئة مَن أسلم من أهل الكتاب في العصر المدني وإن كانوا قليلين، فهؤلاء (يُؤْمِنُونَ بِهِ) إيماناً صادقاً وربّما يبذلون أموالهم في طريق نشر الإسلام، كمخيريق اليهودي الذي أسلم وأوصى بأمواله للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وشارك في غزوة أُحد واستشهد فيها.

الإصابة: الترجمة ٧٨٥٢. وانظر الكامل لابن الأثير:٢/١٦٢.

٢. المعاندون الجاحدون، وهم الذين يرون الحقّ وتستيقنه أنفسهم ولكن يعاندون باللسان والأيدي، فهؤلاء هم الذين يصفهم الله سبحانه بقوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ).

وبذلك تبيّن أنّ موقف القرآن بالنسبة إلى أهل الكتاب ليس موقفاً سلبياً بل يصنفهم إلى مَن يستمع الكتاب ويتبع أحسنه، وإلى مَن يعاند ويجحد آيات الله، فالطائفة الأُولى نجادل معها جدالاً بالأحسن، والطائفة الثانية نتعايش معهم تعايشاً سلميّاً، ما لم يشهروا السيوف في وجوه المسلمين، و إذا قام للإسلام دولة لا يعاندونها وإلاّ فآخر الدواء الكيّ قال سبحانه: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَ لاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَ لاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغِرُونَ). التوبة:٢٩.

٤٨. (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ):

لمّا كان الجدال مع أهل الكتاب مركّزاً على نبوّة نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم) خلافاً للمشركين الذين كان الجدال معهم مركّزاً على التوحيد قبل النبوّة، أشار في هذه الآية إلى علامة واحدة من علامات صحّة دعوته ورصانة رسالته من الله سبحانه، وكأنّه أيضاً بيان مصداق للجدال بالأحسن، وهو أنّ النبيّ الأكرم جاء بكتاب بلغ في الفصاحة والبلاغة الذروة والسنام وأفحم الفصحاء والبلغاء، فالجميع اعترفوا بأنّ لكتابه مقاماً سامياً فوق أن يناله الإنسان، وفي الوقت نفسه يشتمل على أحكام وقوانين وسنن لو آمن بها الإنسان وعمل بها في قضاياه العامّة والخاصّة لأضحت حياته مشرقة بالسعادة عامرة بالخير، إلى غير ذلك من المزايا التي ذكرت في محلّها، كلّ ذلك جاء به رجل أُمّيّ لم يتعلّم عند بشر ولم يكتب كتاباً ومع ذلك يقول بملء فمه:(وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْب مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَة مِنْ مِثْلِهِ)(البقرة:٢٣.)

فهذا أوضح دليل على أنّ الكتاب ليس من نتاج فكره وإنّما أُنزل إليه من ربّه، كما يقول:(وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا) يا محمد (مِنْ قَبْلِهِ): أي القرآن (مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ): أي الكتاب (بِيَمِينِكَ): أي بيدك اليمنى، وقد تلا النبي الأكرم هذه الآية على معشر قريش وغيرهم ولم يكن أحد منهم يكذّب ذلك أو يخالفه. وكأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)يقول: يا معشر العرب أنتم تحيطون خبراً بتاريخ حياتي فإنّي تربّيت بين ظهرانيكم ولبثت فيكم عمراً يناهز الأربعين، فهل رأيتموني أتلو كتاباً أو أخطّ صحيفة، فكيف ترمونني بالإفك الشائن بأنّه أساطير الأوّلين اكتتبتُها، ثم افتريتُها على الله، وأعانني على ذلك قوم آخرون؟!

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل الوصفين اللّذين وصف بهما النبي: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا)، (وَلاَ تَخُطُّهُ): أي بأنّك لو مارست الكتابة والتلاوة اللّتين هما رمز التعليم والتعلم، علله بقوله:(إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) أي لاتّهمك المشركون بأنّ القرآن من جنس ما كنت تتلو وتخط،ولو كان الأمر على خلاف ذلك، لاتّخذه هؤلاء الذين يخوضون بالباطل ذريعة للشكّ في القرآن وقالوا لعلّه نقل ذلك عن الكتب السابقة، ولكنّهم أُفحموا لمّا لم يجدوا لهذه التهمة من سبيل، لاشتهار أُمّيّته(صلى الله عليه وآله وسلم) بين قومه. وعلى هذا فقوله: (إِذًا)جواب لشرط مقدّر، أي لو كنت تتلو كتاباً أو تخطّه لارتاب المبطلون الذين يحاولون إبطال الحقّ وإزهاقه.

وربّما يتصوّر المعاند أنّ ما جاء في هذه الآية ادّعاء فاقد للدليل، ولكن مَن سبر حياة قريش قبل بزوغ شمس الإسلام يقف على أنّ الأُمّية كانت سائدة على أكثر القاطنين في مكة المكرمة، وهذا هو البلاذري قد أتى بأسماء الذين كانوا عارفين بالقراءة والكتابة في مكة المكرمة فما تجاوز عددهم أكثر من سبعة عشر رجلاً في مكة، وأحد عشر نفراً في يثرب، قال: اجتمع ثلاثة نفر من طي بـ «بقة» وهم: مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثمّ تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً فتعلم «بشر» الخط العربي من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أُمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلّمهما الخط فعلمهما الهجاء، ثم أراهما الخط فكتبا، ثم إنّ بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن

سلمة الثقفي فتعلّم الخط منهم وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلّم الخط منه عمرو بن زرارة بن أعدس فسمّي عمرو الكاتب، ثمّ أتى بشر الشام فتعلّم الخط منه ناس هناك وتعلّم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب، فعلّمه رجلاً من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يتردّد فأقام بها وعلّم الخط قوماً من أهلها إلى أن قال: فدخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب و.... فتوح البلدان:٤٥٧.

ومع أنّ النبي كان أُميّاً قد ولد بين الأُميّين ولم يقرأ ولم يكتب حتى البعثة مع ذلك عاد بعض المعاندين يشكّكون في رسالته وقرآنه، ويلوكون في أشداقهم بأنّ ما جاء به من الآيات والسور إنّما تلقّاه من الصحف الدينية وقد صاغها وسبكها في قوالب فصيحة تهتزّ لها النفوس وترتاح إليها القلوب، فليس لما يدّعيه من نزول الوحي على قلبه، مسحة حقّ أو لمسة صدق.

وقد حكى سبحانه هذه الفرية الشائنة عن بعض المشركين بقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً). الفرقان:٤ـ٥. فالله سبحانه لقلع جذور الشكّ عن قلوب السذَّج من الأُمّة، والمبطلين منهم، احتجّ عليهم بأنّه لم يُعرف عنه لا التعلّم ولا الكتابة، حتى يصحّ لنبيّه أن يتلو على رؤوس الأشهاد قوله سبحانه: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) يونس:١٦..

هذا كلّه قبل البعثة وأمّا بعدها فالمشهور أنّ النبي بقي على الأُمّية أيضاً لمصلحة أولى وألزم، غير أنّ شيخنا المفيد(المتوفّى ٤١٣هـ) ممّن ذهب إلى أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان عارفاً بالقراءة والكتابة بعد بعثته، واستدلّ على ذلك بوجوه أربعة نذكر منها الوجه الأوّل الذي هو المهمّ، قال: إنّ الله تعالى لمّا جعل نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) جامعاً لخصال الكمال كلّها، وخلال المناقب بأسرها لم تنقصه منزلة بتمامها، ليصحّ له الكمال، ويجتمع فيه الفضل، والكتابة فضيلة مَن منحها فضل، ومن حرمها نقص. راجع أوائل المقالات:١١١ـ ١١٣، ط تبريز.

يلاحظ عليه: أنّ الكتابة وإن كانت من الكمالات «ومن منحها فضل، ومن حرمها نقص» غير أنّ ذلك يعدّ للأشخاص العاديين الذين ينحصر طريق اكتسابهم للمعارف بها وحدها، وأمّا من لا يحتاج إليها بل له طريق آخر لدرك الحقائق واكتساب المعارف ـ كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم)ـ فلا يعدّ التمكّن من الكتابة والقراءة فضيلة له حتى يكون عدمهما نقصاً في حقّه، كيف، وهو(صلى الله عليه وآله وسلم) قد عرف الواجب جلّ اسمه وصفاته وأفعاله ووقف على حقائق الكون ودقائقه عن طريق الوحي الذي هو أوثق وأسدّ الطرق الممكنة، لا يخطأ ولا يشتبه وعند ذاك لا حاجة له إلى هذه الطرق العادية غير المصونة عن الخطأ والاشتباه.

أضف إليه لو فرضنا أنّ بقاء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على ما كان عليه من الأُميّة، كان يرفع الشكّ عن قلوب السذّج من الناس ويؤكّد إيمانهم وإذعانهم بنبوّته وبما جاء به من الشريعة والكتاب، وجب على المولى سبحانه إبقاءه على ما كان عليه من الصفات والنعوت، طلباً للغاية التي بعثه لأجل إحرازها وتحقّقها، فإذا كان هو الملاك في أُمّيته قبل بزوغ دعوته، فليكن هو الملاك في بقائه عليها فلا وجه لعد أحدهما نقصاً في حقّه(صلى الله عليه وآله وسلم)دون الآخر.

ثمّ بقي هنا أمر وهو أنّه يظهر ممّا رواه البخاري في كتاب بدء الوحي أنّ أمين الوحي جاء وهو في غار حراء فقال اقرأ قال: ما أنا بقارئ، ثم تكرّر هذا العمل مرّتين ففي المرة الثالثة يقول: فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني فقال:(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ). صحيح البخاري:١/٥ برقم ٣، كتاب بدء الوحي.

فظاهر ذلك أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) استطاع أن يقرأ الصحيفة التي كانت بيد أمين الوحي؛ وقد أجبنا عن ذلك بأنّ الحديث

غير مرفوع إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فقد جاء الحديث بالنحو التالي: عن عائشة أُمّ المؤمنين أنّها قالت: أوّل ما بدئ من الوحي الرؤيا الصادقة من النوم.

ولو صحّ الحديث فلماذا خصّ النبي زوجته عائشة فقط ولم يحدّث به غيرها مع أنّ المضمون لا يخلو عن أهمية. ولو أغمضنا عن كلّ ذلك فتمكّنه من قراءة الصحيفة البرزخية لا يلازم إمكان القراءة للصحف المادية، وقد أشبعنا الكلام في هذا الموضوع في رسالة مستقلة نأتي بنصّها بعد الفراغ من تفسير السورة.

ثمّ إنّ بعض المستشرقين ومن تبعهم من الشرقيّين حاولوا إثبات أنّ النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ ويكتب بعد البعثة أو مطلقاً، كلّ ذلك لا لإجل حفظ مقام النبي الرفيع، بل لاتّخاذ ذلك منطلَقاً للتشكيك في كتابه، وأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)أخذه من كتب السابقين، ولهم في ذلك وجوه غير ناهضة فنّدناها في الرسالة التي ستأتي لاحقاً، ومن أعظم اشتباهاتهم أنّهم يفسّرون الأُمّي بالانتساب إلى أمّ القرى (أي مكّة) لكنّهم غفلوا عن أن النسبة إلى أُمّ القرى هي القرويّ لا الأُمّيّ، وهذا ابن مالك يقول في ألفيته:

وانسبْ لصدر جملة وصدر ما *** رُكّب مزجاً، ولثان تَمّما

إضافةً مبدوّة بابن وأبْ *** أو ما له التعريف بالثاني وجبْ

فيما سوى هذا انسبنْ للأوّلِ *** ما لم يُخفْ لبسٌ كعبد الأشهلِ

قال ابن عقيل في شرحه: إذا نسب إلى الاسم المركب، فإن كان مركّباً تركيب جملة أو تركيب مزج، حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسب، فتقول في تأبّط شرّاً: تأبّطي، وفي بعلبك: بَعْليّ، وإن كان مركّب إضافة، فإن كان صدره ابناً أو أباً أو كان معروفاً بعجزه، حذف صدره وأُلحق عجزه ياء النسبة، فنقول في ابن الزبير: زبيريّ، وفي أبي بكر: بكريّ، وفي غلام زيد: زيديّ، وإن لم يكن كذلك.... شرح ابن عقيل:٢/٣٩١.وعلى هذا فالصحيح في النسبة إلى «أُمّ القرى» هو القرويّ لا الأُمّيّ. نعم ورد هذا التفسير في بعض الروايات وقد أوضحنا حالها في نفس الرسالة فلاحظ.

٤٩.(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ):

لمّا فرض في ذيل الآية السابقة ارتياب المبطلين جاءت هذه الآية لإبطال هذا الفرض، وأنّ القرآن الكريم أعلى وأنبل من أن يتطرّق إليه الإبطال، وذلك ببيان أمرين:

١. (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) تدلّ على صحّة رسالة النبيّ ودعوته (فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)، وهل المراد بصدور هؤلاء صدر النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّ التعبير بالجمع تعظيم له، أو أنّ المراد غيره؟ الظاهر هو الثاني؛ لأنّه سبحانه بصدد الاستدلال على صحّة دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)فالذين أُتوا العلم يشهدون على صحّة نبوّته، ومن المعلوم أنّه يجب أن يكون الشاهد غير المشهود له، ولذلك ورد في روايات أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) بأنّه سبحانه قد عناهم بقوله هذا.

روى بُريد بن معاوية، عن أبي جعفر [الباقر](عليه السلام)قال: قلت له: قوله تبارك وتعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)؟ قال: «إيّانا عنى». بصائر الدرجات الكبرى: ١ / ٤٠٣ برقم ٧٥٧ .

وقد جاء هذا المعنى في روايات عديدة مرويّة عن الباقر والصادق (عليهما السلام). انظر: بصائر الدرجات الكبرى: ١ / ٤٠٣ ـ ٤٠٧؛ والكافي: ١ / ٢١٣ ـ ٢١٤ .

ويمكن أن يقال: الآية تشير إلى الراسخين في العلم، وهم بالدرجة الأُولى أئمة أهل البيت(عليهم السلام)، وبالدرجة الثانية العلماء المخلصون الذين درسوا القرآن عن وعي، فيعمّ الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

٢. (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ)، هذه الفقرة ناظرة إلى المشركين الذين استيقنوا أنّ الرسول مبعوث من جانب الله ، وأنّ هذا الكتاب كتاب سماويّ لا يعادله كتاب آخر؛ ومع ذلك جحدوا برسالة صاحب الكتاب؛ ولذلك وصفهم بالظالمين وقال: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ) وتقدّم وصفهم بالكافرين حيث قال: (وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ).

٥٠. (وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ):

لمّا تقدّم ذكر الجاحدين الذين ينكرون القرآن عناداً وتعصّباً للباطل، مع وضوح ما فيه من دلائل على أنّه وحيٌ من الله سبحانه، عاد إلى ذكر تحدّيهم للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)باستنزال معجزات خارقة للعادة تدلّل على صدق ارتباطه بالسماء، فلو كان نبيّاً لأتى بمعاجز تكوينية، كعصا موسى وإحياء الموتى وناقة صالح، إلى غير ذلك من المعاجز، فجاءت الآية ردّاً على هذا الاقتراح، فذكرت أوّلاً اقتراحهم بقوله: (وَقَالُوا) المشركون (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ): أي على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) (آيَاتٌ)خوارق للعادة تكوينية (مِنْ رَبِّهِ). ثم أجاب عن اقتراحهم بوجهين:

الأوّل:(قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ): أي إنزال الآيات الكونية تابع لإرادته سبحانه، فمهما تعلّقت إرادته بإتيان آية كونية فالنبيّ يأتي بها، وليس هو صاحب قدرة مستقلّة حتى يأتي بكلّ ما اقترحتموه. وقد تكرر هذا المضمون في القرآن الكريم غير مرّة. وليست هذه الفقرة ناظرة إلى نفي الإعجاز عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما تشير إلى أنّ خرق العادة بإذنه سبحانه، وقد أذن له في غير واحد من الموارد، كمعراجه إلى السماء، وشقّ القمر، إلى غير ذلك.

الثاني: (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ): أي إنّ الرسالة التي كُلِّفتُ بها، هي إنذاركم من عذاب الله سبحانه، وقد أنذرتكم غير مرّة. وبهذا البيان نقدر على تبيين مقاصد الآيات التي تحمل هذا المضمون وقد اتّخذها القساوسة ذريعة لنفي أي معجزة كونية للنبيّ، ولقد استعرضنا هذه الآيات بعامّتها التي تناهز ثماني عشرة آية في كتابنا «مفاهيم القرآن». انظر: مفاهيم القرآن: ٤/١٢١ـ١٧٢.

٥١. (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

لمّا كان تحدّيهم للنبيّ باستنزال آيات كونية، يتضمّن إعراضاً واستصغاراً للمعجزة الكبرى للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وهي القرآن الحكيم، جاءت هذه الآية للردّ عليهم في هذا الأمر، وأنّهم لو كانوا طالبين للحقّ متحرّرين من أسر التعصّب والعناد، لكفاهم هذا الكتاب في البرهنة على صحّة نبوّتك ورسالتك حيث قال: (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) ووجه كفايته أنّه أخرس لسان الفصحاء، وأفحم البلغاء عن معارضته، بل بالإتيان بسورة من مثله، فلو كانوا ينشدون الحقّ لأذعنوا به. ثم إنّه سبحانه ذكر خصائص الكتاب المجيد ومزاياه الّتي تدلّ على إعجازه وعظمته، وهي:

١. (يُتْلَى عَلَيْهِمْ): أي تدوم تلاوته عليهم، فيسمعونه في مجتمعاتهم وأنديتهم، فهو آية مستمرّة باقية وليس كمعجزات سائر الأنبياء التي تختصّ بالذين يشاهدونها، فالكتاب معجز إلى يوم القيامة.

٢.(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً) لاحتوائه على ما يرشد الإنسان ـ إذا ما تمسّك بحبله ـ إلى الحقّ والهدى والصلاح والفلاح، وما يدفع بالمجتمع إلى صنع أرقى حضارة إنسانية، ففيه تشريع وأحكام، وآداب وقيم إيمانية، ومعارف وعلوم كونية، وقصص ومواعظ، وكلّ ذلك رحمة من الله .

٣. (وَذِكْرى): أي تذكرة وموعظة(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أو تذكيراً لما عليه فطرة الإنسان، وبذلك يفارق معجزات الأنبياء، فهي تفقد الرحمة والذكرى ولم يكن لها أي تأثير في حياة الإنسان، وهذا بخلاف القرآن فهو يتضمّن منهجاً كاملاً للوصول إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وخصّ المستفيدين بالمؤمنين لأنّهم هم المنتفعون من القرآن .

٥٢. (قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ):

بعد ما أتمّ الحجّة عليهم بأنّه يكفي في إثبات صدق دعوة النبيّ كتابه المنزل الذي بيّن مزاياه آنفاً، فلو كانوا منصفين لآمنوا وأخبتوا ، ولكنّهم بقوا على عنادهم، وطلبوا منه الدليل على أنّه مبعوث من الله سبحانه، فأجابهم بوجهين:

الأوّل: إنّ الله تبارك وتعالى شاهد صدق على أنّه مبعوث منه سبحانه فقال: (قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا): أي كفى بالله أنّه يشهد عليّ بالرسالة والنبوّة. ووجه شهادته هو: أنّي تحدّيتكم مرّة بعد أُخرى، تارة تحدّيتكم بالإيتان بمجموع كتابي، وأُخرى بعشر سور منه، وثالثة بسورة من سوره، ولكنّكم عجزتم عن معارضته، وهذا دليل على صدق دعوتي، إذ لو كنت كاذباً لما زوّدني سبحانه بهذه المعجزة التي تجذب الناس إلى دعوتي، قال سبحانه: (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) الحاقة:٤٣ـ ٤٦.

. وبذلك يعلم أنّ كلامه هذا ليس مجرد ادّعاء بل كلام برهاني واستدلالي دليله معه .

ثمّ إنّه سبحانه شهد بنحو آخر على نبوّته وقال: (وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...). آل عمران: ١٤٤. وقال أيضاً: (مُحَمَّدٌ رسول الله وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...).(الفتح:٢٩.)

ثمّ إنّ البيان القرآني بيّن قيمة هذه الشهادة وهو أنّ الشاهد(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فهل يمكن لمن له هذا العلم الوسيع أن يزوّد رجلاً ـ غير صادق ـ بمعجزة تبهر العقول و تسحر النفوس؟

لمّا ذكر في الآية الحادية والخمسين أنّ الذكر الحكيم رحمة وتذكرة للمؤمنين، عاد في هذه الآية لبيان أنّ الكافرين هم الخاسرون كما يقول:(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ): أي ما ليس بحقّ كالاعتقاد بألوهية الأصنام(وَكَفَرُوا بِاللهِ): أي بوحدانيته (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) إذ لم ينتفعوا بالذكر الحكيم، الّذي يضيء للإنسان طريق الإيمان، المؤدّي إلى الفلاح في الدنيا، والفوز في الآخرة.

سورة العنكبوت: الآيات ٥٣ ـ ٥٧ (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى ... ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

الآيات: الثالثة والخمسون إلى السابعة والخمسين

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْس ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

المفردات

يستعجلونك: العَجَلة: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه.

بغتة: البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب.

الغشاوة: ما يُغطّى به الشيء.

محيطة: من أحاط بالشيء: أحدق وأحاط به من كلّ جهة.

الذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله، فإنّ ما يكثر منه يقال له الأكل. وقد استخدم لفظ الذوق في الموت لكونه طارئاً على الحياة مرّة واحدة. المفردات للراغب: ١٨٢، مادة «ذوق».

التفسير

٥٣. (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

يظهر من عدد من الآيات أنّ المشركين كانوا يستعجلون بالعذاب الإلهيّ من منطلق الاستهزاء والاستخفاف، ويطلبون من النبيّ العذاب الذي كان يوعدهم به، كقوله تعالى:(وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ) الحج:٤٧. وإلى هذا يشير سبحانه: (وَ

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) وكأنّهم يتحدَّون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بأمرين:

الأوّل: ما تقدّم من قوله: (لَولاَ أُنزِل عَلَيهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ).

الثاني: التعجيل بالعذاب، فلماذا لا يعذّبنا الله حسب ما تقول؟

فوافاهم الجواب: (وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) وهذه الفقرة وما بعدها تحتمل وجهين:

الأوّل: المراد من الأجل المسمّى هو الأجل الذي عيّنه لتعذيب صناديد قريش وأتباعهم في غزوة بدر، ولأجل ذلك أُخّر عذابهم إلى ذلك الوقت.

وأمّا تأخير عذابهم إلى ذلك الأجل فهو لحكمة خاصّة، وهو أنّه قد يتّعظ بعض هؤلاء فيؤمن بالله وحده وبرسالة النبيّ ، ولأجل هذه الحكمة أخّر تعذيبهم إلى السنة الثانية للهجرة، وقد آمن بعضهم بين الفترتين.

والثاني: إنّ عدم التعجيل بالعذاب ليس بمعنى صرفه عنهم، بل ليأتينهم فَجأة من غير أن يشعروا بمقدّماته، كما قال: (وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) وهذا ينطبق على ما جرى عليهم في غزوة بدر حيث فاجأهم العذاب مفاجأة، في وقت كانوا يتصوّرون فيه أنّهم سيقضون على الإسلام، لكن سار الأمر على خلاف ما ظنّوا.

الثاني: ما عليه السيد الطباطبائي من أنّ المراد بالأجل المسمّى هو الذي قضاه لبني آدم حين أُهبط آدم إلى الأرض وقال: (وَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِين) البقرة:٣٦.وقال: (وَ لِكُلِّ أُمَّة أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لاَ يَسْتَقْدِمُونَ) الأعراف: ٣٤. فهذا النوع من الأجل المسمّى (الذي يعادل انقضاء حياة الإنسان هو الذي حال بينهم وبين العذاب). الميزان في تفسير القرآن:١٦/١٤١.

وعلى هذا فالمراد بالأجل المسمّى هو مقدار العمر الذي قضاه سبحانه لكلّ امرئ، والمراد من العذاب هو العذاب بعد الموت، فيعمّ العذاب البرزخي والعذاب الأُخروي. ولعلّ الآية التالية تؤيّد الوجه الثاني فلاحظ.

٥٤. (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ):

كرّر قوله: (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) إشعاراً بكمال جهلهم وفساد فهمهم، وإنّ وجه عدم التعجيل به، هو أنّ العذاب في حقّهم مقضيّ في وقت خاص، فهم يطلبون الأمر المؤجّل تقديراً معجّلاً، ولكنّه خلاف التقدير، ومع ذلك فهم غافلون عن شيء وهو أنّ المؤجّل معجّل بنحو آخر وذلك: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)أي محدقة بهم من كلّ جهة. وظاهر المشتق (أي محيطة) أنّ العذاب بالفعل محيط بهم في دنياهم، وهؤلاء محاطون، وهذه الآية ـ بضميمة آيات أُخرى ـ تشير إلى أنّ للسيئات التي يرتكبها الإنسان حقائق كامنة فيها، تتجلّى في يوم القيامة ألواناً من العذاب كما عليه مسألة تجسّم الأعمال، فالجنة والجحيم صورتان أُخريان من الحسنات والسيئات، فالمسيء تحيط به نار جهنم في الحياة الدنيا وإن لم يشعر بها، كما أنّ المحسن تحيط به الجنة لأنّ ملكاته الحسنة وأعماله كذلك ستبدَّل إلى الجنة وما فيها من النعيم والقصور. ويشهد لذلك قوله سبحانه:(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَاب أَلِيم * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لاِنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) التوبة:٣٤ـ ٣٥.

، وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا). النساء: ١٠ .

٥٥. (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

لمّا تضمّنت الآية السابقة بأنّ جهنم محيطة بالكافرين، عاد البيان القرآني لتبيين هذه الإحاطة وأنّها على النحو التالي:(يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) فالنار تُجلّلهم وتغطّيهم، وقد ذكر من الجهات، الفوق والتحت ولم يشر إلى اليمين واليسار

لوضوحه وعدم الحاجة إلى بيانه، ومثله قول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)في مدح عمّار بن ياسر «عمّار ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه». عوالي اللآلي:٢/١٠٤. (وَيَقولُ)يحتمل أن يكون القائل هو الله سبحانه أو الملك الموكّل بالعذاب (ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ): أي جزاء عملكم، ويحتمل عدم تقدير الجزاء بل يذوقون نفس ما كانوا يعملون بناء على أنّ عمل الإنسان ـ من شرّ وخير ـ يتجسّم في الآخرة، فحينئذ يذوق نفس عمله.

٥٦. (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ):

تدلّ الآية على أنّ المشركين قد مارسوا سياسة العنف والاضطهاد إلى درجة لا يتمكّن فيها المؤمنون من إظهار الإيمان والعمل بفرائضه، والله سبحانه يشرّفهم هنا بإضافتهم إلى نفسه، فيقول: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)وأي تشريف أفضل من أن يكون الإنسان عبداً لله؟ وهذا هو النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)نصفه بالعبودية قبل الرسالة ونقول: وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ويقول الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام)في مناجاته: «إلهي كفى لي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً. أنت كما أُحبّ، فاجعلني كما تحبّ». الخصال:٤٢٠، باب التسعة، ح ١٤.

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) فإذا لم تملكوا الحرية في العبادة ولم تقدروا على إقامة الفرائض، فهاجروا إلى مكان آخر يُتاح لكم فيه إقامة شعائر دينكم، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):«البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيث ما أصبت خيراً فأقم». تفسير الدر المنثور:٦/٤٧٤.ولذلك لمّا ضاق بالمستضعفين مقامهم بمكة بعد أن اشتدّ عليهم الأذى والعذاب، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فآواهم ملكها وأحسن جوارهم ، كما هاجر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) والّذين اتّبعوه إلى المدينة المنورة (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ): أي أُمرتم بالهجرة لأنّكم لا تتمكّنون من التوحيد في العبادة حتى تعبدوني دون غيري. وليس في الآية دليل على كون الآية مدنية لما عرفت من أنّ الهجرة تحقّقت في الفترة المكية أيضاً.

٥٧. (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ):

وجه صلة الآية بما قبلها هو أنّه سبحانه يؤكّد في هذه الآية على أنّ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) أي واجدة مرارة الموت وكَربَه، كما يجد الذائق طعم المذوق، وعلى هذا فإنّكم ميّتون، ومن كان هذا مصير حياته فعليه التزوّد والاستعداد له، ولا يحصل ذلك إلاّ بالهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإيمان، فتكون الآية بصدد الترغيب إلى الهجرة، وهذا ما يظهر من «الكشّاف» تفسير الكشّاف:٣/١٩٤، بتوضيح منّا، حيث قال:

إنّ الآية بصدد تسلية المؤمنين حيث كانوا معذّبين تحت ضغط المشركين وممنوعين عن إقامة الشعائر إلى غير ذلك من ألوان التعذيب والحرمان فجاءت الآية تسلية لهم وهو أنّ الحياة الدنيوية حياة مؤقتة سوف تنقضي كما يقول: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) والمهم هو الحياة الأُخروية التي تتحقّق عند الرجوع إليه سبحانه كما يقول: (ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ). وعلى هذا التفسير لا صلة للآية بالهجرة.

سورة العنكبوت: الآيات ٥٨ ـ ٦٠ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ... وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

الآيات: الثامنة والخمسون إلى الستين

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّة لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

المفردات

بوّأ: قال في «الصحاح»: تبوّأت منزلاً: أي نزلته، وبوّأت للرجل منزلاً وبوّأته منزلاً: أي هيّأته ومكّنت له فيه. صحاح الجوهري:١/٣٧.

مادة «بوأ».

الغرف: جمع الغرفة، وهي العُلّيّة من البناء، أي بيت منفصل عن الأرض ببيت ونحوه .

دابّة: الدابّة: كلّ نفس دبّت على وجه الأرض، عقلت أو لم تعقل.

لا تحمل: أي لا تدّخر.

التفسير

٥٨. (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ):

لمّا تقدّم بيان مصير الكافرين في قوله سبحانه: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)عاد البيان القرآني لبيان مصير المؤمنين وقال: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا): أي لنزلتّهم من الجنة مواضع عاليات، (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)حيث تعلو عليها الغرف، أو بمعنى: تجري من تحت أشجارها المياه (خَالِدِينَ فِيهَا): أي ماكثين فيها لا يتحوّلون عنها أبداً.(نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)فهو ثناء على الغرف التي تُعطى لهم جزاءً على ما قدّموا في حياتهم من أعمال ابتغوا بها مرضاة الله تعالى.

٥٩.(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ):

وهنا يصف سبحانه العاملين بوصفين:

١. (الَّذِينَ صَبَرُوا) في طريق دينهم من غير فرق بين الصبر في طريق الطاعة، أو الصبر عند المصائب والنوائب، أو الصبر عن المعاصي والآثام، (فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ) نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٨٢ .، إذ الصبر رمز الاستقامة، وهو مفتاح النجاح في الحياة، يقول سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَ لاَ تَحْزَنُوا). فصلت:٣٠. ولعلّ الأنسب هنا هو الصبر في تحمّل أذى المشركين.

٢. (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فلا يعتمدون على أقوامهم وأوطانهم،

بل يتوكّلون على الله سبحانه، وبذلك يُعلم أنّ سمة المؤمن وشعاره الصبر والتوكّل، فالصبر يرسّخ ثبات الإنسان واستقامته أمام المشاكل، والتوكّل على الله يوجب الاستمداد منه سبحانه للوصول إلى الهدف. وسيوافيك معنى التوكّل في تفسير قوله سبحانه:(وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ). الطلاق:٣.

٦٠. (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّة لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ):

ولعلّ الآية نوع إجابة لمن كان يرجّح الإقامة في وطنه على الهجرة إلى ديار الغربة مخافة الجوع والحرمان والفقر، فجاء البيان القرآني بأنّ الرزّاق هو الله سبحانه بشهادة: كم من دابة لا تدّخر رزقها من الصيف إلى الشتاء لكنّ الله يرزقها كما قال: (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّة لاَ تَحْمِلُ): أي تدخر (رِزْقَهَا)، وإنّما قال:(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّة) ولم يقل: كلّ دابة، لأجل أنّ عدداً من الدوابّ ـ كالنملة مثلاً ـ تدّخر رزقها ولا تأكل إلاّ قدر كفايتها.

(اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ): أي الخشية من الإملاق أمر باطل، والله سبحانه هو الخالق وهو الرزّاق(وَهُوَ السَّمِيعُ)لأقوالكم الّتي عبّرتم فيها عن خشيتكم من مفارقة أوطانكم (الْعَلِيمُ) بأحوالكم لا يخفى عليه شيء من سرّكم وإعلانكم. وحصيلة الآية: إعطاء الاطمئنان لهؤلاء المستضعفين المعذّبين في مكّة المكرّمة حتى يخرجوا من نير الظلم والعدوان إلى ساحة الأمن والاطمئنان، وليس لهم أن يجعلوا الخوف من الجوع والفقر ذريعة للبقاء في أوطانهم.

سورة العنكبوت: الآيات ٦١ ـ ٦٤ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ و ... وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

الآيات: الحادية والستون إلى الرابعة والستين

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

المفردات

سخّر: التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً.

الإفك: كلّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهابّ: مؤتفكة.

يَقْدر: أي يضيّق وهو ضد يبسط.

الحَيَوان: الحيوان والحياة واحد، ومعنى قوله: (لَهِيَ الْحَيَوَانُ) أي لهي الحياة الحقيقية.

التفسير

هذه الآيات الأربع ناظرة إلى قوله سبحانه:(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)حيث إنّهم كفروا بالله وآمنوا بالباطل، أي الأصنام والأوثان، ومع ذلك إذا سئلوا عن أشياء مَن هو خالقها ومدبّرها، ينسبون ذلك إلى الله سبحانه، وهذا نوع تناقض، فمن جانب يعبدون الأوثان الباطلة ويكفرون بالله الحق، ومن جانب آخر أنّهم إذا سئلوا أجابوا بما هو الحقّ نزولاً على حُكم الفطرة، وبذلك تعلم صلة هذه الآيات بما قبلها.

٦١. (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ):

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ) عن أمرين كبيرين:

١. (مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ): أي مَن أوجدهما من العدم؟ فإنّ الوجدان لا يرضى لأن ينسب خلقهما إلى الأصنام والأوثان الصامتة والتي لا تسمع ولا تعقل، ولا إلى محكيّاتها من الملائكة والموجودات النورانية.

٢. (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ): من خلال جريان كلّ منهما وفق سنن منتظمة مقدّرة بدقّة بالغة، لاترى فيها أي تخلّف في حركاتهما ودورانهما(لَيَقُولُنَّ اللهُ): أي هو الخالق والمسخّر، فعندئذ يُسألون بالقول: (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ): أي فلماذا يُصرفون عن الحقّ إلى الباطل؟

٦٢. (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ):

ثمّة آيات عديدة تدلّ على أنّ سعة الرزق وضيقه بيد الله سبحانه. منها قوله عزّ من قائل: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ) الرعد:٢٦. ، وقوله أيضاً: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الروم:٣٧.، وفي المقام يقول سبحانه: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ)الضمير يرجع إلى الموصول، فأُقيم الضمير مكان الظاهر فكأنّه قال: ويقدر لمن يشاء، فيكون مَن بُسط غير مَن قُدر، وليس المصداق للموصول هو نفس المصداق للضمير. نعم احتمل في «الكشّاف» أن يكون المصداق واحداً ولكن يتعاقب الأمران على واحد حسب المصلحة. ثم إنّه سبحانه يعلّل ذلك الاختلاف بقوله: (إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ): أي يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، وكلّ ذلك للحكمة التي هو أعرف بها.

بقي الكلام في توسّط الآية بين السؤال السابق ـ أعني :(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...) ـ والسؤال الآتي، أعني: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ...)؟

والجواب: الظاهر أنّه تكميل لمعنى قوله سبحانه: (اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)لأنّ الأوّل كلام في المرزوق وعمومه، وهذا كلام في الرزق توسعةً وتضييقاً.

وعن صاحب الكشف: اعترض ليفيد أنّ الخالق هو الرزاق، وأنّ مَن أفاض ابتداء وأوجد أَولى أن يقدر على الإبقاء وأكّد به ما ضمّن في قوله عزّ وجلّ:(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ). روح المعاني:١٢/٢١.

٦٣.(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ):

قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ): أي بسببه (الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا)فتصير مخضرّة ذات نضارة ورونق من بعد أن كانت يابسة مُمحِلة (لَيَقُولُنَّ اللهُ) فاعل ذلك، وبذلك يعترفون بأنّ الموجد للممكنات ومدبّرها هو الله سبحانه. ثمّ إنّه سبحانه يأمر نبيّه بقوله:(قُلِ الْحَمْدُ للهِ) حيث أظهر حجّته إلى حدّ اعترف المشركون بما يلزمهم، فإذا كان الله سبحانه هو مبدأ الخلق والنعم وهو المدبّر لأمر خلقه، فهو إذاً أَولى بالعبادة من غيره.

ثم قال:(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)لأنّهم لا يتدبّرون، ولذلك بانَ التناقض بين معتقدهم في الخلق والتدبير وبين أفعالهم، أعني: الإعراض عن عبادة الحقّ إلى عبادة المخلوق.

٦٤. (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ):

قسّم سبحانه المشركين إلى مَن يعقل وهو القليل ومَن لا يعقل وهو الأكثر، كما هو المستفاد من قوله:(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) ومع ذلك كلّه ترى اتّفاق المشركين كلّهم في أمر إنكار البعث والانغماس في الدنيا والتنافس في ملذّاتها، فجاء البيان القرآني ينعى عليهم هذا الانغماس، وما ذلك إلاّ لأنّ الحياة الدنيا أشبه شيء باللهو الذي يشغل الإنسان، واللعب الذي ينتهي بتمامه ولا يبقى أثر منه، فلو أنّ المشركين يريدون الحياة الباقية فليطلبوها من الحياة الأُخروية، ولذلك يقول: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ): أي ما يشتغل به الناس في أوقات فراغهم (وَلَعِبٌ)يتصدّى به الإنسان لانبساط نفسه، وبما أنّ لكلّ منهما وجوداً مؤقّتاً حيث بعد انتهاء اللهو واللعب يعود الإنسان إلى مكانته الأُولى دون أن يكتسب شيئاً، صحّ قوله سبحانه (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ): أي هي الحياة الحقيقية ببقائها وخلودها.

قال الشريف الرضيّ: ولمّا كانت الحياة دائمة فيها، حَسُن أن توصف بها على طريق المبالغة أنّها الحياة الواقعية لا الحياة الدنيوية تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٨١، بتصرّف ..

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أنّ بعد هذه الدنيا الزائلة البائدة حياة أُخرى دائمة خالدة.

ثمّ إنّ هاهنا نكتة لابدّ من التنبيه عليها وهي أنّه سبحانه ليس بصدد ردّ سعي الإنسان في الحياة الدنيا ليتمتع بمواهبها؛ وذلك لأنّه يخالف ما عليه نفس الكتاب والسنّة بالأمر بتحصيل الرزق والتمتّع بالمواهب، يقول سبحانه: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) الجمعة:١٠، وقال سبحانه:(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)(الأعراف:٣٢.)

وإنّما هو بصدد التحذير من الانكباب على الدنيا بثمن نسيان الآخرة، فهذا هو الذي يؤكّد عليه القرآن في الكثير من آياته، ولذلك يصف في بعض الآيات المؤمنين بأنّهم يطلبون خير الدنيا والآخرة كما يقول عن لسانهم: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ) البقرة:٢٠١..

سورة العنكبوت: الآيات ٦٥ ـ ٦٩ (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ ... وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).

الآيات: الخامسة والستون إلى التاسعة والستين

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).

المفردات

الدين: الطاعة.

يتخطّف: الخطف والاختطاف: الاختلاس بالسرعة، قال تعالى: (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ)، الحجّ: ٣١. فأُريد منه في الآية يُقتلون ويُسلبون.

مثوى: الثواء: الإقامة مع الاستقرار.

التفسير

٦٥. (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ):

هذا برهان آخر على عدم تعقّلهم، وتوضيحه أنّه سبحانه وصف أكثر المشركين بقوله:(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) فعاد إلى البرهنة على ذلك بأنّ عملهم يضادّ عقيدتهم مئة بالمئة، فمن جانب جعلوا التدبير بيد الأصنام والأوثان، يقول سبحانه حاكياً عنهم:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) يس:٧٤، ويقول سبحانه حاكياً عنهم أيضاً: (وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) مريم:٨١، وكلّ ذلك يدلّ على أنّهم أعطوا زمام التدبير لآلهتهم المكذوبة؛ لكنّهم من جانب آخر إذا ركبوا في الفلك وتقاذفتها الأمواج العاتية وحاق بهم الخطر، فعندئذ يفزعون إلى الله ، يدعونه بأكفّ عالية، ولا يخطر ببالهم أيّ معبود من معبوداتهم. وإنّما خصّ الفُلك بالذكر لأنّهم كانوا يخافون من البحر وأهواله، وهيجانه، وأمّا البرّ فكانوا يسافرون زَرافات وقوافل ومعهم سلاحهم ويقطعون طرقاً يعرفونها، ولذلك يقول سبحانه:(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ): أي الطاعة وينسون طاعة الأصنام (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ)واستجاب دعاءهم (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)يعودون إلى ما كانوا عليه من شرك. وهذا يدلّ على أنّ الإنسان إلهي بالفطرة وإنّه خُلق على التوحيد، كما يقول سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)، الروم:٣٠.غير أنّ الانكباب على الدنيا أو الانخداع بوسائل الإعلام للقوى المعادية للقيم الإيمانية، يكون سبباً لنسيان الفطرة أو سترها، ولكن عندما يواجه الإنسان الأخطار المحدقة به ويرى أنّ الأسباب العادية لا تؤثر ولا تُنجي، فعندئذ ترتفع الأستار عن وجه الفطرة ويعود الإنسان إلى طبيعته الأُولى قبل غشيانها بأُمور مادّية، حتّى أنّه حُكي عن بعض الماديّين الذين ينكرون وجود الصانع بتاتاً، أنّهم كانوا يلتجئون إلى الله في الشدّة والخوف. وهناك حديث جميل عن الإمام الصادق(عليه السلام) يفصّل لنا رجوع الإنسان في الشدائد إلى الفطرة، وأنّ هذا أحد الدلائل على وجوده سبحانه، وإليك الحديث:

قال رجل للصادق(عليه السلام): يابن رسول الله دلّني على الله ما هو، فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني؟

فقال له: «يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟»

قال: نعم.

قال: «فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟»

قال: نعم.

قال: «فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟»

قال: نعم.

قال الصادق(عليه السلام): «فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث». بحار الأنوار:٤١/٣.

٦٦.(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ):

لمّا تضمّنت الآية السابقة أنّ هؤلاء عند الشدة موحّدون وفي الرخاء والرفاه مشركون، عاد البيان القرآني إلى تهديدهم والتنديد بسلوكهم بالأمر بالكفر والتمتّع، ومن المعلوم أنّ هذا النوع من الأمر يُعتبر تهديداً، نظير قوله سبحانه: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فصّلت:٤٠.، ونظيره قول القائل لولده: «إذا لم تسمع قولي وكلامي فاصنع ما شئت» فهو أمر في ظاهره وتهديد في باطنه، قال سبحانه: (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ): أي ليجحدوا نعم الله في إنجائه إيّاهم، (وَلِيَتَمَتَّعُوا) في هذه الدنيا بباقي أعمارهم ناسين مَن إليه الرجوع، غافلين عن مصيرهم الّذي هم إليه صائرون. ويمكن أن تكون اللام لام العاقبة ويكون المعنى: أي إذا هم يشركون ليكون عاقبة أمرهم الكفر بالنعم والتمتع بالدنيا. ونظير الآية في كون اللام للعاقبة قوله سبحانه: (وَ قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ). يونس:٨٨. والأنسب هو المعنى الأوّل بقرينة ما يتضمّنه آخر الآية، أعني قوله: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)من تهديد ووعيد، أي فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وشركهم، عندما يُبعثون ويرَون العذاب .

٦٧. (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ):

يتّضح معنى الآية بنقل ما روي عن ابن عباس: إنّهم قالوا: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلاّ مخافة أن يتخطّفنا الناس لقلّتنا والعرب أكثر منّا، فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فأنزل الله (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا). الدر المنثور:٤٧٧/٦.

الآية تحكي عن عذر من أعذارهم المختلفة لعدم اتّباعهم الهدى قائلين بأنّا نعيش في مكّة المكرّمة عيشاً آمناً هادئاً لا يتعرّض أحد لنا، ولكن إذا آمنّا بدينك يا محمد نخاف أن نُتخطّف من قبل الناس، فجاء الوحي الإلهي يردّ عليهم بقوله: (أَوَ لَمْ يَرَوْا) رؤية حسّيّة(أَنَّا جَعَلْنَا)مكّة المكرّمة (حَرَمًا آمِنًا)أشبه بجزيرة آمن أهلُها من القتل و الغارة، قال الشريف الرضيّ: وهذه استعارة لأنّ الحرم لا يصحّ وصفه بالأمن حقيقة، وإنّما يأمن الناس فيه، فلاتّصال هذه الحال ودوامها واختصاص الحرم بين المواضع بها، حسن أن يوصف بالأمن على طريق المبالغة، ولذلك نظائر في القرآن كثيرة تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨١.، ولكنّ الناس خارج مكّة يعيشون في خوف وفزع على حياتهم وأموالهم، كما يقول: (وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ):أي يؤخذون فتُسلب أموالهم أو يُقتلون، فهذه هي النعمة الكبرى التي أعطاها الله سبحانه لقريش وسكّان مكّة المكرّمة والحرم الشريف، والمشركون خارج مكّة يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم مال بعض، ولكنّهم يحترمون الحرم وأهله. ومع ذلك فهؤلاء غافلون عن نعمة الله سبحانه، ولذلك قال مهدّداً لهم (أَفَبِالْبَاطِلِ)الأصنام (يُؤْمِنُونَ)يصدّقون (وَبِنِعْمَةِ اللهِ)التي أنعم عليهم من النعم الظاهرة والخفية (يَكْفُرُونَ). وقد جاء مضمون الآية في سورة القصص، كما حكى سبحانه قولهم:(وَ قَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ). القصص:٥٧.

وبما أنّ من نعم الله سبحانه على قريش وسكان مكّة بعثة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فهم مكان أن يؤمنوا بنعمة الله كفروا بها، كما قال سبحانه: (وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ)، ولذلك جاءت الآية التالية مندّدة بكفرهم هذا.

٦٨. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ):

تضمّنت الآية أُموراً:

الأوّل: (وَمَنْ أَظْلَمُ) عرّفهم بأنّهم أشدّ الظالمين ظلماً. وسيوافيك وجهه.
الثاني:(مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِبًا) وصفهم بأنّهم يفترون على الله الكذب وينسبون إليه أنّه أمر بعبادة الأصنام، وقد حكى عنهم سبحانه تلك الفرية في آية أُخرى:(وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ). الأعراف:٢٨.
الثالث:(أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) ولعلّ المراد تكذيبهم رسالة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أو كتاب الله العزيز. ثم ذكر عاقبة أمرهم.
الرابع: (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ) وهذه هي نهاية حياتهم جزاء تكذيبهم وافترائهم، فتكون جهنّم هي مكان إقامتهم خالدين فيها.
بقي الكلام عن سبب صيرورتهم أشدّ ظلماً من سائر الظالمين، ولعلّ وجهه يكمن في افترائهم على الله سبحانه حيث سلبوا منه أوضح صفاته وهو التوحيد وأثبتوا له ما هو منزّه عنه.
٦٩. (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ):
نزلت الآية في زمان كان فيه المؤمنون بمكّة مضطهدين صابرين على الأذى في طريق حفظ دينهم، فعلى هذا يكون المراد من قوله:(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا): أي الذين صبروا على الاضطهاد والأذى في سبيل كسب رضا الله سبحانه. ويحتمل أن يكون المراد من قوله: (فِينَا) في طريق الدين.
ثمّ إنّ العمل الصالح ـ خصوصاً مثل ذلك العمل العظيم ـ لا يخلو من أجر في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه يَعِدهم بقوله: (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)
والظاهر أنّ المراد من الهداية إلى سبل الله هو تمكينهم من الهجرة الذي يلازم إنجاز الأعمال الصالحة التي هي السبل إلى كسب رضا الله سبحانه. والسبل وإن تعدّدت إلاّ أنّ الغاية واحدة، أعني: مرضاة الله سبحانه. وفي آخر الآية يصف هؤلاء بعنوان المحسنين ويَعِدهم بأنّ الله معهم كما يقول: (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) وليس المراد من المعيّة المعيّة الجسمانية بل المراد عنايته سبحانه بهم.
هذا هو تفسير الآية عند النظر إلى زمان نزولها.
وأمّا مع قطع النظر عنه، فالآية بإطلاقها تدلّ على أسمى المعارف الإلهية، وهي أنّ لله تبارك وتعالى هدايتين: هداية عامة تشمل كلّ ذي عقل وشعور حتى إبليس وفرعون وتتحقّق تلك الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإلى غير ذلك من أدوات المعرفة. فإن جعل الإنسان نفسه في مهبّ نسيم تلك الهداية يكون ذلك سبباً لهداية ثانية بلا وعي ولا اختيار كما يقول سبحانه:(وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى) محمد:١٧، ويقول أيضاً في حق أصحاب الكهف:(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى) الكهف:١٣.فالتعبير بالزيادة في كلتا الآيتين أكبر دليل على أنّ الهداية الثانية نتيجة الهداية الأُولى. وعلى ضوء ما ذكرنا يمكن تفسير الآية بالنحو التالي: والذين اهتدوا وجاهدوا فينا، أي سعوا في طريق ديننا وكسب مرضاتنا سوف يتمتّعون بهداية ثانية، وهي الهداية إلى السبل التي تنتهي إلى مرضاته سبحانه، وما ذلك إلاّ لأنّ هؤلاء محسنون، والله سبحانه مع المحسنين.
والتدقيق في الآيتين الأخيرتين يرشد إلى أنّ الناس بين ظالم ومجاهد ومحسن، فالطائفة الأُولى أُشير إليها بقوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِبًا)، وأُشير إلى الطائفة الثانية بقوله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)، وإلى الطائفة الثالثة بقوله:(وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)، فالمجاهد في سبيل الله إذا نالته الهداية الثانية يكون من مصاديق المحسنين.

تمّ تفسير سورة العنكبوت

رسالة في مفاد كون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أُميّاً

مرّت الاشارة لهذه الرسالة أعلاه

لم يختلف اثنان من الأُمّة الإسلامية في أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كان أُمّياً لا يُحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته لمصلحة صرّح الله بها في الكتاب العزيز، وسوف يوافيك بيانها، وصحائف حياته البيضاء أوضح دليل على ذلك، وقد أجمع أهل السير والتاريخ على أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُقبل على التعلُّم ولم يحضر على أحد للدراسة وتعلّم الكتابة، بل هو منذ نعومة أظفاره، يوم كان في أحضان جدّه وعمّه إلى أن بلغ الأربعين، لم يحم حول هذه الأُمور، وقد تواترت على ذلك كلمات العلماء الأبرار والفطاحل من أئمّة الإسلام، وقد اقتفوا في ذلك أثر كتاب الله العزيز، ودونك نصوصه من مواضع مختلفة.

النص الأوّل(وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

قال تعالى:(وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) العنكبوت : ٤٨.، سبحان الله ما أصرح كلامه وأوضح دلالته.

هل تجد في نفسك ريباً في أنّه بصدد نفي تلاوة أي كتاب عن نبيّه الأكرم قبل نزول الوحي عليه، وكتابة أي صحيفة عنه، أوليس من القواعد الدارجة بين أئمّة الأدب، أنّ النكرة في سياق النفي تفيد انتفاء الحكم عن كل أفرادها وتعطي شمول السلب، كقوله سبحانه: (وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِم) الحج : ١٨ ، وقد قال سبحانه: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب)فأدخل النفي على النكرة وجعلها في سياقه، فإذن المراد من التلاوة المنفية تلاوة مطلق الكتاب، كما أنّ المراد من الخط المنفى عنه تسطير أي كتاب وترسيم أي صحيفة تقع في ذهن السامع، فالضمير المتّصل بالفعل (لاتخطّه) عائد إلى (كتاب) وكأنّه جل شأنه قال: وما كنت تخط كتاباً. وقد وافاك أنّ مثل هذا الكلام لوقوع النكرة في سياق النفي يفيد عموم النفي، فالله سبحانه نفى عن نبيّه مطلق التلاوة والكتابة قبل بعثته.

ثم إنّه عزّ اسمه أراد أن يبعث نبيّه أُمّياً لمصلحة أولى وألزم، وهي نفي ريب المبطلين وشكّ المشكّكين، إذ لو كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في برهة من عمره تالياً للكتب، وممارساً للصحف، لساغ للبسطاء من أُمّته والمعاندين منهم أن يرتابوا في رسالته وقرآنه، ويلوكوا في أشداقهم بأنّ ما جاء به من الصحف والسور والآيات، إنّما تلقّاها من الصحف الدينية وقد صاغها وسبكها في قوالب فصيحة ، تهتز لها النفوس وترتاح إليها القلوب، فليست لما يدّعيه من نزول الوحي على قلبه، مسحة حقّ أو لمسة صدق.

وقد حكى سبحانه هذه الفرية الشائنة عن بعض المشركين فقال سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً* وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) الفرقان : ٤ ـ ٥. فالله سبحانه لقلع جذور الشكّ عن قلوب السذّج من الأُمّة، والمبطلين منهم، صرفه عن تعلّم الكتابة حتى يصح لنبيّه أن يتلو على رؤوس الأشهاد قوله سبحانه: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ). يونس: ١٦.

يعني يا معشر العرب: أنتم تحيطون خبراً بتاريخ حياتي فإنّي تربّيت بين ظهرانيكم ولبثت فيكم عمراً يناهز الأربعين، فهل رأيتموني أتلو كتاباً أو أخطّ صحيفة، فكيف ترمونني بالإفك الشائن: بأنّه أساطير الأوّلين اكتتبتها، ثم افتريتها على الله، وأعانني على ذلك قوم آخرون؟!

فلو لم يكن النبيّ أُمّياً لا يحسن القراءة والكتابة بل كان قارئاً وكاتباً وممارساً لهما على رؤوس الأشهاد، لما أمكن له أن يتحدّى العرب، وفي مقدّمتهم صناديد قريش بقوله: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) الفرقان : ٦.،

فلأجل تحقيق هذه المصلحة المهمّة، نشأ النبي في أحضان قومه وشبّ وترعرع إلى أن ناهز الأربعين وهو أُمّيٌّ لا يحسن القراءة والكتابة، ولو كان وقتئذ قارئاً وكاتباً وهم أمّيون لراجت شبهتهم في أنّ ما جاء به نتيجة اطّلاع ودرس وأثر نظر في الكتب.
وجاء المفسّرون في المقام بكلمات درّية وجمل موضّحة للمراد، فقال أمين الإسلام الطبرسيّ في تفسير الآية: «اللام» في قوله: (إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) للقسم وفي الكلام حذف، تقديره: ولو خططته بيمينك أو تلوت قبله كتاباً إذاً والله لارتابوا، والمعنى لو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى إيجاد الشكّ في أمرك وإلقاء الريبة لضعفة الناس في نبوّتك ولقالوا: إنّما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الأوّلين، فلمّا ساويتهم في المولد والمنشأ ثمّ أتيت بما عجزوا عنه، وجب أن يعلموا أنّه من عند الله تعالى وليس من عندك، إذ لم تجرِ العادة أن ينشأ الإنسان بين قوم يشاهدون أحواله من صغره إلى كبره، ويرونه في سفره وحضره، لا يتعلّم شيئاً من غيره، ثم يأتي من عنده بشيء يعجز الكلّ عنه وعن بعضه، ويقرأ عليهم أقاصيص الأوّلين مجمع البيان:٤/٢٨٧..

آراء شاذّة للدكتور الهندي

تبنّى الدكتور عبد اللطيف الهندي في مقالة له حول أُمّية النبيّ الأكرم رأياً شاذّاً خالف به الإجماع المسلَّم بين طوائف المسلمين، حيث ذهب إلى أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن أُمّيّاً لا يحسن القراءة والكتابة، بل كان يقرأ ويكتب في حداثة سنّه إلى أُخريات أيّامه يبدو أنّه التقط هذا الرأي من بعض رجال الكنيسة والمستشرقين، الذين زعموا أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ ويكتب، ومنهم المستشرق الإيطالي ليونِه كايتاني(المتوفّى ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) في الجزء الأوّل من كتابه «تاريخ الإسلام» المؤلَّف بالإيطالية.، وقد ألقى الدكتور المذكور مقالته تلك باللغة الإنجليزية، في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في حيدرآباد عام (١٩٦٤م). ولمّا وجد أنّ هذا الرأي يخالف النصّ القرآنيّ الصريح، أخذ في تأويله تأويلاً بارداً، وقال ما هذا حاصله:
«المراد من الكتاب في قوله: (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب) إنّما هو الكتب السماوية نظائر التوراة والإنجيل النازلة بغير اللغة العربية، فلم يكن النبي عارفاً بتلكم اللغات ولا قادراً على تلاوتها، وهو غير القول بأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)لم يكن قارئاً ولا كاتباً حتى باللغة العربية التي هي لسان قومه وبيته».
ولا أدري ما الذي حمل الكاتب على هذا التأويل، إذ لو كان المراد نفي معرفته بهذه الكتب المعينة، لما صحّ له أن يقول:(مِنْ كِتَاب) بل كان عليه أن يقول: ما كنت تتلو من قبله الكتاب أو الكتب مشيراً باللام إلى الكتاب أو الكتب المعهودة، وقد أُتي باللام فيما قصد به نفي العرفان بالكتب السماوية عنه في قوله تعالى: (وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الإِيمَانُ وَلـكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاط مُسْتَقِيم). الشورى : ٥٢.
وقال عزّ شأنه: (وَكَذلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ). العنكبوت : ٤٧.
ترى أنّه سبحانه عندما رام أن يشير إلى هذه الكتب المعهودة عرفها باللام إشارة إلى معهوديتها.
أضف إليه: أنّ الهدف الأسمى للآية من نفي التلاوة والكتابة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)
هو قلع جذور الريب والشكّ من قلوب المبطلين، ولا يتحصّل ذلك إلاّ بكونه أُمّياً غير قارئ ولا كاتب قط، ولا يُحسن القراءة والكتابة أصلاً. ولو صحّ ما يرتئيه الدكتور لما نهضت الآية إلى رفع آثار الشكّ وغبار الريب، بل كان باب إثارة الشك في أمره (صلى الله عليه وآله وسلم)وإلقاء الريب في قلوب ضعفاء الناس بنبوّته مفتوحاً على مصراعيه، إذ كان للجاحد المبطل أن يزعم، انطلاقاً من تماديه في التكذيب، أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)بمزاولته القراءة والكتابة قد يكون اطّلع على أحوال الماضين وأقاصيص الأوّلين، فأودع نتائج أفكاره وما استحصل عليه من الكتب بعد سبره لغورها، في هذه الصحائف التي ضمّنها هذه السور والآيات هي التي افتراها على الله، وقد رماه بهذه الفرية الشائنة رؤوس الكفر والعناد فيما حكاه عزّ وجلّ: (وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ

(تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً). الفرقان : ٥.

وفي نفس الآية دليل بارز على أنّ الهدف منها هو نفي مطلق التلاوة والكتابة عنه(صلى الله عليه وآله وسلم)حيث عطف على الجملة الأُولى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب)قوله:(وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ).

بيانه: لو كان المراد من الآية خصوص عدم قدرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)على تلاوة الكتب الدينية النازلة باللغة العبرانية أو غيرها من اللغات غير الدارجة في الجزيرة العربية لعدم معرفته بلغاتها، لكان له تعالى أن يقتصر على الجملة الأُولى، ولا يردفها بقوله: (وَلاَ تَخُطُّهُ) لوضوح الملازمة بين الأمرين. فإذا كان الرجل لا يقدر على قراءة كتاب أُلّف بلغة معيّنة، فهو لايقدر على خطّها ورسمها بتاتاً، فعلى ذلك لماذا جيء بالمعطوف مع إمكان الاستغناء عنه بما تقدّم عليها؟

ولكن لمّا كان الغرض هو التنبيه على أُمّية النبي بأوضح العبارات، والإجهار بها بأصحّ الأساليب، وأنّه قبل بعثته لم يكن قارئاً ولا كاتباً بتاتاً، بل كان بعيداً عن ذلك كلّ البعد، صحّ عطفها على ما تقدّم عليها، لأنّ العرف إذا حاول توصيف الرجل بالأُمّية يقول في حقّه: إنّه لا يعرف القراءة والكتابة، أو أنّه ليست بينه وبين التلاوة والكتابة أيّة صلة، ولا يقتصر على نفي الأُولى بل يردفها بنفي الأُخرى أيضاً، توضيحاً للمراد. والله سبحانه لمّا أراد التركيز على أُمّية النبي وأنّه طيلة عمره كان بعيداً عن مجالات العلم والدراسة، أتى بما هو الدارج في لسان العرب، إذا أرادوا توصيف الشخص بالأُمّية.

والشاهد على ما ذكرنا: أنّك لو ألقيت هذه الآية على أي عربي عريق في لغته ولسانه، يقضي بأنّ المقصد الأسنى منها نفي معرفته (صلى الله عليه وآله وسلم)بالتلاوة والكتابة على الإطلاق. نعم الآية خاصّة بما قبل البعثة، لا تعمّ ما بعدها، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الأبحاث الآتية فانتظر.

وربّما يقال: إنّ الآية تنفي مطلق التلاوة والكتابة، ولكن لا تدلّ على نفي إحسانهما عنه، لأنّه قد لا يكتب الكتاب من يحسنه. نقله الشيخ الطوسي في تبيانه، فراجع: ج٨/٢١٦، ط بيروت.قلت: سيوافيك جوابه عند البحث عن وضع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بعد البعثة.

النص الثاني(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ.... وَاتّبعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ*... فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ). الأعراف:١٥٧ـ ١٥٨ .

قد وصف سبحانه نبيّه في هذه الآية بخصال عشر وهي:أنّه رسول، نبيّ، أُمّيّ، مكتوب اسمه في التوراة والإنجيل، ومنعوت فيهما بأنّه يأمر بالمعروف، ينهى عن المنكر، يحلّ لهم الطيبات، يحرّم عليهم الخبائث، يضع عنهم الإصر، ويرفع عنهم الأغلال.

وهذه الصفات التي تضمّنتها الآية في حقّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) واضحة حتى الوصف الذي هو موضوع البحث (الأُمّيّ) إذ الأُمّيّ حسب تنصيص الكتاب المبين هو من لا يقدر على القراءة ولا يحسن الكتابة كما يقول سبحانه: (وَ مِنْهُم أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ). البقرة : ٧٨ .

قوله سبحانه: (لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ) توضيح لقوله أُمّيون أي منهم أُمّة منقطعون عن كتابهم لا يعلمون منه إلاّ أوهاماً وظنوناً يتلوها عليهم علماؤهم، الذين يحرّفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها، ويحسب هؤلاء السذّج أنّه الكتاب المنزل إليهم من ربّهم.

ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ ممّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ ممّا يَكْسِبُونَ). البقرة : ٧٩ .

فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قراءته وتلاوته لما اغترّوا بعمل المحرّفين، ولميّزوا الصحيح من الزائف غير أنّ أُمّيتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أُمنيّتهم.

قال الرازي: إنّه تعالى وصف محمداً في هذه الآية بصفات تسع،(لا، بل عشر، كما عرفت.) إلى أن قال: الصفة الثالثة: كونه أُمّياً، قال الزجّاج: معنى الأُمّيّ الذي هو على صفة أُمّة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب إيعاز إلى ما رواه البخاري في صحيحه:١/٣٢٧ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا أو هكذا، مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.، فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون، والنبي كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أُمّياً مفاتيح الغيب:٤/٣٠٩..

وقال البيضاوي: الأُمّيّ لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهاً على أنّ كمال علمه مع حاله هذا، إحدى معجزاته أنوار التنزيل وأسرار التأويل:٣/٢٣٠ مع شرحه لإسماعيل القونوي..

هذا، وقد أصفقت على ما ذكرنا من المعنى للأُمّية معاجم اللغة المؤلّفة في العصور الزاهرة بأيدي الخبراء الأساطين وفي مقدّمهم: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(المتوفّى ٣٩٥هـ) صاحب «مقاييس اللغة» بلغ ابن فارس الغاية في الحذق باللغة، وكنه أسرارها وفهم أُصولها، وقد حاول في تأليف هذا المعجم أن يوحّد المعاني المتعددة المفهومة من لفظ واحد وذلك بإرجاعها إلى أصل واحد تفرّعت عنه تلك المعاني في الاستعمال. وقد انفرد من بين اللغويين بهذا التأليف، ولم يسبقه إلى مثله أحد، ولم يخلفه غيره. وغيرها من الكتب الممتعة ودونك كلامه:

«أمّ» له أصل واحد يتفرّع منه أربعة أبواب وهي الأصل، والمرجع والجماعة والدين، قال الخليل: كلّ شيء تضمّ إليه ما سواه ممّا يليه، فإنّ العرب تسمّي ذلك أُمّاً ومن ذلك أمّ الرأس: وهو الدماغ، أُمّ التنائف: أشدّها وأبعدها، أمّ القرى: مكة، وكلّ مدينة هي أُمّ ما حولها من القرى، وأُمّ القرآن: فاتحة الكتاب، وأُمّ الكتاب ما في اللوح المحفوظ، وأُمّ الرمح: لواؤه وما لفّ عليه، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها: أُمّ مثوى، وأُمّ كلبة: الحمى، وأُمّ النجوم: السماء، وأُمّ النجوم: المجرّة ... إلى أن عدّ كثيراً من هذه التراكيب فقال: الأُمّيّ في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جِبلّة الناس لا يكتب، فهو في أنّه لا يكتب على ما وُلد عليه مقاييس اللغة:١/٢١ـ٢٨..

ومحصل كلامه أنّه ليس للأُمّ إلاّ مادة واحدة وهي الأصل لغيرها ومنه يتفرّع غيرها فأُمّ الإنسان أُمّ لأنّها أصله وعرقه، وهكذا ...

وهذا الزمخشري إمام اللغة والبلاغة فسّر قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) بأنّهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة ويتحقّقوا ما فيها الكشاف:١/٢٢٤..

وقال أمين الإسلام الطبرسي في «مجمع البيان»: ذكروا للأُمّيّ معاني:

أوّلها: أنّه الذي لا يكتب ولا يقرأ.

ثانيها: أنّه منسوب للأُمّة، والمعنى أنّه على جِبِلّة الأُمّة قبل استفادة الكتاب.

ثالثها: أنّه منسوب إلى الأُمّ، والمعنى أنّه على ما ولدته أُمّه قبل تعلُّم الكتابة. مجمع البيان:٤/٣٧٣.

قلت: هذه المعاني متقاربة تستهدف مفهوماً واحداً. وإنّما الاختلاف في انتسابه إلى الأُمّ أو الأُمّة، وقد جمع ابن فارس في كلامه كلا الاحتمالين.

هذه نصوص بعض أئمّة اللغة وأساطين التفسير، إذا شئت فلاحظ كلمات الباقين منهم.

الآراء الشاذة في تفسير الأُمّيّ

ربّما يجد القارئ في طيّات بعض التفاسير معاني أُخر للأُمّي لا تتفق مع ما أصفق عليه أئمّة اللغة والتفسير، فلا بأس بذكرها ودحضها:

الأوّل: الأُمّيّ منسوب إلى أُمّ القرى، وهي علَم من أعلام مكة كما يدلّ عليه قوله سبحانه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) الشورى : ٧ . وعلى ذلك فالمراد من الأُمّي أنّه مكيّ.

وفيه مواقع للنظر والنقد:

أوّلاً: أنّ أمّ القرى ليست من أعلام مكة ـ وإن كان يطلق عليها ـ غير أنّ الإطلاق لا يدلّ على كونه من أعلامها، بل هو موضوع على معنى كلّي وهي إحدى مصاديقه، ولا تنس ما ذكره ابن فارس بقوله: «كلّ مدينة هي أُمّ ما حولها من القرى» فيُعلم من ذلك أنّ أُمّ القرى مفهوم كلّي يصحّ إطلاقه على أية بلدة تتّصل بها قرى كثيرة بالتبعية، وهذه القرى تعتمد عليها في أُمور حياتها، ويعاضد ما ذكرناه (كون أُمّ القرى كلّياً) قوله عزّ وجلّ: (وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً) القصص : ٥٩ .فالآية (بحكم رجوع الضمير في أُمّها إلى القرى) صريحة في أنّها ليست علَماً لموضع خاص، لأنّ مشيئته تعمّ الأُمم في هذا الأمر (إهلاك الأُمم وإبادتهم بعد إنذارهم ببعث الرسل في مراكز قراها) ولا تختص بأُمّة دون أُخرى، أو موضع دون موضع، وعلى هذا فمفاد الآية: أنّ الله سبحانه يمهل أهل القرى من دون فرق بين قرية وقرية، حتى يبعث في مركزها (الذي هو مركز الثقل بالنسبة إليها، ومجتمع أكثر الناس، وملتقى أفكارهم)، رسولاً يبشّرهم وينذرهم، فإذا ضربوا عنه صفحاً وهجروا مناهجه، يبيدهم ويهلكهم بألوان العذاب، وهذه مشيئة الله وعادته في الأُمم السالفة البائدة جميعاً، مكيّة كانت أم غيرها.

وثانياً: لو صحّ كونه من أعلام مكة، فالصحيح عند النسبة إليها هو القُروي لا الأُمّيّ، وهذا ابن مالك يقول في ألفيته:

وانسب لصدر جملة وصدرِ ما *** رُكِّب مَزجاً، ولِثان تَمّما

إضافةً مبدوءةً بابن أوَ ابْ *** أو ما له التعريف بالثاني وجبْ

فيما سوى هذا انسُبنْ للأوّلِ *** مالم يُخَف لَبْسٌ كعبد الأشهلِ

قال ابن عقيل في شرحه: إذا نسب إلى الاسم المركب فإن كان مركباً تركيب جملة أو تركيب مزج، حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسب، فتقول في تأبّط شراً: تأبّطي، وفي بعلبك: بَعليّ، وإن كان مركب إضافة، فإن كان صدره ابناً أو أباً أو كان معروفاً بعجزه، حذف صدره وأُلحق عجزه ياء النسبة، فنقول في ابن الزبير: زُبيريّ، وفي أبي بكر: بكريّ، وفي غلام زيد: زيديّ، وإن لم يكن كذلك ... شرح ابن عقيل:٢/٣٩١..

والاقتصار على الابن والأب من باب المثال، والحكم يعمّ الأُمّ والابنة والأخ والأُخت، لاشتراك الجميع معهما في المناط والملاك ، وهو كونها مركّبة تركيب إضافة وحصول الالتباس لو أُلحقت بصدرها.

وثالثاً: أنّ الله وصف نبيّه في الآية بصفات تناسب موضوع النبوّة ، فلو كان الأُمّيّ فيها بالمعنى الذي أوضحناه، تلاءم الكلام، وكانت تلك الصفة كاشفة عن آية نبوّته وبرهان رسالته، لأنّه مع كونه أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب، أتى بشريعة كافلة لسعادة الناس وسيادتهم، وجاء بكتاب فيه هدى ونور، وتضمّن من الحقائق والمعارف ما لا يقف عليه حتى الأوحديّ من الناس فضلاً عمّن لم يقرأ ولم يكتب، وهذا برهان رسالته ودليل صلته بالله وكونه مبعوثاً ومؤيّداً منه تعالى.

ولو كان المراد منه ما زعمه القائل من كونه مكّياً وأنّه وليد ذلك البلد، لكان الإتيان به في ثنايا تلك الأوصاف والخصال إقحاماً بلا وجه، واقتضاباً بلا جهة.

وإن شئت قلت: لو كان المراد من الأُمّيّ ما ذكرناه، لكان فيه إشارة إلى أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مع كونه باقياً على الحالة التي ولد عليها، قد أتى بكتاب عجز الناس عن تحدّيه، وكَلّ البلغاء عن معارضته، وخرس الفصحاء لديه، مضافاً إلى ما فيه من المعارف الإلهية والحقائق العلمية والدساتير والقوانين الاجتماعية والاقتصادية في شؤون الحياة الانسانية ومسائلها

المعقّدة، وهذا دليل على صدق دعوته، وأنّه مبعوث من عنده تعالى، وهذه النكتة تفوتنا إذا فسّرناه بأنّه مكّي ووليد الحرم والبلد الأمين، إذ ليس في كونه مكّياً أيّ امتياز حتى ينوّه به.

وإلى ما ذكرنا يشير قوله عزّ وجلّ: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَ الحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ). الجمعة : ٢.

فإنّ توصيف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بأنّه منهم (أي من الأُمّيّين) للإشارة إلى أنّه مع كونه أُمّياً مثلهم، يعلّمهم الكتاب والحكمة ، وما ذلك إلاّ لكونه مؤيّداً منه تعالى بروح تعاضده، وموجهاً بتوجيهه لارتقاء تلكم المدارج، فالآية من قبيل إتيان الشيء ببيّنته وبرهانه.

نعم ورد في بعض المأثورات حول تفسير الأُمّي انتسابه إلى أُمّ القرى، وسوف نرجع إلى هذه الروايات بالإيراد والمناقشة في إسنادها ومضامينها.

الرأي الثاني: ما ذكره الدكتور عبد اللطيف الهندي في مقالته المشار إليها، فقال: الأُمّيّ من لم يعرف المتون العتيقة السامية، ولم ينتحل إلى ملّة أو كتاب من الكتب السماوية، والشاهد عليه أنّ الله جعل الأُمّي في الكتاب العزيز، مقابل أهل الكتاب، فيُستظهر منه أنّ المراد منه هي الأُمّة العربية الجاهلة بما في زبر الأوّلين من التوراة والإنجيل غير منتسبة إلى دين أو ملّة، لا من لا يقدر على التلاوة والكتابة.

أقول: ما ذكره الدكتور زلّة وعثرة لا تستقال، فإنّ إطلاق الأُمّيين على العرب المشركين ليس «بسبب جهلهم بالمتون السامية، وإن كانوا عارفين بلسان قومهم قادرين على تلاوته وكتابته» كما حسبه الدكتور، بل بسبب جهلهم بقراءة لغتهم وكتابتها لأنّ الثقافة العربية بمعنى قراءة اللغة العربية وكتابتها، كانت متدهورة في العصر الجاهلي، وكانت الأُمّية هي السائدة ولا يسودهم في تلكم الظروف شيء غيرها، وكانت القدرة على القراءة والكتابة محصورة في ثلّة قليلة لا يتجاوز أفرادها عدد الأصابع.

فهذا المؤرّخ البلاذري أتى «في فتوح بلدانه» بأسماء الذين كانوا عارفين بالقراءة والكتابة في العهد الجاهلي فما جاوزوا سبعة عشر رجلاً في «مكة» وأحد عشر نفراً في «يثرب» وقال: اجتمع ثلاثة نفر من طيّ بـ «بقة» وهم: مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، وكان بِشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجنّ الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً فتعلم «بشر» الخط العربي من أهل الحيرة، ثمّ أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أُمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلّمهما الخط فعلّمهما الهجاء، ثمّ أراهما الخط فكتبا، ثمّ إنّ بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخط منهم وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلّم الخط منه عمرو بن زرارة بن أعدس فسمّي عمرو الكاتب، ثمّ أتى بشر الشام فتعلّم الخط منه ناس هناك وتعلّم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب، فعلّمه رجل من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردّد فأقام بها وعلّم الخط قوماً من أهلها ـ إلى أن قال: ـ فدخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب، عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب و...

فتوح البلدان:٣/٥٧٩، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة..

وهذا ابن خلدون يحكي في مقدّمته، أنّ عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً وقريباً بعهد الرسول، فقد تعرّفوا عليها قبيل ظهور الإسلام، حيث قال في الفصل الذي عقده لبيان أنّ الخط والكتابة من عداد الصنايع الإنسانية:

كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، لمّا بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمّى بالخط

الحِمْيري، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان فيها دولة آل المنذر بسبأ التبابعة، إلى أن قال:
ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر، يقال إنّ الذي تعلّم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أُمية ويقال حرب بن أُمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممّن ذهب إلى أنّهم تعلّموها من إياد أهل العراق وهو بعيد، لأنّ إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخط من الصنايع الحضرية، فالقول بأنّ أهل الحجاز إنّما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحِمْير، هو الأليق من الأقوال مقدمة ابن خلدون:٤١٨، طبع بيروت، الطبعة الرابعة.

فإذا كان هذا مبدأ تعرّفهم على الكتابة والقراءة، وكان هذا مقياس ثقافتهم وتعرّفهم عليها في المنطقتين (مكة والمدينة) فما ظنك بهم في المناطق الأُخرى؟ نعم، كانت الربوع المختصّة باليهود والنصارى، تزدحم بأحبارهم وحفّاظ كتبهم، فكانت القراءة والكتابة رائجتين بينهم، لمسيس حاجتهم إلى معرفة كتابهم وما فيه من الطقوس والسنن.

فإذا ألمت أيّها الباحث ولو إلمامة عابرة بروح ذلك العصر، ووقفت على ما كان يسود في تلكم الظروف والبيئات، لقضيت بأنّ المراد من الأُمّي حتى في ما استعمل عند أهل الكتاب هو العاجز عن القراءة والكتابة بقول مطلق كقوله سبحانه: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتبَ وَ الأُمِّيِّنَ ءَأَسْلَمْتُمْ) (آل عمران:٢٠.) ويوضح ما ذكرناه قوله سبحانه: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ)(البقرة: ٧٨). هذه الآية بما أنّها تقسّم أهل الكتاب والمنتحلين إليه إلى طائفتين أُمّية وغير أُمّية، تبطل ما ادّعاه الدكتور من أنّ الأُمّي عبارة عن من لم ينتحل إلى الدين ولم ينسب إلى ملّة. فالآية بحكم رجوع الضمير (وَمِنْهُمْ) إلى اليهود، تقسّم اليهود إلى طائفتين: طائفة يعلمون الكتاب ، وأُخرى أُمّية لا تعلم من الكتاب شيئاً، بل تتخيّله أمانيّاً، فقد أطلق الأُمّي في هذه الآية على بعض أهل الكتاب بملاك جهله بكتابه، قراءةً وكتابةً، ولكن الجهل بالكتاب الذي نزل بلسانه ولسان قومه يلازم الجهل بسائر اللغات طبعاً.

فهذا الكتابي، بما أنّه لا يحسن القراءة والكتابة قط، أُمّي كالعربي الأُمّي بلا تفاوت.

وقصارى ما يمكن أن يقال: إنّه ليس للأُمّي إلاّ مفهوم واحد وضع له وضعاً واحداً، غير أنّ مفهومه يختلف حسب اختلاف الظروف والبيئات، وحسب اختلاف الإضافات والنسب، فالأُمّي في أجواء الكتابيين عبارة عمّن لا يعرف لغة كتابه، فلو قيل: ذلك الكتابيّ أُمّي فالمقصود منه بقرينة لفظ «الكتابيّ» كونه أُمّياً بالنسبة إلى كتابه الذي ينتحله، كما أنّ الأُمّي في البيئات العربية عبارة عمّن لا يحسن العربية قراءة وكتابة وهكذا ...

وبناء على ذلك فالأُمّيون في قوله سبحانه: (وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاّ أَمَانِيَّ) عبارة عن الطائفة الجاهلة بالمتون السامية من أهل الكتاب، لا يحسنون تلاوتها ولا كتابتها، إلاّ أنّ ذلك الإطلاق لا يُثبت كون الأُمّي موضوعاً لمن لا يعرف اللغة السامية كما حسبه الدكتور، بل لمّا كان محور البحث في الآية أهل الكتاب وانقسامهم إلى طائفة عالمة بما في كتابهم، وطائفة جاهلة به، (أُمّية لا تعلم من الكتاب شيئاً)، صار ذلك كالقرينة على أنّ المقصود من الأُمّيين فيها، هي الطائفة الجاهلة بالمتون السامية واللغة التي أُنزلت بها كتبهم.

وهذا الوجه لا يشمل «الأُمّي» في غير هذه الآية ولا على الموارد العارية عن هذه القرينة ولا يثبت كونه موضوعاً لمن يكون جاهلاً بالمتون السامية، كما ادّعاه القائل.

إذا وقفت على ما ذكرناه وقوف المستشقّ للحقيقة، لأذعنت أنّه ليس للأُمّي إلاّ مفاد واحد وهو الباقي على الحالة التي وُلد عليها. ولو أُطلق في مورد أو موارد على مَن لا يعرف المتون السامية، فلأجل قرينة دلّت عليه، فهو من باب تطبيق الكلّي على فرده الخاصّ، لا أنّه موضوع لذلك الخاصّ.

بحث وتنقيب

لقد بان الحقّ بأجلى مظاهره، ولم تبق لمجادل شبهة في دلالة الذكر الحكيم على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والإنذار، وظهر ما هو الحقّ الصراح في معنى الأُمّي الذي وصف الله به نبيّه الأكرم.

نعم، روي عن بعض أئمّة أهل البيت في تفسير الأُمّي ما يتراءى منه خلاف ما أوضحناه وحققناه ودونك ما روي عنهم في هذا الباب سوف نرجع في آخر البحث إلى تحقيق القول في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)وغيرهم في المقام، والغرض هنا عرض ما يرجع إلى خصوص تفسير لفظ الأُمّي فقط..

١. أخرج الشيخ الصدوق عن أبيه، عن سعد بن عبد الله عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن خالد البرقي، عن جعفر بن محمد الصوفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا(عليه السلام) فقلت: يا بن رسول الله لم سمّي النبي الأُمّي؟ فقال: ما يقول الناس؟ قلت: يزعمون أنّه سمّي الأُمّي لأنّه لا يحسن أن يكتب، فقال: كذبوا عليهم لعنة الله في ذلك، والله يقول في محكم كتابه: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَ الحِكْمَةَ)فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو قال: بثلاثة وسبعين لساناً وإنّما سمّي الأُمّي لأنّه كان من أهل مكة، ومكة من أُمّهات القرى، وذلك قول الله عزّ وجلّ: (وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) الأنعام : ٩٢ .. علل الشرائع :٥٣؛ معاني الأخبار:٥٣ـ ٥٤، برقم ٦.

وأخرج الشيخ الأقدم محمد بن الحسن الصفّار (المتوفّى٢٩٠هـ) عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد البرقي، عن جعفر بن محمد الصوفي، مثله. بصائر الدرجات:٤٣٩/١، الجزء الخامس، الباب٤، برقم ١.

والحديث على كلّ تقدير ينتهي إلى محمد بن خالد البرقي وهو مختلف فيه جدّاً لاستناده إلى المراسيل والضعاف، وهو يروي عن جعفر بن محمد الصوفي الذي أهمله أصحاب المعاجم، فالحديث ساقط عن الحجّية.

أضف إليه ما في متنه من الشذوذ، وفيه جهات من النظر:

أوّلاً: قوله إنّ النبيّ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً، يعطي أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)كان مشغولاً بقراءتها والكتابة بها في عامة حياته أو رسالته فقط، وحمله على الإمكان والتعليق وأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قادراً عليهما باثنين وسبعين لساناً لو شاء وأراد، ولكنّه لم يشأ ولم يقرأ ولم يكتب بها أصلاً، خلاف الظاهر، وعلى ما استظهرناه فالرواية تخالف ماهو المتواتر من حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

إذ لو كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على النحو الذي تصفه الرواية لذاع ذكره وطار صيته بهذا الوصف ولا يكاد يخفى على الناس أمره. على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)في البيئة العربية الأُمّية كان في منأى عن سماع الألسنة أو رؤية أصحابها فلم يكن في موطنه ولا دار هجرته من يعرفها أو يتكلّم بها، فكيف يتكلّم بهذه اللغات، وهو لا يجد من يشافهه بها، ولم تكن تحضره صحيفة أو صحائف كتبت بغير اللغة العربية؟!

ثانياً: أنّ تفسير الأُمّي بكونه منسوباً إلى أُمّ القرى، يخالف ما اتّفق عليه أئمّة الأدب، وجهابذة اللغة، وأعلام التفسير، بل يخالف القرآن الكريم حيث فسّره سبحانه بغير ذلك وقال: (ومنهم أُمّيّونَ لا يعلمونَ الكتاب) فلا يصحّ الركون في هذه المسألة إلى حديث ينتهي إلى مَن اختلف في وثاقته، وإلى مَن أهمله علماء الرجال في كتبهم.

ولسنا من الفئة التي تعرض القرآن والحديث الصحيح على القواعد العربية المدوّنة من قِبل علماء الأدب بعد أجيال من نزول القرآن ونشر الحديث، إذ الصحيح عرض القواعد على القرآن والحديث دون العكس، فإنّ المقياس الوحيد لتمييز الصحيح عن

غيره، إنّما هو كلام أهل اللسان والأساليب الدارجة بينهم، لا القواعد المدوّنة إذا لم ترجع إلى مصدر وثيق.

وعلى هذا فلو وجدنا القاعدة الأدبية المصطادة من تتبع بعض الموارد من كلام العرب، مخالفة للقرآن الكريم أو الحديث الثابت عنهم، أو الكلام الصادر عن عربي صميم، وجب علينا هدم القاعدة، ورميها بالخطأ والغلط، لا تأويل الذكر الحكيم والحديث الصحيح، والكلام المنقول عن أهل اللسان، إذ القرآن سواء أقلنا إنّه كلام إلهي أُوحي إلى نبيّنا الأكرم، أم قلنا ـ على سبيل فرض المحال ـ إنّه من منشآته ومبدعاته، كلام صحيح، صادر إمّا عن الله سبحانه، أو عن عربي صميم شبّ وترعرع بين فصحاء العرب وبلغائهم وقضى عمره وحياته بين ظهرانيهم.

وعلى أي تقدير فهو الحجّة في تدوين القاعدة وتأسيسها دون العكس، ومثله الآثار المنقولة عنه(صلى الله عليه وآله وسلم).

ونحن مع هذا الاعتراف الصريح لا نقرّ بما جاء في الحديث حول تفسير الأُمّي وأنّه منسوب إلى أُمّ القرى، ولا نرمي أئمّة الأدب بالخطأ والاشتباه، إذ الحديث قاصر سنداً حيث ينتهي إلى مَن اختلفت فيه كلمة أهل الجرح والتعديل، وإلى مَن لم تتّضح حاله ووثاقته، ولو ثبت صدوره عن أئمّة أهل البيت، لهدمنا القاعدة النحوية في باب النسبة وأخذنا بما فيه.

ثالثاً: أنّ الحديث لا ينسجم مع مضمون ما سيوافيك من الحديثين راجع البحث الآتي تحت عنوان «عرض وتحقيق» والمقصود من الصحيحين ما رواه هشام بن سالم، والحسن الصيقل عن الصادق (عليه السلام).، فإنّ مفادهما هو كون النبي يقرأ ولا يكتب أصلاً، وهذا يثبت له القراءة والكتابة باثنين وسبعين لساناً، فلا مناص في مقام الترجيح من الأخذ بهما وطرح ذاك، لقوة اسنادهما وصحّتهما على ما عرفت.

٢. روى الصفّار عن عبد الله بن محمد، عن الحسن بن موسى الخشّاب، عن علي بن أسباط أو غيره، قال: قلت لأبي جعفر(عليه السلام) إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يكن يكتب ولم يقرأ؟ فقال: كذبوا لعنهم الله أنّى ذلك وقد قال الله عزّ وجلّ: (هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَل مُبِين)، فيكون أن يعلّمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرأ ويكتب؟ قال: قلت: فلم سمّي النبي أُمّياً؟ قال: نسب إلى مكة وذلك قول الله عزّ وجلّ: (وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَهَا)فأُمّ القرى مكة، فقيل أُمّي لذلك بصائر الدرجات:١/٤٤١ـ ٤٤٢، الجزء الخامس، الباب٤ برقم٤..

ورواها الصدوق بإسناده عن الخشّاب، عن علي بن حسان وعلي بن أسباط وغيره رفعه إلى أبي جعفر(عليه السلام). علل الشرائع:٢؛٥٤ بحار الأنوار:١٦/١٣٣.

أقول: لا يمكن التعويل على هذه الرواية من جهة السند، دع ما في متنها من العلاّت، فما رواه الصفّار في حكم المرسل (لقوله: علي بن أسباط أو غيره)، بالإضافة إلى عدم التصريح بوثاقة شيخه (عبد الله بن محمد)، الذي يظهر أنّ المراد به: عبد الله بن محمد بن عيسى، الملقّب بُنان.

وأمّا رواية الصدوق، فمع كونها مضطربة الإسناد، فهي مرفوعة، والرفع نوع من المرسل الذي لا يعتمد عليه.

هذا، ويلمس القارئ في هذا البحث حقيقة ناصعة هي من أجلى الحقائق الدينية ألا وهي مغزى كون النبي لا يحسن القراءة والكتابة قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والإنذار.

نعم بقي الكلام في أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد البعثة ولأجل ذلك عقدنا لتحقيقه الفصل التالي:

أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد بزوغ دعوته

قد اهتدينا بهدى القرآن وساقتنا الأدلّة إلى القول بأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)كان قبل البعثة أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يسجل

التاريخ له (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك العهد قراءة لوح أو كتابة صحيفة، ولم يكن ذلك اختلاقاً تواطأ عليه المسلمون لهدف خاص كما حسبه الدكتور في مقالته زعم الدكتور في مقالته أنّ أُمية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكرة حديثة بين المسلمين، لصيانة القرآن عن التحريف وحفظه عن حدوث الزيادة والنقيصة عليه من جانب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنّ الأُمّي يعكس كلّ ما أُلقي عليه بلا تغيير وتحريف، ولا يقدر على تحويره بخلاف غيره، فانظر ما أجرأ هذا الرجل على تحريف الكلم عن مواضعه.بل كان تقريراً للواقع، وقد قابلنا التفكير السطحي الخاطئ بالردّ والنقد.

غير أنّنا إيضاحاً للحقيقة، وإكمالاً للبحث، نردف البحث بالكلام عن وضع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بعد بزوغ دعوته وبعثته إلى الناس، وأنّه هل بقي على ما كان عليه من الأُمية لنفس المصلحة التي أوجبت أُمّيته قبل أن يبعث إلى هداية الناس؟ أو لم يبق عليها، وإنّما كُشف الحجاب عن ضميره الحي، وعقله الواعي، وقلبه الواسع، عندما بزغت دعوته وبعث رسولاً إلى الناس؟ ولا يمكن القضاء الباتّ في هذا الأمر إلاّ بعد الوقوف على ما ذكره الفطاحل من رواة الحديث وأعلام التفسير، الذين اختار ثلّة منهم القول الثاني، أعني تمكّن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بإذنه سبحانه من القراءة والكتابة بعد ما نزل عليه الوحي، واستدلّوا على ذلك بوجوه لا تخلو من مناقشات وإشكالات، ونحن نذكر تلكم الوجوه، ثمّ نردفها بما هو المختار عندنا:

١. الوجوه التي اعتمد عليها شيخنا المفيد

استدل الشيخ محمد بن محمد بن النعمان الحارثي البغدادي، الشهير بالمفيد(المتوفّى ٤١٣هـ) بأدلّة ووجوه اعتقد أنّها الحجج الكافية لإثبات ما يرتئيه من أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان عارفاً بالقراءة والكتابة بعد بعثته، وإليك ما أفاده برمّته:

١. إنّ الله تعالى لمّا جعل نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) جامعاً لخصال الكمال كلّها، وخلال المناقب بأسرها لم تنقصه منزلة بتمامها، ليصحّ له الكمال، ويجتمع فيه الفضل والكتابة، فضيلة من منحها فضل، ومن حرمها نقص.

٢. إنّ الله تعالى جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حاكماً بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه، فلا بد أن يعلّمه الحُكم في ذلك، وقد ثبت أنّ أُمور الخلق قد يتعلّق أكثرها بالكتابة، فتثبت بها الحقوق، وتُبرأ بها الذمم، وتقوم بها البيّنات، وتُحفظ بها الديون، وتُحاط بها الأنساب، وأنّها فضل تشرّف المتحلّي به على العاطل منه، وإذا صحّ أنّ الله جلّ اسمه قد جعل نبيّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل، ثبت أنّه كان عالماً بالكتابة، محسناً لها.

٣. إنّ النبي لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمّنته الكتب من الحقوق وغير ذلك إلى بعض رعيّته، ولو جاز أن يُحوجَه الله في بعض ما كلّفه الحكم فيه إلى بعض رعيّته لجاز أن يُحوجه في جميع ما كلّفه الحكم فيه إلى سواه، وذلك مناف لصفاته ومضادّ لحكمة باعثه، فثبت أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)كان يحسن الكتابة.

٤. إنّ الله سبحانه يقول: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلال مُبِين) الجمعة : ٢.ومحال أن يعلّمهم الكتاب وهو لا يحسنه، كما يستحيل أن يعلّمهم الكتاب والحكمة وهو لا يعرفهما، ولا معنى لقول من قال: إنّ الكتاب هو القرآن خاصّة، إذ اللفظ عام والعموم لا يُنصرف عنه إلاّ بدليل، لا سيما على قول المعتزلة وأكثر أصحاب الحديث.

٥. يدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لأَرْتَابَ المُبْطِلُونَ) العنكبوت : ٤٨.فنفى عنه إحسان الكتابة وخطّه قبل النبوّة خاصّة، فأوجب إحسانه بذلك لها بعد النبوّة، ولولا أنّ ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يعقل، ولو كان حاله (صلى الله عليه وآله وسلم)في فقد العلم بالكتابة بعد النبوّة، كحاله قبلها لوجب إذا أراد نفي ذلك عنه أن ينفيه بلفظ يفيده، لا يتضمن خلافه، فيقول له: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذ ذاك ولا

في الحال، أو يقول: لست تحسن الكتابة ولا يتأتّى منك على كلّ حال، كما أنّه لما أعدمه قول الشعر ومنعه منه نفاه بلفظ يعمّ الأوقات، فقال الله تعالى: (وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه) يس : ٦٩. وإذا كان الأمر على ما بيّناه ثبت أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)كان يحسن الكتابة بعد أن نبّأه الله تعالى على ما وصفناه، وهذا مذهب جماعة من الإمامية ويخالف فيه باقيهم، وسائر أهل المذاهب والفِرَق يدفعونه وينكرونه أوائل المقالات:١١١ـ ١١٣، طبعة تبريز..

وفي ما ذكره رحمه الله مناقشات نشير إليها:

أوّلاً: أنّ الكتابة وإن كانت من الكمالات «ومَن منحها فضل ومَن حرمها نقص» غير أنّ ذلك يعدّ للعاديين الذين ينحصر طريق اكتسابهم للمعارف بها وحدها، وأمّا من لا يحتاج إليها بل له طريق آخر لدرك الحقائق واكتساب المعارف كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا يعدّ التمكّن من الكتابة والقراءة فضيلة له حتى يكون عدمهما نقصاً في حقّه، كيف؟ وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) قد عرف الواجب جلّ اسمه وصفاته وأفعاله، ووقف على حقائق الكون ودقائقه عن طريق الوحي الذي هو أوثق وأسدّ الطرق الممكنة، لا يخطأ ولا يشتبه، وعند ذاك لا حاجة له إلى هذه الطرق العادية غير المصونة عن الخطأ والاشتباه.

أضف إليه: لو فرضنا أنّ بقاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على ما كان عليه من الأُمّية كان يرفع الشكّ عن قلوب السذّج من الناس ويؤكّد إيمانهم وإذعانهم لنبوّته وبما جاء به من الشريعة والكتاب وجب على المولى سبحانه إبقاؤه على ما كان عليه من الصفات والنعوت،تحقيقاً للغاية المنشودة من بعثته، فإذا كان هذا هو الملاك في أُمّيته قبل بزوغ دعوته فليكن هو الملاك في بقائه عليها، فلا وجه لعدّ أحدهما نقصاً في حقّه (صلى الله عليه وآله وسلم)دون الآخر.

ثانياً: أنّ قوله: «إنّ الكتابة فضل تشرّف المتحلّي به على العاطل منه، وإذا صحّ أنّ الله قد جعل نبيّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل، ثبت أنّه كان عالماً بالكتابة محسناً لها» صحيح جدّاً، وقد فضّل الله سبحانه نبيّنا على جميع الأنبياء والرسل ومنحه من الفضائل ما لم يمنحه لغيره، غير أنّه لمّا كانت هناك مصلحة أولى وأهمّ كما صرّح الله بها سبحانه في كتابه، وهي نفي الريب عن القلوب الضعيفة، ما عرف(صلى الله عليه وآله وسلم) القراءة والكتابة طيلة عمره، ولا حضر مجالس الدرس، لتتحقّق هذه الغاية المهمة، وتركُ المهمّ توخّياً للأهمّ لا يعدّ نقصاً لو لم يعدّ كمالاً.

وإلى ذلك يشير الفاضل القونوي في تعليقه على «أنوار التنزيل» بقوله: ولذلك صارت الأُمّية شرفاً وفخراً في شأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفة نقص في حقّ غيره.

وبذلك نجيب عن ما أفاده رحمه الله:

«لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمّنته الكتب من الحقوق وغير ذلك إلى بعض رعيّته، ولو جاز أن يحوجه الله في بعض ما كلّفه الحكم فيه إلى بعض رعيته لجاز أن يحوجه في جميع ما كلّفه الحكم فيه إلى سواه وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمته» لأنّه إذا جاز احتياج النبي الأعظم في مورد خاص إلى بعض رعيّته توخياً لبعض المصالح المهمة، لا يستلزم جواز احتياجه في الموارد الخالية عنها، فإنّ الأوّل لا يعد نقصاً عند العقلاء، ولأجل ذلك يرجّحون الأهمّ على المهمّ عند التزاحم، بخلاف الثاني.

ثالثاً: أنّ قوله سبحانه: (وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ) لا يدلّ على ما رامه، أمّا إذا قلنا: إنّ المراد من الكتاب هو القرآن كما هو الظاهر المتبادر إلى الذهن فإنّ تلاوة الآية لا تفتقر إلى معرفة الكتابة إذا تلقّى التالي محفوظاته من وحي أو تلقين، ومن الناس مَن يتعلّم القرآن من الصدور لا من السطور، ويتلوه كما حفظ بدون توقّف على معرفة الخط، وأمّا إذا قلنا إنّ المقصود منه الكتابة ـ وإن كان بعيداً جدّاً ـ فليس معناه تعليم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لقومه الكتابة مباشرة، إذ لم يعهد ولم يُرَ بأسانيد صحيحة

أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)جلس مع أفراد أُمّته يعلّمهم نقوش الحروف الهجائية وتراكيبها الأبجدية قطعاً، وإنّما المراد أنّه قام بأمر تعليم الأُمّة مهمة الكتابة، فقد تواتر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)جعل فداء بعض أسرى بدر من الذين يعرفون الكتابة أن يعلّموا أهل مدينته الخط والكتابة قال الأُستاذ عمر أبو النصر في كتابه:العرب، ٢٣: وكان فداء الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة تلقين عشرة من صبيان المدينة الكتابة، وكذلك أصبح مقر الأسرى مدرسة يتعلّم فيها صبيان المدينة. فكان الأسير إذا علّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة أطلق النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) سراحه مكافأة لعمله، وبهذه الوسيلة البسيطة عمّم في أتباعه صناعة الخط وأخرجهم من ظلمة الأُمّية وأصبح مقرّ الأُسراء مدرسة يتعلّم فيها صبيان المدينة ما يحتاجون إليه من علوم ذلك العهد.

وأمّا ما تمسّك به من مفهوم الآية، وأنّ لفظة: (مِنْ قَبْلِهِ) يفهم منها أنّه كان قارئاً وكاتباً بعد الوحي إليه فيوافيك نقده في البحث التالي:

ثم إنّ للعلاّمة الحجّة هبة الدين الشهرستاني كلمة قيّمة في المقام نشرها في مجلة المرشد البغدادية(لسنتها الرابعة، ص ٣٢٧ـ ٣٢٨) وهي تجري مجرى الجواب عمّا ذكره الشيخ المفيد، فلاحظها نقلها عن المجلة المذكورة العلاّمة المتتبّع الجرندابي في تعاليقه على «أوائل المقالات»:١١٣ـ ١١٤..

٢. الاستدلال بمفهوم الآية

نقل شيخ الطائفة استدلال القوم على أُمّية النبي الأعظم بقوله سبحانه: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) العنكبوت : ٤٨ .ثم اعترض عليهم بما هذا ملخصه:

«إنّ الآية لا تدلّ على أنّ النبي كان أُمّياً، بل فيها أنّه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه كما لا يكتب من لا يحسنه...».

«ولو دلّت الآية على أنّه لم يكن يحسن الكتابة قبل الإيحاء إليه، لدلّت بالمفهوم على أنّه كان يحسنها بعد الإيحاء إليه، حتى يكون فرقاً بين الحالتين، ولا يكون الإتيان بالقيد ـ قبله ـ لغواً» التبيان:٨/٢١٦، ط لبنان. ويظهر من الآلوسي في تفسيره الاعتماد على هذا الوجه..

وفي ما أفاده مواقع للنظر:

وفي ما أفاده مواقع للنظر: أوّلاً: ثَمّة فرق واضح بين مَن يحسن الكتابة ويتركها، ومَن لا يحسنها أصلاً ، فإنّ من يحسن الكتابة لا يتركها دائماً، بل يتركها مؤقتاً بسبب ظروف تلم به، ولا يصح الاستدلال بتركه مؤقتاً على أنّه لا يحسنها ولا يستكشف حاله منه، وأمّا مَن لم يكتب منذ نعومة أظفاره إلى أن بلغ الأربعين بل ناهز الخمسين كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم)، فيعدّ ذلك دليلاً عند العُرف على أنّه لا يحسنها أصلاً وبتاتاً.

فالآية حسب ما يفهم منها عُرفاً، تدلّ على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)كان أُمّياً لا يقدر على الكتابة، وقوله سبحانه: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)بالنـظر إلى ذيله وهو رفع الشك عن قلوب المبطلين، كناية عن كونه(صلى الله عليه وآله وسلم)كان أُمّياً لا يحسن شيئاً من القراءة، لا أنّه كان عارفاً بها ولكنّه تركها لمصلحة أو غيرها.

وثانياً: أنّ استفادة المفهوم من الآية ودلالة القيد (مِنْ قَبْلِهِ) عليه مشكل جداً وإن قلنا بدلالته على المفهوم في مقام آخر، وذلك أنّ دلالة القيد عليه إنّما هي إذا كان بقاء الحكم وعدمه عند ارتفاع القيد سواء، فعند ذلك يُستدلّ بأخذ القيد في موضوع الحكم على دخوله في الغرض وفي الحكم المذكور في القضية، ويكون مرجعه إلى ارتفاع الحكم السابق بارتفاع القيد، كما إذا قيل: أكل زيد قبل طلوع الشمس، وأمّا إذا كان بقاء الحكم عند ارتفاع القيد أولى في نظر السامع كما في المقام فلا يستنبط منه المفهوم، فإنّ من بقي على أُمّيته حتى ناهز الأربعين بل الخمسين أولى بأن يبقى على تلك الحالة في ما بقي من عمره، فإنّ الرجل إذا

لم يتعلّم الكتابة حتّى العقد الخامس من عمره، يُستبعد منه عادة أن يُقبل على تعلّمها بعد هذه المراحل الطويلة، وعلى ذلك فلا يمكن الاستدلال على رفع الحكم المستفاد من قوله: (مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ) وقوله: (ولا تَخُطُّهُ)عند ارتفاع القيد، أي لا يدلّ على أنّه كان قارئاً وكاتباً بعد بعثته كما هو المقصود.

خلاصة القول: إنّ الآية غير دالّة على وضع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد بزوغ دعوته، ولا يدلّ على شيء من الطرفين والتمسّك بمفهوم القيد : (مِنْ قَبْلِهِ)إنّما يصحّ إذا سيق الكلام لأجل إفادته والإيماء إلى اختلاف حاله في المقامين، وأمّا إذا سيق الكلام لغير هذه الغاية فلا يدلّ على ما استظهره من المفهوم، فإنّ الغاية من الإتيان بالقيد هو الاستدلال بأُمّيته قبل نزول الوحي عليه، على صدق مقاله ودعوته، فإنّ الأُمّي إذا أتى بكتاب أخرسَ بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان بل أدهش بأحكامه وتشريعاته أساطين القانون والنظام، يعدّ كتابه هذا بهذه الأوصاف والنعوت آية على كونه وحياً إلهياً خارجاً عن طوق القدرة البشرية، وأمّا أنّه هل بقي على الأُمّية بعد ما صار نبيّاً يوحى إليه أو لا ؟ فخارج عن هدف هذه الآية، وليس له صلة بمرماها ومقصدها، وعلى ذلك نظائر في اللغة والعُرف.

ولقد أحسن الشريف المرتضى، فلم يجعل الآية دليلاً على تغيّر حاله بعد بعثته، وسلك مسلكاً متوسطاً غير ما سلكه أُستاذه الشيخ المفيد وما قصده تلميذه شيخ الطائفة الطوسي، ودونك نقل كلامه:

هذه الآية: (مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب) تدلّ على أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان يحسن الكتابة قبل النبوّة، فأمّا ما بعدها فالذي نعتقده في ذلك، التجويز لكونه عالماً بالقراءة والكتابة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع بأحد الأمرين، وظاهر الآية يقتضي أنّ النفي قد تعلق بما قبل النبوّة دون ما بعدها، ولأنّ التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوّة اختصاص التعليل بما قبل النبوّة غير ظاهر بل لو تظاهر النبي بالقراءة والكتابة بعد نبوته، فهو وإن كان يعدّ معجزة ومفخرة له عند من خلصت نيته، وطهر قلبه، لكنّه يوجب تسلل الشك إلى أُمّيته قبل نبوته عند المبطلين والمشككين فيضلّون ويضلّون، وينشرون الأوهام والأراجيف حول دعوته ورسالته. نعم لو كان عارفاً بها غير متظاهر لصحّ اختصاص التعليل بما قبل النبوّة. لأنّ المبطلين إنّما يرتابون في نبوّته لو كان يحسن الكتابة قبل النبوّة، فأمّا ما بعدها فلا تعلّق له بالريبة والتهمة، فيجوز أن يكون تعلّمها من جبرئيل بعد النبوّة. مجمع البيان:٨/٢٨٧؛ مناقب آل أبي طالب:١/١٦١.

وكلامه هذا يعرب عن توقّفه في المسألة كما هو صريح قوله: «من غير قطع بأحد الأمرين»، وما ذكره «ظاهر الآية يقتضي أنّ النفي قد تعلّق بما قبل النبوّة دون ما بعدها» صحيح لو أراد بذلك نفي دلالة الآية على أحد الأمرين، وأمّا لو أراد به دلالتها على كونه قارئاً وكاتباً بعد فموهون بما أوضحناه عند البحث عن كلام تلميذه الجليل شيخ الطائفة رحمه الله، مع أنّه بعيد عن ظاهر كلامه.

وأمّا ما أفاده بقوله: «إنّ المبطلين إنّما يرتابون في نبوّته لو كان يُحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا ما بعدها فلا تعلّق له بالريبة والتهمة» فغير ثابت ولاظاهر، بل يمكن أن يتطرّق الشكّ إلى نبوّته لو كان يحسنها بعد النبوّة إذا تظاهر بها على مرأى ومسمع من الناس، فلاحظ التعليقة السابقة.

٣. الاستدلال بقوله سبحانه: (يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً)

قال الدكتور عبد اللطيف الهندي، وهو يستند، في تأييد رأيه، إلى قوله سبحانه: (رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَة) البينة : ٢ـ٣، قال: «إنّه يدلّ على تحقّق التلاوة منه(صلى الله عليه وآله وسلم) أيام رسالته وفي رحاب دعوته».

وما ذكره غير تام فإنّ التلاوة كما تصدق على التلاوة عن كتاب، تصدق كذلك على التلاوة عن ظهر القلب، ويؤيّد المعنى الثاني أنّه لم يرو عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في أيام رسالته أنّه تلا القرآن عن غير ظهر قلبه. أضف إلى ذلك: أنّ المراد بالصحف ـ

كما يظهر ـ هو الصحف القدسيّة في العالم العلوي، وهي موجودة بأيدي الملائكة ومنها يتلقّى جبرئيل(عليه السلام) الوحي الذي أُمر بتبليغه، كما قال سبحانه:(فِي صُحُف مُكَرَّمَة * مَرْفُوعَة مُطَهَّرَة * بِأَيْدِي سَفَرَة * كِرَام بَرَرَة) عبس:١٣ـ ١٦، وعندئذ لا يبقى للمستدلّ ما يتشبّث به من المعنى الذي يرومه.

ونظير ذلك قوله سبحانه: (سَنُقْرِئُكَ فَلاتَنْسَى * إِلاّ مَا شَاءَ اللهِ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى) الأعلى: ٧ ـ ٨ . إذ معناه: سنقرأ عليك القرآن فلا تنساه، ونجعلك قارئاً بإذن منه فلا تنسى ما تتلقّاه من أمين الوحي إلاّ بمشيئة منه، فإنّ الإقراء والإنساء كليهما بيده سبحانه، فلا يدل إلاّ على تلاوة القرآن وقراءته عن ظهر قلب فقط، كما كان هو دأب النبي في تلاوة كلّ ما أُوحي إليه، وهو غير ما يرومه الدكتور وأمثاله.

قال الزمخشري: بشّر الله تعالى بإعطاء آية بيّنة، وهي أن يقرأ عليه جبرئيل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أُمّي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه.

وأمّا الاستثناء فلا يدلّ على تحقّق الإنساء منه سبحانه بالنسبة إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل هو للتنبيه على أنّ الأمر كلّه بيده، وإنّ منح كرامة الحفظ إليه (صلى الله عليه وآله وسلم)ليس بمعنى تفويض الأمر إليه وخروجه عن يد الله سبحانه، بل الأمر في كلا الحالين بيده، فالله الذي جعله قارئاً لا ينسى، قادر على أن يصيّره ناسياً لا يحفظ شيئاً، ولا يخطر على روعه شيء، فوزان الاستثناء في هذه الآية وزان الاستثناء في قوله سبحانه: (وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّماوَاتُ وَ الأَرْضُ إِلاّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ). هود: ١٠٨ .

فلا يدلّ على تحقّق المشيئة في المستقبل منه سبحانه حتى ينافي خلود المؤمنين في الجنة.

٤. الاستدلال بقوله سبحانه: (اكْتَتَبَهَا)

استدلّ بعض الأعلام على أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يكتب بقوله سبحانه: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) الفرقان : ٥ ، وإليك البيان: قال الزمخشري: اكتتبها: اكتتبها لنفسه وأخذها كما تقول: استكبّ الماء واصطبّه: إذا سكبه وصبّه لنفسه وأخذه تفسير الكشّاف:٢/٤٠٠.. وكأنّه يريد أن يفهم أنّ زيادة التاء في «اكتتبها» للدلالة على أنّ كتابته كانت لنفسه بخلاف اللفظ المجرّد عنها كقولنا: «كتب فلان» فإنّه أعمّ من أن يكون ذلك لنفسه أو لغيره.

وقال الشيخ الطوسي: اكتتبها هو وانتسخها فهي تُملى عليه حتى ينسخها. التبيان في تفسير القرآن:٧/٤٧٢.

ووجه الاستدلال، أنّ المشركين قالوا: إنّ القرآن أساطير كتبها محمد لا من تلقاء نفسه بل بالإملاء عليه من غيره، فقولهم: يكتب الأساطير بإملاء الغير عليه، صريح في أنّه بعد الإيحاء إليه كان كاتباً يكتب القرآن، وبما أنّ الكتابة صفة كمال لا ينسبها إليه خصومه كذباً وافتراء، فلا بدّ أن تكون ثابتة له في تلك الحال تفسير الآيات المتشابهات:٤٧ ـ ٤٨..

ولكن ما أقامه من الدليل موهون جدّاً، فإنّ الكتابة وإن كانت صفة كمال إلاّ أنّ شهادة الخصم إنّما تدلّ على اتّصافه بها إذا كانت الشهادة صادرة عن خلوص وصفاء، وأمّا إذا جعلها ذريعة لإنكار نبوّته، فلا يعدّ رميه بها دليلاً على صدق النسبة، فإنّ القوم لمّا عجزوا عن الطعن في قرآنه ولم يتمكّنوا من معارضته ومباراته دخلوا من باب آخر، حتى يفتحوا بذلك باب الريب على نبوّته وكتابه، وقالوا: إنّ ثمّة مَن يملي عليه القرآن بكرة وأصيلاً، وهو يكتب ما يُملى عليه، ولا هدف لهم من تلك الفرية إلاّ التشكيك في نبوّته ونزول الوحي عليه ولولا ذلك لما وصفوه بها ولا بغيرها من الصفات، فإنّ التوصيف، بأدنى مراتب الكمال، يخالف ما يرمون إليه من انتقاصه.

على أنّ هنا في لفظة «اكتتبها» احتمالاً آخر، وهو أنّه أمر بالكتابة والاستنساخ، احتمل ذلك الرازي، بل اختاره وقال:

معنى «اكتتب» هاهنا، أنّه أمر أن يكتب له، كما يقال: «احتجم» و «افتصد» إذا أمر بذلك تفسير الرازي:٦/٣٥٣..
إلى هنا تمّ ما وقفنا عليه من الأدلّة القرآنية التي أقامها القائلون بأنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان قارئاً وكاتباً بعد نزول الوحي عليه، وقد عرّفناك وهن الجميع، ووقفت على ما فيها من المناقشات.
نعم هناك وجوه عقلية واستحسانات، اعتمد عليها بعض من اختار هذا الرأي، ونحن نأتي بها.
٥. الاستدلال بالأولوية
استدل المجلسي بالأولويّة وقال: إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قادراً على التلاوة والكتابة بالإعجاز، وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الأوّلين والآخرين؟!إنّ هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف، ومَن كان قادراً بإذن الله على شقّ القمر وأكبر منه، كيف لا يقدر على نقش الحروف والكلمات على الصحائف والألواح؟ والله تعالى يعلم بحار الأنوار:١٦/١٣٦ .
وما ذكره لا يخرج عن حدود الاستحسان إذ من الممكن أن لا يمكّنه الله من القراءة والكتابة لمصلحة هو أعلم بها، أو لأجل رفع الريب والشكّ عن جانب نبوّته كما هو غير بعيد حتى بالنسبة إلى ما بعد النبوّة، إذا تظاهر بالقراءة والكتابة.
٦. التجارة تتوقّف على الكتابة
قال بعض من عاصرناه: «إنّ المشركين رموه بالكذب والسحر والجنون والفرية ولم ينسبوه إلى الأُمّية مع كونها صفة نقص لا سيما للتجار ذوي رحلة الشتاء والصيف، فإذا لم يعيبوه بالأُمّية كان ذلك دليلاً على أنّه كان بعد النبوّة قارئاً وكاتباً». (تفسير الآيات المتشابهات:٥٠)
ونحن نناقش ما أفاده بما يلي:
أوّلاً: أنّ سبب عدم رميه (صلى الله عليه وآله وسلم)بالأُمّية، هو لعدم كونها عيباً عندهم، كيف؟ والأُمّية كانت فاشية في القوم، وهي صفة سائدة في الغالبية العظمى منهم، فالرامي بها والمرميّ، كلاهما في هذا الوصف سواء.
ثانياً: أنّ التجارة وإن كانت تتوقّف على القراءة والكتابة في الأوساط المدنية غير أنّ الدارج في البيئات البعيدة عن الحضارات كان غير ذلك، خصوصاً قريش الذين كانت لهم رحلة الشتاء والصيف، فكانوا يبيعون أو يشترون، ويرجعون، من دون أن يبقى لهم أو عليهم شيء.
هذا ما لدى القائلين من الأدلّة على كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) قارئاً وكاتباً بعد بزوغ نبوّته، بقي هنا بعض ما وقفنا لهم في المقام من كلمات تؤكّد ما نقلناه عنهم.
قال الشيخ الطوسي: «إنّ الحاكم يجب أن يكون عالماً بالكتابة، والنبي عليه وآله السلام كان يحسن الكتابة بعد النبوّة وإنّما لم يحسنها قبل البعثة» المبسوط: ٨/١٢٠، كتاب القضاء..
وتبعه في هذا الرأي ابن إدريس الحلي في باب سماع البيّنات من كتاب القضاء، وجاء بعين ما نقلناه عن الشيخ السرائر:٢/١٦٦، باب سماع البيّنات وكيفية الحكم بها من كتاب القضاء..
واختاره العلاّمة الحلّي في كتاب النكاح من تذكرته عند البحث في مختصّات النبي الأكرم حيث قال: كان يحرم عليه الخط والشعر تأكيداً لحجّته وبياناً لمعجزته قال الله تعالى: (وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) وقال تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ). يس : ٦٩ .
وقد اختلف في أنّه هل كان يحسنها أو لا؟ وأصحّ قولَي الشافعي الثاني، وإنّما يتّجه التحريم على الأوّل أي على القول بأنّه كان يحسن الكتابة، إذ على فرض عدم عرفانه بها، فالتحريم يكون لغواً وتحصيلاً للحاصل.
غير أنّ دلالة الآية على حرمة الكتابة عليه، مبنيّة على كون «لا» في قوله: (وَلاَ تَخُطُّهُ)ناهية وهو خلاف الظاهر، خصوصاً

بملاحظة سياق الآية، أي قوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب) فإنّه جملة خبرية وهو يقتضي أن تكون الجملة التالية لها أيضاً خبرية لا إنشائية. تذكرة الفقهاء:٢/ ٥٦٦.

وقد اقتفى في ذلك قول الشيخ في مبسوطه حيث قال: «وقد خصّ الله نبيّه محمداً بأشياء وميّزه بها عن خلقه أربعة: واجب، ومحظور، ومباح، وكراهة ـ إلى أن قال: ـ وأمّا المحظورات فحظرت عليه الكتابة وقول الشعر وتعليم الشعر» راجع: المبسوط :١٥٢/٤ـ ١٥٣، أوائل كتاب النكاح..

أُمّية النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأحاديث

لقد بان الحقّ وظهرت الحقيقة من هذا البحث الضافي حول هذه الآيات، فلم نجد آية تدلّ على أنّه بعد بزوغ دعوته، صار قارئاً أو كاتباً.

نعم وردت أحاديث وروايات، رواها الفريقان، ربّما يركن إلى بعضها، ويُستدل به على تمكّنه من القراءة والكتابة بعد بعثته، بإعجاز منه سبحانه، وإن كان الكل لا يخلو من إشكال، ونحن نورد هنا تلكم الأحاديث:

١. حديث بدء الوحي

روى أصحاب السير والتفسير:

كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، حتى إذا كان الشهر الذي بعثه الله سبحانه فيه خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى حراء حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبرئيل بأمر الله، ولنترك وصف ذلك إلى ما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله:

«فجاءني جبرئيل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ ؟ قلت: ما أقرأ؟ فغَتَّني به كذا في جامع الأُصول والطبري، والغتّ: حبس النفس، وفي صحيح البخاري والمواهب «غطّني» وهي بمعنى الغتّ أيضاً.حتى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتَّني به حتى ظننت أنّه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ماذا أقرأ؟ فغتَّني به حتى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلاّ افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق* اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)قال: فقرأتها ثمّ انتهى، فانصرف، وهببت من نومي، فكأنّما كتبت في قلبي، قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا بجبرئيل في صورة رجل صفَّ قدميه في أُفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل».

ويظهر من البخاري من صحيحه أنّ جبرئيل نزل بسورة العلق حينما كان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)يقظاً لا نائماً، وأنّه تحمّل بدء الوحي في حال اليقظة حيث قال: فجاءه الملك فقال: اقرأ؟ قلت: ما أنا بقارئ وهذا شاهد على أنّ الملك لم يرد أن يلقّنه الآيات ليتابعه في القراءة فإنّ ذلك أمر مقدور للقارئ والأُمّي، ولو أراد هذا كان المناسب أن يقول ماذا أقرأ، بل أراد أن يقرئه النبي بنفسه بلا متابعة. قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ؟ قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ؟ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثمّ أرسلني فقال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق) .

كلمة حول سند الحديث

إنّ سند الحديث ينتهي إلى أشخاص ثلاثة يستبعد سماعهم الحديث عن نفس الرسول الأكرم، ودونك أسماءهم.

١. عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، أخرج الحديث عنه ابن هشام في سيرته: ج ١ ص ٢٣٥، والطبري في تفسيره: ج٣٠ ص ١٦٢، وفي

تاريخه: ج٢ ص ٣٠٠، وقد ترجم الرجل ابن الأثير في أُسد الغابة: ج٣ ص٣٥٣، وقال: ذكر البخاري أنّه رأى النبيّ، وذكر مسلم أنّه ولد على عهد النبي، وهو معدود في كبار التابعين يروي عن عمر وغيره من الصحابة. ٢. عبد الله بن شداد، أخرج الحديث عنه الطبري في تفسيره: ج٣٠ ص ١٦٢ وفي تاريخه: ج٢ ص٢٩٩. ترجمه ابن الأثير في أُسد الغابة: ج٤ ص١٨٣. وقال: ولد على عهد النبي، روى عن أبيه وعن عمر وعلي. وعلى ذين السندين فالحديث مرسل غير موصول السند إلى النبي الأكرم، إذ من البعيد أن يرويا الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)نفسه. ٣. عائشة أُمّ المؤمنين، أخرج البخاري عنها الحديث في صحيحه: ج١ ص٣ وج٣ ص١٧٣ في تفسير سورة العلق، والطبري في تفسيره: ج٣٠ ص ١٦١. وعلى ذلك فقد تفرّدت هي بنقل هذا الحديث، ومن البعيد جدّاً أن لا يحدّث النبي بهذا الحديث غيرها، مع اشتياق غيرها إلى سماع أمثال هذه الأحاديث عنه(صلى الله عليه وآله وسلم). وعند ذلك يشكل الاستدلال بالحديث جدّاً. نعم ورد مضمون الحديث في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري(عليه السلام) كما في البحار: ج ١٨ ص ٢٠٦، لكن كون التفسير مرويّ عن الإمام، فيه كلّ الشك والريب. ونقله من أعلام الطائفة ابن شهر آشوب في مناقبه: ج١ص٤٠ـ٤٤، والمجلسي في بحاره: ج ١٨ ص ١٩٦.
توضيح مفاد الرواية
إنّنا مهما جهلنا بشيء من الأشياء، فلا يمكن أن نجهل بأنّ النبوّة منصب إلهي لا يتحمّله إلاّ الأمثل فالأمثل من الناس، ولا يقوم بأعبائها إلاّ مَن عُمّر قلبه بالإيمان، وزوّد بالخلوص والصفاء، وغمره الطهر والقداسة، وأُعطي مقدرة روحية عظيمة لا يتهيّب معها حينما يتمثّل له رسول ربّه وأمين وحيه، ولا تأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه، وتلك المقدرة لا تفاض من الله على عبد إلاّ بعد إعدادات ومقدّمات، منها: ـ شموخ أصلاب آبائه وطهارة أرحام أُمّهاته، حتى ينتقل من صلب شامخ إلى صلب آخر مثله، ومن رَحِم طيبة إلى أُخرى مثلها. ـ البخوع للعبادة، والعكوف على المجاهدات النفسانية والرياضات التي لا تنازع الفطرة، بل تعدّل الميول والغرائز وتهديها سبيل الرشاد والسلام. ـ التفكير في آثار صنعه وعجائب خلقه وبدائع كونه بتعمّق وتدبّر، حتى يهديه التفكير في جمال الطبيعة إلى معرفة بارئها معرفة تامّة تليق بحال نبيّه. ـ أن يكون في رعاية أكبر ملك يهديه إلى طرق المكارم ومحاسن الأخلاق، كما أشار إليه مولانا أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة بقوله: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْم مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذ فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم)وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر» نهج البلاغة: الخطبة:١٩٢.. هذا البيان الضافي من أمير الإسلام والبيان(عليه السلام)يومئ إلى كثير ممّا ذكرناه من المقدّمات، ويرسم لنا صورة إجمالية عن حياة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) منذ نعومة أظفاره، ومنذ أن فطم من الرضاع، وقع تحت كفالة أكبر ملك يسلك به طريق المكارم، ويرشده إلى معالم الهداية ومدارج الكمال، ويصونه طيلة حياته من

طفولته إلى شبابه وإلى كهولته من كلّ سوء.

هذا البيان يفيدنا بأنّ نفس أي إنسان لا تستعدّ لقبول الوحي إلاّ بعد اقتحام عقبات وطيّ مراحل، وأنّ المَلَك الأكبر لم يزل يواصل نبيَّ الإسلام بالرعاية والتسديد ليله ونهاره حتى استعدّت نفسه لقبول الوحي، وتمثّل أمينه بين يديه، وإلقاء كلام ربّه إليه ووعيه له منه، بانطباعه في لوح نفسه، وإذا اقتحم تلك العقبات وتحقّقت تلكم المقدّمات والإعدادات وتمّ الاستعداد، ارتقت نفسه إلى ذلك الحدّ الأسمى فانحسرت عن قلبه الأغطية وارتفعت عنه الحجب، حيث أخذ يعاين الأشياء على ما هي عليه، ويقف على الحقائق على النحو الذي يليق به، ويقدر على تلاوة ما لم يكن قادراً عليه.

وقد تحقّقت تلك الغاية وبلغت نفسه الشريفة إلى ذلك الحدّ في الشهر الذي اختاره الله تعالى فيه رسولاً إلى الناس، فجاءه أمين الوحي بلوح برزخي يحتوي على آيات من القرآن الكريم فعرضه على النبي

وطلب منه أن يقرأه، فأبى وتجافى عن قراءته(كما ورد في الروايات المتقدّمة) قائلاً بأنّه أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وأنّه ماقرأ وما كتب طيلة عمره، فغطّه الأمين ثلاث مرّات فإذا به يقرأ.

ونحن لا نعلم كنه هذا الغطّ(المذكور في روايات السنّة) ولا نستطيع إدراكه، وليس هو إلاّ أثراً مادّياً لأمر معنوي كإماطة الستر عن روحه وقلبه، وهذا أمر طبيعي في مثل هذا الموقف العظيم الجليل الذي تنوء به أجسام وأرواح البشر، فإنّ لكل عمل روحي ولا سيما لمثل كشف الغطاء أثراً خاصّاً في أبداننا، والأثر البارز المادّي لكشف الغطاء عن قلب النبيّ ونفسه، هو الغطّ الذي أحسّه في ذلك الحين، وإلاّ فالغطّ المادّي لا مدخلية له في القدرة على القراءة والتلاوة.

هكذا كانت هذه اللحظة الحاسمة من حياته (صلى الله عليه وآله وسلم) منعطفاً رائعاً إلى مرحلة جديدة، فكشف عنه الغطاء آن الغط، فقدر على قراءة ما لم يقدر عليه فعرف الحروف والنقوش، بل الحقائق فصار أكمل إنسان يطأ الأرض بقدميه، ويعيش في أديمها ويتظلّل بسمائها.

وهذا البيان منضمّاً إلى ما سمعته من حديث بدء الوحي يدفعنا إلى القول بأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)قد انقلبت حاله بعد البعثة بإعجاز من الله سبحانه وإقدار منه تعالى.

إنّ ما ذكرنا مبنيّ على صحّة الحديث واتّصال سنده إلى النبيّ، ولكنّك عرفت أنّ الحديث مقطوع غير موصول بالنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو أنّه ممّا انفردت به عائشة، فلاحظ.

٢. حديث المطالبة بالقلم والدواة

أخرجه أصحاب الصحاح والسنن ونقله أهل السير والأخبار كافّة، ويكفيك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: لمّا حُضر رسول الله وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، فقال عمر: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبُنا كتابُ الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول قرّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قوموا، فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولَغَطهم صحيح البخاري:١٠/٤ برقم ٥٦٦٩، كتاب المرضى؛ صحيح مسلم:٨١١ برقم ٤١٢٥، كتاب الوصية؛ مسند أحمد:٣٢٥/١..

أخذ المستدلّ بظاهر الحديث وقال: النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)طلب أن يكتب كتاباً، وظاهره كون الكاتب نفسه لا غير، لكنّه نسي أو تناسى أنّ في الإسناد مجازاً وأنّه من باب: كتب الأمير، أو كتب الملك، وليس معناه أنّه كتب بنفسه، بل السيرة على أنّ

الملك أو الأمير يُمليان والكاتب يكتب وينفّذانه بخاتمهما، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يُملي والكاتب يكتب ولا يكتب بيده، وهكذا كانت سيرة الخلفاء من بعده، ما كانوا يكتبون إلاّ في مواقف خاصّة.

٣. قصة الحديبية

ملخّصها: لمّا اعتمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذي القعدة أبى أهل مكّة أن يدَعوه يدخل مكّة، وجرت مفاوضات بين الطرفين، انتهت بعقد وثيقة، فاستدعى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليّاً (عليه السلام)، وأمره أن يكتب، فلمّا قال له اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قالوا: لا نقرّ بهذا، لو نعلم أنّك رسول لله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله، فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثمّ قال لعلي (عليه السلام): امحُ رسول الله، قال عليّ: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)الكتابَ وليس يُحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لا يدخل مكة السلاح إلاّ السيف في القراب، الخ صحيح البخاري:٨٢/٣ برقم ٤٢٥١، كتاب المغازي؛ الكامل:١٣٨/٢؛ مسند أحمد:٢٩٨/٤ (ولفظه هكذا: فكتب مكان رسول الله، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ألاّ يدخل مكة السلاح إلاّ في القراب)..

وقد تمسّك بظاهر الرواية أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي(المتوفّى٤٧٤هـ) فادّعى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)كتب بيده بعد أن لم يكن يكتب، فشنّع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة، وأنّ الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم:

برئتُ ممّن شرى دنيا بآخرة *** وقال إنّ رسول الله قد كتبا

فجمعهم الأمير فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لأنّه قيّد النفي بما قبل ورود القرآن، فقال: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) وبعد أن تحققت أُمنيته وتقرّرت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أُخرى.

وذكر ابن دحية أنّ جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك منهم: شيخه أبو ذرّ الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وآخرون من علماء إفريقية وغيرها، واحتجّ بعضهم لذلك بما أخرجه ابن أبي شيبة وعمر بن شبّة من طريق مجاهد، عن عون بن عبد الله، قال: ما مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)حتى كتب وقرأ، قال مجاهد: فذكرته للشعبي فقال: صدق قد سمعت من يذكر ذلك فتح الباري:٥٠٣/٧ـ٥٠٤، وأضاف الباجي بأنّ في معرفة الكتاب بعد أُمّيته (صلى الله عليه وآله وسلم) معجزة أُخرى لكونها من غير تعليم، لاحظ مناهل العرفان:٣٥٨/١..

الجواب عن الاستدلال بالرواية

إنّ ما رواه البخاري وغيره ممّن جنح إليه على خلاف ما يرتئيه المستدلّ أدلّ، فإنّ قوله: «وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب» أصدق شاهد على أُمّيته.

أضف إلى ذلك: ما ورد في بعض الروايات من قول النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)لعليّ: «أرني إيّاها» أو قوله: «فضع يدي عليها» فهو شاهد صدق على بقائه على ما كان عليه من الأُمّية.

ولأعلام الحديث والتاريخ كلمات ضافية حول الرواية تميط الستر عن وجه الحقيقة، فلنأت بما وقفنا عليه.

١. قال ابن حجر: إنّ النكتة في قوله: «فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب» هو بيان قوله: «أرني إيّاها» فإنّه ما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع عليٌّ (عليه السلام) من محوها، إلاّ لكونه كان لا يحسن الكتابة.

وعلى أنّ قوله بعد ذلك «فكتب» فيه حذف تقديره: أي فمحاها فأعادها لعلي فكتب، وبهذا جزم ابن التين وأطلق «كتب» بمعنى أمر بالكتابة، وهو كثير كقوله: كتب إلى قيصر، وكتب إلى كسرى.

وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة، أن يصير عالماً بالكتابة ويخرج عن كونه أُمّياً، فإنّ كثيراً ممّن لا يحسن الكتابة، يعرف تصوير بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده وخصوصاً الأسماء ولا يخرج بذلك عن كونه أُمّياً، ككثير من الملوك.

ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسنها فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أُخرى في ذلك الوقت خاصّة، ولا يخرج بذلك عن كونه أُمّياً، وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني أحد أئمّة الأُصول من الأشاعرة وتبعه ابن الجوزي، وتعقّب ذلك السهيلي وغيره بأنّ هذا وإن كان ممكناً ويكون آية أُخرى، لكنّه يناقض كونه أُمّياً لا يكتب، وهي الآية التي قامت بها الحجّة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال المعاند: كان يحسن يكتب لكنّه كان يكتم ذلك. قال السهيلي: والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً، والحقّ أنّ معنى قولـه:(فكتب): أي أمر عليّاً أن يكتب فتح الباري :٣٨٧/٧. طبعة دار المعرفة، بيروت.

٢. قال الحلبي: تمسك بعضهم بـظاهر الحديث وقال: إنّ النبي كتب بيده يوم الحديبية معجزة له، مع أنّه لا يقرأ ولا يكتب، وجرى على ذلك أبو الوليد الباجي المالكي، فشنّع عليه علماء الأندلس في زمانه وقالوا: هذا مخالف للقرآن(إلى أن قال):

والجمهور على أنّ الروايات التي فيها «أنّه أخذ الكتاب بيده فكتب» محمول على المجاز أي أمر أن يكتب الكاتب السيرة الحلبية:٢٤/٣؛ وسيرة زيني دحلان في هامش السيرة:٢١٤/٢ ولكن اللفظ للأخير..

أقول: إنّ لفظة «بيده» ليست في نسخ صحيح البخاريّ، ونصّ على ذلك الحلبي أيضاً، وقوله: «ليس يحسن أن يكتب» الوارد في صحيحه وغيره من المصادر الأصلية راجع: الأموال:١٥٨. ونقله عنه المجلسي في بحار الأنوار:٣٧١/٢٠.دالّ على ما نرتئيه في هذا المقال.

نعم، رواه البخاري في كتاب الصلح بصورة أُخرى، قال: «فلمّا كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقالوا: لا نقرّ بها، فلو نعلم أنّك رسول الله ما منعناك إلى أن قال ـ : ثم قال لعلي: امحُ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاح إلاّ في القراب» صحيح البخاري:١٨٦/٢ برقم ٢٦٩٩، فحذف قوله:«وليس يحسن يكتب»..

***

هذا وقد رويت تلك الواقعة بصورتين أُخريين، رواهما أعلام السير والتاريخ.

الأُولى: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر عليّاً أن يمحو لفظ «رسول الله» فامتنع عليٌّ من محوه فقال رسول الله: أرنيه، فأراه علي، فمحاه بيده الشريفة، ثم أمر عليّاً أن يكتب، وإليك لفظ الرواية: أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)عليّاً أن يكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)سهيل بن عمرو، فقال: فعلى مَ نقاتل؟ اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فأمر بمحوها فعند ذلك كثر الضجيج واللغط وأشاروا إلى السيوف، فقال علي (عليه السلام)ما أنا بالذي أمحوه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):«ستدعى إلى هذا وأنت مضطهد مقهور»، هذا من أعلام النبوّة فلاق علي أمير المؤمنين يوم صفين عندما رضوا بالحكمين ما لاقاه رسول الله في هذا اليوم، روى أهل السير والتاريخ أنّ علياً أمر كاتبه أن يكتب: هذا ما اصطلح عليه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومعاوية بن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن أكتب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): صدق الله وصدق رسوله أخبرني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بذلك ثم كتب الكتاب. راجع السيرة الحلبية:٢٣/٣.إلى أن قال: وضجّ المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون لا نعطي هذه الدنية، وجعل رسول الله يخفضهم ويومي بيده إليهم أن اسكتوا، ثمّ قال: أرنيه، فأراه علي (عليه

السلام) فمحاه بيده الشريفة ثمّ أمر عليّاً أن يكتبه.

نعم، يظهر من البخاري أنّ النبي محاه من دون أن يريه علي (عليه السلام)وربّما يستدلّ به على تمكّنه من القراءة، فروى في كتاب الصلح: لمّا صالح رسول الله أهل الحديبية ـ إلى أن قال ـ فقال لعلي: امحُه، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله بيده، وصالحهم على أن يدخل ... صحيح البخاري:٢/١٨٦ برقم ٢٦٩٨، كتاب الصلح..

ويحتمل أنّه تركه للاختصار، اعتماداً على ما نقله في كتاب «الجزية والموادعة مع أهل الحرب» وقد نقل القصة فيه عن «البراء» هكذا ... فقالوا: لو علمنا أنّك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ـ إلى أن قال: ـ فقال لعلي: امح رسول الله ، فقال علي: لا أمحاه أبداً ، قال: فأرنيه؟ قال: فأراه إيّاه، فمحاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده صحيح البخاري:٤/١٠٤، كتاب الجزية..

ومع هذا التصريح لا يُعبأ بما نقله من دون هذه الزيادة.

وروى الشيخ الأكبر المفيد أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعلي: فضع يدي عليها، فمحاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بيده، وقال لأمير المؤمنين (عليه السلام)ستُدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض ثم تمّم أمير المؤمنين (عليه السلام) الكتاب السيرة الحلبية:٣/٢٤؛ وسيرة زيني دحلان:٢/٢١٢، والإرشاد:٦٠، واللفظ للأخير..

وفي «إعلام الورى»: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): امحها يا علي، فقال له: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة. قال: فضع يدي عليها فمحاها رسول الله بيده، وقال لعلي: ستُدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض إعلام الورى: ١٠٦..

روى أمين الإسلام الطبرسي القصة بطولها وقال: ثمّ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)امح رسول الله، فقال: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)فمحاه ،ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله مجمع البيان:٩/١١٨. وراجع تفسير القمي:٦٣٤..

وعلى هذه الصورة من الرواية: أنّ رسول الله نفسه محا لفظة رسول الله، لكن عليّاً كتب الكتاب بأمره دون رسول الله.

الثانية: وهي تشترك مع الأُولى في التصريح بأنّ الكتاب كتبه علي (عليه السلام)من بدئه إلى ختمه بأمر رسول الله وإملاء منه، وتفترق عنها بأنّه ليس فيها عن محو لفظة رسول الله عين ولا أثر.

خلاصتها: أنّه عندما أحسّ الهدوء وانخفضت الأصوات بإيماء منه (صلى الله عليه وآله وسلم)أمر رسول الله عليّاً أن يكتب: هذا ما صالح أو قاضى عليه محمد بن عبد الله ... فكتب على حسب ما أملاه عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإليك ما رواه الطبري في تاريخه:

قال سهيل: لو شهدت أنّك رسول الله لم أُقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب. تاريخ الطبري:٢/٢٨١.وقريب منه ما رواه البخاري نفسه في موضع آخر صحيح البخاري:٣/١٩٥، كتاب الصلح ،. واليعقوبي في تاريخه تاريخ اليعقوبي:٢/٤٥، والواقدي في مغازيه المغازي:٢/٦١٠، وابن هشام في سيرته السيرة النبوية:٢/٣١٧، وغيرهم من أساطين التاريخ والحديث راجع: صحيح مسلم:٥/١٧٤. ويقرب منه ما رواه الكليني في روضته حيث قال: قال رسول الله لعلي: اكتب: هذا ما قاضى رسول الله وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: فعلى مَ نقاتلك يا محمد؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فقال له الناس: أنت رسول الله، قال:اكتب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فقال له الناس: أنت رسول الله روضة الكافي: ٣٢٦..

فبعد هذا الاتّفاق والإصفاق من أعلام التاريخ والحديث والتفسير على أنّ الكتاب كتبه عليٌّ بإملاء من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من أوّله إلى آخره، فهل يصحّ الركون إلى ما تفرّد به البخاري وأحمد واعتمد عليهما الجزري في كامله، مع أنّ البخاري نقض ما نقله في باب «عمرة القضاء» في كتاب الصلح على ما عرّفناك.

على أنّ التضارب الصريح الذي نشاهده في نقل البخاري في المقام يمنع النفس من الركون إليه، فقد اضطرب نقله وكلامه من وجوه:

١. تراه أنّه نقل القصة في موضع هكذا: «أخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله» صحيح البخاري: ٣ / ٨٢ برقم ٤٢٥١.، وفي الوقت نفسه ساقها في موضع آخر من كتابه بنفس اللفظ السابق، ولكنه حذف قوله: «وليس يحسن يكتب» المصدر السابق:١٨٦/٢ برقم ٢٦٩٩..

٢. تراه أنّه يصرّح بأنّ النبي محا لقبه بإراءة علي (عليه السلام) حيث يقول: فقال لعلي: امحه، فقال علي(عليه السلام):لا أمحاه أبداً، قال: فأرنيه؟ قال: فأراه إيّاه فمحاه النبي بيده المصدر السابق:٣٢٦/٢ برقم ٣١٨٤، كتاب الجزية والموادعة..

ومع ذلك تراه ينقل إمحاء النبي، من دون أن يشير بأنّه كان بإراءة من علي حيث قال: « فقال لعلي: امح رسول الله، فقال: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله بيده» المصدر السابق:١٨٦/٢ برقم ٢٦٩٨..

٣. يظهر منه في موضع أنّ عليّاً هو الذي كتب اسم النبي بعد إمحائه ما أمحاه، حيث قال: «فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): والله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» راجع: المصدر السابق:٢٠٠/٢ برقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢..

. كتاب النبي إلى العذار

روى البخاري عن العذار بن خالد، قال: كتب لي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هذا ما اشترى محمد رسول الله من العذار بن خالد: بيع المسلم المسلم لا داء ولا خبيئة ولا غائلة صحيح البخاري:٧/٣..

ودلالته على أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، كتب الكتاب بنفسه ضعيفة، لا يمكن الركون إليه في هذه المسألة، إذ كثيراً ما يسند الفعل إلى الأُمراء والملوك، ويراد منه التسبيب لا المباشرة.

كما أنّ الاستدلال على بقاء النبي على ما كان عليه قبل الدعوة بقوله في الحديث المروي: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب، ليس بسديد إذ يكفي في صدق مضمونه كون أكثر من بعث إليه أُمّيون لا يكتبون ولا يحسنون الكتابة.

فذلكة البحث

ما سردناه لك من الأحاديث في هذه الصحائف، قد رواه الجمهور في صحاحهم، وقد وافاك عدم دلالة كثير منها على معرفته الكتابة بعد بعثته(صلى الله عليه وآله وسلم)، غير حديث بدء الوحي ولو صح سنده واعتمدنا على ما تفردت بنقله «عائشة» فإنّما يدل على أنّه سبحانه مكّن عبده من قراءة اللوح الذي كان بيد أمين الوحي، ولم يكن ذاك اللوح، لوحاً ماديّاً وصحيفة جسمانية بل كان لوحاً برزخياً، ومن قدر على قراءة نقوش ذاك اللوح وحروفه وجمله يقدر على قراءة ما كتب في الألواح والصحائف المادّية، ولكنّك قد وقفت على إرسال الرواية وأنّ الحديث غير موصول بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ من ناحيتها.

بقيت في المقام روايات ضعاف ومراسيل، نقلها بعض المتأخّرين، ولا يمكن الاستدلال بها في مثل هذه المسألة، وإليك ما نقلوه:

قال القاضي الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض: أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)كان لا يكتب ، ولكنّه أُوتي علم كلّ شيء حتى قد وردت آثار بمعرفته بالخط وحسن تصويرها، كقوله: لا تمدّوا بسم الله الرحمن الرحيم قال الملاّ علي القاري في شرحه: أي مدّ سينه من غير تبيّن، روى الدارمي عن زيد بن السن: إذا كتبت فبيّن السين. ؛ رواه ابن شعبان هو أبو إسحاق العصري المالكي له ترجمة في الميزان، مات سنة خمس وستين وثلاثمائة.من طريق ابن عباس. وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنّه كان يكتب بين يديه (صلى الله

عليه وآله وسلم) فقال له: ألق الدواة أمر من ألاق الدواة إذا جعل لها ليقة وأصلح لها مدادها، وحرّف القلم أي: اجعل شقّه الأيمن أزيد من الطرف الآخر قليلاً لأنّه أسرع في الكتابة وأبدع في اللطافة.وأقم الباء أي: طوّلها وفرّق السين أسنانها. إلى آخر ما نقله ... راجع: فتح الباري:٩/٤٤؛ شرح الشفاء:١/٧٢٦ ـ ٧٢٧.والمظنون أنّ الحديث من ولائد النزعات الباطلة تزلّفاً للأُمويين.

عرض وتحقيق

لا بأس بإكمال البحث بما وصل إلينا من الروايات من أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) مع ترجمة رجال إسنادها وتوضيح مضامينها على وجه الإجمال، وقد نقل المجلسي منها كثيراً في بحاره في الباب السادس من الجزء السادس عشر المخصّص لحياة نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم) بحار الأنوار:١٦/١٣١ ـ ١٣٥. .

١. أخرج الصدوق في «علل الشرائع» عن ابن الوليد، عن سعد المراد به سعد بن عبد الله، عن ابن عيسى (أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي)، عن الحسين بن سعيد ومحمد البرقي، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «كان النبي يقرأ الكتاب ولا يكتب».(علل الشرائع:١٢٦ برقم ٦.)

والحديث صحيح رجاله كلّهم ثقات بالاتّفاق، ولكنّه ظاهر، أو محمول على عهد الرسالة لما عرفت من تنصيص الكتاب العزيز على كونه أُمّياً قبل البعثة.

٢. أخرج الصدوق في علله عن أبيه عن سعد قد أوضحنا المراد منه ومن بعده في الحديث المتقدّم، عن ابن عيسى، عن البزنطي، عن أبان بن عثمان، عن الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام)يقول: «كان ممّا منّ الله على نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان أُمّياً لا يكتب ويقرأ الكتاب». علل الشرائع:١٢٦برقم ٧؛ ومعاني الأخبار:٢٠.

والسند صحيح إلى البزنطي، نعم اختلفت كلماتهم في أبان ورَمَوْه بالناووسية والنسبة غير محقّقة، والرجل من أصحاب الإجماع، والحسن الصيقل مهمل في كتب الرجال لم يوصف بالوثاقة ولم يرد فيه طعن، والحديث وإن لم يكن صحيحاً لكنّه يمكن أن يكون شاهداً للحديث المتقدّم لخصوصية نقل «أبان» الذي هو أحد أصحاب الإجماع عنه، والحديث نظير ما تقدّم عليه في الحمل والظهور، بل أظهر من سابقه في كونه راجعاً إلى أيام نبوّته وعهد رسالته(صلى الله عليه وآله وسلم)بقرينة قوله: «كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ به على نبيّه».

٣. أخرج الصدوق في «علل الشرائع» عن أبيه، عن سعد، عن معاوية بن حكيم، عن البزنطي، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلمّا توجّه أبو سفيان إلى «أُحد» كتب العباس إلى النبيّ فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه، ولم يخبر أصحابه وأمرهم أن يدخلوا المدينة، فلمّا دخلوا المدينة أخبرهم». علل الشرائع:١٢٥ـ ١٢٦ برقم ٥.

والخبر صحيح إلى البزنطي وهو من أصحاب الإجماع ورجاله كلّهم ثقات، غير أنّ في آخره إجمالاً وإهمالاً، يلحقه بالمراسيل. نعم لا بأس بمضمونه فهو يؤيّد ما قدّمناه من الخبر الصحيح، وأنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ أحياناً في عهد الرسالة لكن نقله زيني دحلان في سيرته بصورة أُخرى وإليك نصّه: كتب العباس للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وأخبره بجمعهم وخروجهم وراودوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشيء من المال، فجاء كتابه للنبي وهو بقبا وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بني غفار استأجره وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك، فلمّا جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لأُبيّ بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أُبيّاً، ثم نزل (صلى الله عليه وآله وسلم)على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس سيرة زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية:٢/٢٤.. وأنت ترى أنّ الذي قرأ الكتاب أُبَيّ، وليس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

٤. أخرج الشيخ الأقدم محمد بن الحسن الصفّار عن الحسن بن علي، عن أحمد بن هلال، عن خلف بن حماد، عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام):إنّ النبي قد كان يقرأ ويكتب ويقرأ ما لم يكتب. بصائر الدرجات:٤٤٢/١ برقم ٨٣٢. ويكفي في ضعف الحديث أنّه مروي عن أحمد بن هلال الذي خرج التوقيع من الناحية المقدّسة في لعنه، ونقل الصدوق عن شيخه ابن الوليد عن سعد أنّه قال: ما سمعنا ورأينا بمتشيّع رجع عن تشيّعه إلى النصب إلاّ أحمد بن هلال.

أضف إليه: أنّه مخالف لما قدمناه آنفاً من أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)كان يقرأ ولا يكتب راجع الحديث الأوّل والثاني..

فاتّضح أنّ ما يصحّ من هذه المأثورات إنّما هو الحديث الأوّل، ويؤيّده الثاني والثالث وهي بمجموعها تشير إلى أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كان يقرأ ولا يكتب أيام رسالته ورحاب دعوته، ولا ضير في الالتزام به ـ ولكن لا على سبيل الجزم ـ خصوصاً إذا كان غير متظاهر بالقراءة، مكتفياً بقدر الضرورة، ويؤيّدها حديث بدء الرسالة.

٥. أخرج الكليني بإسناده عن الحسن بن العباس الحريش، عن أبي جعفر الثاني(عليه السلام)، عن أبي عبد الله قال:

«كان علي (عليه السلام) كثيراً ما يقول: ما اجتمع التيمي والعدوي عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يقرأ: (إنّا أنزلناه) بتخشّع وبكاء فيقولان: ما أشد رقّتك لهذه السورة؟ فيقول رسول الله: لما رأت عيني ووعى قلبي، ولما يرى قلب هذا من بعدي، فيقولان: وما الذي رأيت وما الذي يرى؟ قال: فيكتب لهما في التراب: (تَنَزَّلُ الملائِكَةُ وَ الروحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْر) قال: ثمّ يقول: هل بقي شيء بعد قوله عزّ وجلّ : (كلّ أمر)فيقولان: لا، فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول الله، فيقول: نعم، فيقول: هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول:فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندري، فيأخذ برأسي ويقول: إن لم تدريا فادريا هو هذا من بعدي، قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من شدة ما يداخلهما من الرعب» الكافي:٢٤٩/١، الحديث٥، كتاب الحجة باب «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» وتفسيرها، طبع مكتبة الصدوق..

وجه الدلالة: أنّ قوله (عليه السلام): «فيكتب لهما في التراب» بصيغة المعلوم دال على أنّ النبي كان يكتب هذه الآيات في التراب.

ويؤسفنا أنّ الحديث ضعيف للغاية، لأجل الحسن بن العباس بن الحريش، قال النجاشي: «روى عن أبي جعفر الثاني ضعيف جداً له كتاب «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» وهو كتاب رديء الحديث، مضطرب الألفاظ رجال النجاشي:٦٠ برقم ١٣٨، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي..

وقال الغضائري: ضعيف جداً يروي عن أبي جعفر الثاني فضل «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» وله كتاب مصنّف فاسد الألفاظ، تشهد مخائله على أنّه موضوع، وهذا الرجل لا يلتفت إليه ولا يكتب من حديثه.

قال المحقّق التستري:إن أردت أن تقف على صحّة ما قاله النجاشي والغضائري في حقّ الرجل فراجع باب «فضل إنّا أنزلناه» من «الكافي» تجد صحّة كلامهما فترى أنّه روى في ذاك الباب تسعة أخبار بسند واحد كلّها عن الحسن بن عباس بن الحريش عن الجواد (عليه السلام)، فلفظها فاسد ومعناها كاسد، وهكذا راجع تفسير القميّ في أوّل سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

قاموس الرجال:١٨٢/٣ ـ ١٨٣. وراجع تنقيح المقال:٢٨٦/١.

ثم نقل بعض أحاديثه، ونقده نقداً نزيهاً.

حصيلة الكلام في أُمّية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

قد أصبحت أُمّية النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل أن يختاره الله لإبلاغ رسالته أمراً واضحاً كوضوح شمس الضحى، لا يشكّ فيها ذو مسكة ومَن له أدنى إلمام بتاريخ الجزيرة وحياة الأُمّة العربية، وأمّا الكلام حولها بعد البعثة فالإمعان في ما نقلناه من حديث بدء الرسالة والخبرين المرويّين عن الإمام الصادق (عليه السلام)يعطي أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلو جاز الركون في

مثل المقام إلى هذه النقول المروية بصورة الآحاد من الأخبار، فنحكم بمفادها، وإلاّ فالحكم ببقائه على ما كان عليه من الأُمّية قبل البعثة أوثق وأسدّ، ويؤيّد الأخير ما نقلناه في قصة الحديبية في بعض صورها التي عرّفناك إيّاها، والتعليل الوارد في الآية الكريمة، أعني قوله سبحانه: (إذاً لارتاب المبطلون)خصوصاً لو كان مراد القائل تظاهره (صلى الله عليه وآله وسلم)بصناعة القراءة والكتابة على أظهر الناس، ورؤوس الأشهاد، فإنّه يجرّ الشك إلى ما قبل الرسالة كما لايخفى.

نحن وقساوسة الغرب والمستغربة:

بالرغم من شهادة تاريخ الحجاز في الدور الجاهلي، ومحيطه البدوي على أُمّية النبي وعشيرته وأقربائه، نجد مغالطات وتشكيكات أثارتها قساوسة الغرب حول أُمّيته(صلى الله عليه وآله وسلم) وتبعهم بعض المستغربة في الشرق، الذين يتطفّلون على موائد الغربيين في كلّ شيء، حتى فيما يرجع إلى الإسلام والمسلمين، والشرق والشرقي، غير واقفين على نواياهم وما تكنّه صدورهم وضمائرهم، من القضاء على الإسلام والمسلمين، والحقد والعداء للنبي الأعظم ورسالته، وما يستهدفونه من بثّ هذه التشكيكات والمغالطات، التي لها طابع التحقيق، حول الرسول الأكرم وأُمّيته.

وفي الوقت نفسه، لا مصدر لهم في إنكار أُمّيته إلاّ مراسيل عن مجاهيل ، أو انتحالات أعداء الدين، نظراء ابن أبي العوجاء و ... كلّ ذلك لبثّ الريب في قلوب البسطاء من المسلمين بالنسبة إلى رسالته، ودينه، وكتابه، حتى يتّخذوا ذلك ذريعة لإنكار رسالته الإلهية واتّصاله بالعوالم الروحية حتى يصوّروا لهم، أنّ النبي كان قارئاً وكاتباً وأنّ ما جاء به من المعارف والأحكام هي إنتاج عبقريته الفذة وشخصيته اللامعة، وسبره في الكتب وغوره فيها، شأن كلّ باحث متتبّع.

غير أنّ جهلهم أو تجاهلهم الحقيقة ودعاياتهم الواسعة لا يؤثّر شيئاً في قلوب المثقفين الواعين من الأُمّة، كيف وقد تسالمت عليها الأُمّة منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة، ولم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، حتى جعل صاحب المنار وغيره «أُمّية» النبي أحد وجوه إعجاز القرآن وقال: إنّ الضمير في قوله سبحانه: (فَأْتُوا بِسُورَة مِنْ مِثْلِهِ) يعود إلى المبلِّغ ـ بكسر اللام ـ أي الرسول نفسه لا إلى القرآن، وقال في تفسير الآية: «فإن خفي عليكم الحقّ بذاته فهذه آية من أظهر آياته، وهي عجزكم عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، من رجل أُمّي مثل الذي جاءكم به، وهو عبدنا ورسولنا محمد وإن عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله، تساوي سورة في هدايتها وتُضارعها في أُسلوبها وبلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة وعصركم أرقى عصور الفصاحة فاعلموا ما جاء به، بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلاّ بوحي إلهي وإمداد سماوي» المنار:١/١٩١..

وما ذكره من رجوع الضمير إلى النبي وإن كان خلاف ظاهر الآية، خصوصاً في قوله سبحانه: (قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيراً) الإسراء : ٨٨ ، وفي قوله سبحانه: (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَر مِثْلِهِ مُفْتَرَيَات) هود : ١٣. إلاّ أنّه أحد وجوه إعجازه.

قال العلاّمة السيد هبة الدين الشهرستاني أحد العلماء الكبار في العراق، له آثار قيّمة. توفّي (رحمه الله) سنة ١٣٨٦ هـ .: «إنّ من وجوه إعجاز القرآن والإعجاب به صدوره من مثل محمد الأُمّي ربيب البادية، البعيد عن حضائر الفنون، البعيد عن حواضر الحكماء ومحاضر العلماء ـ إلى أن أوضح مقاله بمثال ـ وقال: الشعب الواثق بأنّ سفيره لا يقرأ ولا يكتب ولا يخون، ولا يكذب ولم يعهد منه الشعر ففي وضع راهن كهذا لو يفاجئهم سفيرهم بكتاب فذّ في الكتابة والإنشاء والإملاء ... وادعى أنّه مرسل به من ناحية السلطان ... فإنّ الشعب ضروري إيمانه وإذعانه له، وعدم اتّهامه بأنّه المباشر لهذه الفرية».

***

تمّت الرسالة بعون الله تعالى و تبارك

سنة ١٣٩٣ ه

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا
بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)
وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ
فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ
فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ
الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً
إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا
كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة بسورة «الروم» لورود هذا اللفظ في الآية الثانية منها، ولم تسمّ باسم آخر.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها في عدّ المدني والمكّي تسع وخمسون آية، وفي عدّ الآخرين ستّون آية. وهي مكّية بشهادة مضامينها، مضافاً إلى اتّفاق المفسّرين على ذلك.

أغراض السورة

من أغراض السورة تقوية قلوب المؤمنين الّذين كانوا يتعرّضون للمحن الشداد في مكّة، وإشعارهم بأنّ الإرادة الإلهية هي الّتي تقف وراء ما يجري في ساحة الحياة من قضايا وأحداث، وذكر لذلك مثالاً من الواقع، وهو هزيمة الروم في المعركة الّتي دارت بينهم وبين الفرس، وأنّ هذه الهزيمة سيعقبها الظّفر، وسيكون الغالب مغلوباً والمغلوب غالباً، بعد بضع سنين، فليثق المؤمنون بربّهم، وليستعينوا به في مواجهة المشركين المغترّين بقوّتهم، ولا يعيشوا القلق والاضطراب على مصيرهم، فإنّه نعم المولى ونعم النصير.

ومن تلك الأغراض التركيز على التوحيد الفطري بعد بيان دلائله في الآفاق والأنفس، والآية المتضمّنة لذلك من أغزر الآيات.

مضافاً إلى هذين الغرضين المهمّين، جاء في ثنايا الآيات ذكر دلائل توحيده ولزوم البعث والتركيز على الحياة الأُخروية.

سورة الروم: الآيات ١ ـ ٧ (الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ ...هُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ).

الآيات: السبع الأُولى

(الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ).

المفردات

غُلبت:الغَلَبَة: القهر.

أدنى: أُريد هنا الأقرب، ويقابله الأقصى قال سبحانه: (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) الأنفال:٤٢.والدُّنيا مؤنث الأدنى.

بِضع: البضع: القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، ومنه البضاعة أي القطعة من المال تدور في التجارة.

التفسير

١.(الم):

من الحروف المقطّعة، وقد اختلفت كلمة المفسّرين في تفسير هذه الحروف، وسيوافيك توضيحها في صدر تفسير سورة الأحقاف، فانتظر.

ثمّ إنّ هذه السورة من إحدى السور الأربع التي صُدِّرت بحروف التهجّي، ولم يُذكر بعدها ما يشير إلى الكتاب والقرآن، خلافاً لسائر السور التي جاء بعدها ذكر القرآن الكريم بنحو من الأنحاء.

٢و٣.(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ):

الروم: هم سكان الامبراطورية البيزنطية نسبة إلى بيزانتيوم (بيزنطة)، الاسم الإغريقي لمدينة تقع على مضيق البوسفور (وهي مدينة اسطنبول الحالية في تركيا). وكان الملك الروماني قسطنطين الكبير قد نقل في سنة (٣٣٠ م) عاصمة امبراطوريته من روما إلى (بيزنطة)، الّتي أُطلق عليها اسم (القسطنطينية) بعد موت قسطنطين. وكان قسطنطين هذا قد تنصّر وشجّع رعاياه على التنصّر، وأصبحت النصرانية في عهد ثيودوسيوس الأوّل الّذي اعتلى العرش في سنة ٣٧٩ م الديانة الرسمية للدولة . الّتي تُعدّ استمراراً للامبراطورية الرومانية، وعُرفت أيضاً باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية انقسمت الامبراطورية الرومانية في سنة (٣٩٥ م) إلى امبراطوريتين: الشرقية (البيزنطية)، والغربية. ويؤرَّخ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية غالباً بسنة (٤٧٦ م)، أمّا الامبراطورية الشرقية فظلّت قائمة إلى أن استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينيّة في سنة (١٤٥٣ م) .، لأنّها حكمت ما يشكّل القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، وهي تشتمل على أجزاء من جنوبي أوربا وشرقيّها، وإفريقيا الشمالية، والشرق الأوسط. الموسوعة العربية العالمية: ٢ / ٦٨٤ .

وكانت النصرانية قد ازدهرت في الامبراطورية البيزنطية في عهد جستنيان الأوّل، الّذي حكم البلاد من سنة ٥٢٧ م حتّى وفاته في سنة ٥٦٥ م (أي قبل مولد النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بنحو خمس سنوات).

يذكر أنّ هذا الامبراطور حاول توحيد امبراطوريته تحت معتقد نصراني واحد، فضيّق الخناق على الوثنيين وعلى المهرطقين النصارى، وقام في عام ٥٢٩ م بإغلاق مدارس الفلسفة في أثينا باليونان، لأنّه أحسّ أنّها كانت تدرّس الوثنية. الموسوعة العربية العالمية: ٨ / ٣٧٠ .

وكانت دولتا الروم (الامبراطورية البيزنطية) والفُرس تشكّلان ـ في عصر النبوّة وما قبلها ـ القوّتين العظميَين في الأرض، وكانتا

تتنازعان على السيادة على بلاد الشام وغيرها، ولأجل ذلك دارت بينهما حروب كثيرة، منها الحرب الّتي وقعت في عهد كسرى أبرويز بُعث النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بعد مُضيّ ست عشرة سنة من مُلك كسرى أبرويز. الأخبار الطوال: ٧٤ . (ملك الفرس)، حيث عيّن ثلاثة قوّاد، لمهاجمة دولة الروم، منهم القائد (شهريار) الّذي سار نحو الشام، فقتل أهلها قتلاً ذريعاً، حتّى أخذها كلّها عنوة. الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري: ١٠٦ .

وبعد بضع سنوات تمكّن هِرَقْل (ملك الروم) من هزيمة الفرس، بالرغم من الضعف الّذي كان قد حلّ بالامبراطورية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديّين بسبب الغارات الّتي شُنّت عليها من مختلف الأقوام .

قال أبو حنيفة الدينوري (المتوفّى ٢٨٢ هـ): إنّ عساكر الفرس وافت كلّها الجزيرة، وسار هِرَقل نحوهم، فواقَعهم، فهزمهم حتّى بلغ بهم الموصل، وبلغ ذلك كسرى، فخرج في جنوده نحو الموصل، وانضم إليه قوّاده الثلاثة، وسار نحو هرقل، فاقتتلوا، فانهزم الفرس. الأخبار الطوال: ١٠٧ .

وهذه الغلبة هي الّتي أشارت إليها الآيات التالية، والّتي تعتبر إخباراً بحدث غيبيّ مستقبليّ مهمّ، وقد وقع كما أخبر عنه القرآن الكريم، وذلك من أجلى الدلائل على صدق الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)فيما جاء به من الوحي.

بعد هذه المقدمة التاريخية نعود إلى تفسير فقرات الآية.

قوله تعالى: (غُلِبَتِ الرُّومُ): أي هُزمت (فِي أَدْنَى الأَرْضِ): أي في أقرب أرض الروم إلى بلاد العرب، لكن تنبّأ القرآن بقوله: (وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) الضمائر الثلاثة ترجع إلى الروم. و«غلب» مصدر أُضيف إلى المفعول بمعنى مغلوبيتهم.

ففي الآية الكريمة بشارة من الله للمسلمين بأنّ هزيمة الروم هذه سيعقبها الظَّفر في بضع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وعشر، ولم يك مظنوناً وقت هذه البشارة، أن يُغلب الرومُ الفُرسَ في مثل هذه المدّة الوجيزة، بل كانت المقدّمات والأسباب تشير إلى العكس من ذلك؛ لأنّ الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غُزيت في عُقر دارها.

٤. (فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ):

إنّ دولة الفرس كانت قوية وزادها الظفر الأخير قوّة ومنعة، ولكنّ الله تعالى أنجز وعده وتحقّقت نبوءة القرآن . والفاصل الزماني بين الهزيمة والانتصار ثمان أو تسع سنين، ولذلك يقول سبحانه:(فِي بِضْعِ سِنِينَ): أي ما بين الثلاثة والعشرة.

ثمّ إنّه يشير إلى أنّ الأمر قبل غلبة الفرس على الروم وبعد غلبة الروم عليهم كلّه بيد الله سبحانه كما يقول: (لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ)الغلبة (وَ مِنْ بَعْدُ): المغلوبية، فهو ينصر من يشاء ويخذل من يشاء، ولكن ليس نصره وخذلانه أمراً فوضوياً بل كلّ من هزيمة الروم في الحرب الأُولى وغلَبتهم في الحرب الثانية كان بملاك خاص. فلكلّ حادث ماديّ سبب خاص، فالعاقل يحلّل كلّ حادث بأسبابه ولا يحمله على عاتق التقدير دون أن يكون بين التقدير والحادثة سبب من جنس المسبب، فالله سبحانه هو المقدّر لكنّ تقديره نتيجة العلل التي تسبّب النصر أو الهزيمة. فعلى محقّق التاريخ، أن يحلّل السبب الذي أدّى إلى الانتصار أوّلاً، والهزيمة ثانياً، وليس تقديره سبحانه لكلا الأمرين خارجاً عن علل الانتصار والهزيمة في كلّ واقعة.

ثمّ إنّه سبحانه يخبر ويقول:(وَيَوْمَئِذ): أي ويوم يغلب الروم(يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)، وتمتلئ قلوبهم سروراً.

إنّما الكلام في علّة فرح المؤمنين بغَلَبة الروم؟ وهذا ما تشير إليه الآية التالية:

٥.(بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

ظاهر الآية يشير إلى أنّ فرح المؤمنين (بِـ)سبب (نَصْرِ اللهِ) الروم . ووجه الفرح أنّ انتصار الروم سيكون مظهراً لانتصار دولة تؤمن برسالة سماوية على دولة وثنية، الأمر الّذي يفتح باب الأمل في وجه المؤمنين بالانتصار على المشركين عبَدَة الأوثان

والأصنام، ويعزّز ثقتهم بالله وأنّه هو من وراء كلّ شيء .

ثمّ إنّه سبحانه يذكر ضابطة كلّية وهو أنّ النصر بيد الله :(يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ) ولكن ليس نصره بلا سبب وبلا ملاك، بل بالأخذ بأسبابه كما مرّ.

ثمّ ختم الآية بوصفين:(وَ هُوَ الْعَزِيزُ): أي الغالب الذي لا يُغلب وفي الوقت نفسه (الرَّحِيمُ)، فالجمع بين العزّة والرحمة نوع كمال، فالعزّة المطلقة بلا رحمة آية الكِبْر والتعسّف والشقاء، كما أنّ الرحمة بلا قدرة آية الضعف، فالله سبحانه عزيز في عين الرحمة، ورحيم في عين العزّة.

هذا المعنى هو ما يوحي به ظاهر الآية، أعني: أنّ فرح المؤمنين يومذاك كان لأجل انتصار مَن يمثّل الديانة الإلهية على الّذي يمثل الوثنية؛ ولكنْ لبعض المفسّرين رأي آخر وهو: أنّ انتصار المؤمنين على المشركين في غزوة بدر وافق ظفر الروم على الفرس، فقوله:(يَوْمَئِذ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)حامل تنبّؤاً آخر، وهو أنّ المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في ذلك الوقت الذي يغلب فيه الروم الفُرس، وقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، وهكذا تحقّقت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطّع الأسباب في انتصار الروم، كما علمت، ومع تقطّع الأسباب أيضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة، لأنّهم كانوا أيامئذ في مكّة في قلّة وذلّة يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمّة، ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نزلت الآيات كما ترى تؤكّد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بهما عن التكهّنات والتخرّصات. انظر: مناهل العرفان:٢/٢٦٦.

لا شكّ أنّ المؤمنين سيفرحون بانتصار الروم على الفرس، لكنّ السبب هو ما يشيعه هذا الانتصار في نفوس المؤمنين من تفاؤل بالنصر، لكونه من مقولة انتصار دولة تدين بديانة سماوية على دولة وثنية، لا لأجل انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى.

نعم الآية محتملة لكلّ من الوجهين وإن أصرّ الكاتب على استفادة المعنى الأوّل منها.

٦. (وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ):

الوعد في قوله: (وَعْدَ اللهِ)مصدر أُضيف إلى الفاعل ونُصِبَ لكونه مفعولاً مطلقاً، والتقدير: وعَد الله ذلك وعداً. والمراد بالوعد ما ذكره سبحانه في الآية السابقة من أنّ الروم سيغلبون الفُرس فيما بعد. وبما أنّه قادر وحكيم فـ (لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ) وإنّما يُخلف وعده مَن يُخلف، اضطراراً إليه، أو جهلاً بقبحه، والله سبحانه منزّه عنهما، ومع ذلك (وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) أنّ الله سبحانه لا يُخلف وعده، لجهلهم بصفاته سبحانه وبما يجوز عليه وما لا يجوز، ويتصوّرون أنّه سبحانه كالملوك والرؤساء يعِدون ولا يوفون.

٧. (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ):

قوله:(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) هو بدل من قوله: (لاَ يَعْلَمُونَ)والغرض منه إثبات أنّ علمهم وجهلهم سواء؛ لأنّ علمهم بظاهر الحياة الدنيا والغفلة عن باطن هذه الحياة يساوق الجهل بالأُمور الغيبية؛ قال الزمخشري: وفي هذا الإبدال من النكتة أنّه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه، ليعلمك أنّه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل (الذي ورد في الآية السابقة) وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز العلم بظاهر الدنيا (كما في هذه الآية). تفسير الكشّاف:٣/٢١٥.

وبذلك ظهرت صلة الآية بما قبلها، فالله سبحانه في هذه الآية وما قبلها بصدد التركيز على جهلهم بالله سبحانه وصفاته وأفعاله وإنّما يقتصر علمهم بظاهر الحياة الدنيا من أسباب ومسبّبات سائدة فيها، ولأجل هذا القصور في العلم يصفهم سبحانه

بقوله: (وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ). وقد أتى بلفظة (هُمْ) مكررة لغاية التخصيص، وأنّ المشركين هم الغافلون دون المؤمنين.

ونعمَ قول الشاعر:

نظرتُ إلى الدنيا بعين مريضة *** وفكرة مغرور، وتدبير جاهلِ

فقلتُ: هي الدار الّتي ليس غيرُها *** ونافستُ منها في غرور وباطلِ

وضيّعتُ أهوالاً أمامي طويلةً *** بلذّة أيام قصار قلائلِ[١]

[١] ديوان أبي العتاهية: ٣١١ .

سورة الروم: الآيات ٨ ـ ١٠ (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ... وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ).

الآيات: الثامنة إلى العاشرة

(أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَل مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ).

المفردات

أثاروا الأرضَ: حرثوها وأصلحوها للزراعة، وهي من الإثارة أي تحريك أجزاء الأرض وقلبها ظهراً لبطن.

عمروها: من العمران، وهو ما يُعمَر به المكان ويحسن حاله من الفلاحة وكثرة الأهالي والتمدُّن.

السوآى: الحالة السيئة، وهي مؤنث الأسوأ كالحسنى مؤنث الأحسن.

العاقبة: الحالة الأخيرة التي تعقب حالة ما قبلها.

التفسير

٨ .(أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَل مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ):

دلّت الآية المتقدّمة على أنّ الحياة الأُخروية لبّ الحياة الدنيوية، والثانية قشر لها، ولكنّ المشركين أقبلوا على القشر ونبذوا اللبّ، ولذلك أخذ جلّ شأنه يستدلّ على وجود تلك الحياة بقوله:(أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا):

أي خلق الجميع بوصفين:

١. (إلاّ بِالْحَقّ): أي ملابس له، وما كان كذلك يكون منزّهاً عن العبث ومجرّداً عن الغاية.

٢. (وَأَجَل مُسَمًّى): أي خلق الجميع إلى أجل مقدّر، وأُريد من المسمّى: المقدّر، كما يقول سبحانه بقوله :(وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَل مُسَمًّى) الحج:٥.وكلّ ذي أجَل يوماً سيبلغه. وتحديد وجود الجميع بزمان مقدّر يدلّ على أنّ الدنيا مقدّمة لأمر آخر وهي الحياة الأُخروية التي تُعدّ غاية للخلق المحدّد، وإلاّ لصار الخلق المحدّد لغواً وعبثاً، ولو تدبّر المشركون هذين الأمرين لآمنوا بالآخرة، ولكنّهم بُعَداء عن التفكّر فيهما، ولذلك يجحدون البعث والجزاء، كما يقول تعالى:(وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)لأنّهم جاهلون بأنّ فعل الله سبحانه بعيد عن العبث، قال سبحانه:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ). المؤمنون:١١٥.

ثمّ إنّ الظاهر من صاحب الكشّاف أنّ قوله: (فِي أنفُسِهِمْ) ظرف للتفكّر وصلة له، وقال: (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ) التي هي

أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ماعداها. تفسير الكشّاف:١٩٨/٣.ولكنّه زلّة من صاحب الكشّاف، إذ لو كان كذلك يجب أن يقول: أو لم يتفكّروا في أنفسهم وفي ما خلق من السماوات والأرض. والظاهر أنّ (فِي أَنفُسِهِمْ) كناية عن فراغ البال وحضور الذهن، كأنّهم حينما أكبّوا على الدنيا وجعلوها أكبر همّهم، غابوا عن أنفسهم فلم يدركوا دلالة آيات الله في هذا الكون.

وحاصل الآية: إنّهم ـ في حال التجرّد عن كلّ غاية وعن كلّ عقيدة مسبقة ـ إذا تفكّروا في خلق السماوات والأرض وما بينهما، ووقفوا على السنن والقوانين الّتي تحكم الكون، والّتي تدلّ على القدرة المطلقة والحكمة البالغة للخالق المبدع، لوصلوا إلى الحقيقة الّتي لا ريب فيها، وهي صحّة وقوع البعث والجزاء، وإلاّ لكان خلق الجميع لغواً.

٩. (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ):

تحمل هذه الآية تنديداً بالمشركين ودعوة لهم للاعتبار بما حلّ بالأُمم الماضية الكافرة، كما قال: (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كعاد وثمود، والمراد من النظر، هو الرؤية الحسّية لأنّ قريشاً كانوا يمرّون في أسفارهم إلى اليمن على ديار عاد، كما يمرّون في أسفارهم إلى الشام على ديار ثمود وقوم لوط، فيرَون بأمّ أعينهم كيف دمّر الله بلادهم.

ثمّ إنّه سبحانه وصف تلك الأُمم البائدة بأوصاف ثلاثة:

١. (كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وأُريد بها قوة الأجسام.

٢. (وَأَثَارُوا الْأَرْضَ): أي حرثوها واستصلحوها للزراعة.

٣. (وَ عَمَرُوهَا) عمراناً وبنياناً.

وكان يلزمهم في مقابل هذه النعم أن يتّبعوا رسل الله شكراً لنعمه (و)يا للأسف (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ): أي بالمعاجز ولكنّهم كذّبوا فأخذهم الله بذنوبهم، ولم يكن ذلك ظلماً من الله لهم كما يقول: (فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ)بل هم الظالمون لأنفسهم (وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). فهذه الأقوام العاتية مع كونهم ذوي قوة عظيمة وأبنية رصينة وأشجار مثمرة وزروع زاهرة كفروا بالله سبحانه فلم يفدهم شيء من هذه النعم، فما ظنّك بقريش وهي تعيش بواد غير ذي زرع؟! يقول في «الكشّاف»:و أهل مكة أهل واد غير ذي زرع ما لهم إثارة الأرض أصلاً ولا عمارة لها رأساً، فما هو إلاّ تهكّم بهم وبضعف حالهم في دنياهم؛ لأنّ معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة(الزراعة) وهم أيضاً ضعاف القوى. تفسير الكشّاف:١٩٩/٣.

١٠. (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ):

وقبل تفسير الآية أُشير إلى نكات في الآية:

١. قوله:(الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى) يقابل قوله: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى) يونس:٢٦. ولعلّ هذا التعبير كناية عن المبالغة، والمراد من السوآى هو الحالة السيئة الّتي تنشأ من ارتكاب الأعمال القبيحة.

٢. إنّ قوله: (أَنْ كَذَّبُوا) مؤوّل إلى المصدر، أي التكذيب وهو اسم كان، ولفظة (عاقبةَ) بالنصب خبر كان مقدّم، فيكون المعنى: ثم كان التكذيبُ بآيات الله عاقبةَ الذي أساءوا السوآى، فكان التكذيب بآيات الله عاقبة المسيء.

٣. المعروف أنّ عدم الاعتقاد بيوم الجزاء والحساب يجرّ الإنسان إلى التحلّل في العمل عن القيم والمُثل؛ ولكن هناك قاعدة أُخرى ربّما يكون فيها الأمر على العكس، أعني أنّ انكباب الإنسان على المعاصي وتوغّله في الأُمور المادّية بلا هوادة ربما يفضي إلى زوال العقيدة الدينية التي كان يؤمن بها في أوّليات حياته، وقد يؤدي به هذا النوع من التجرّؤ إلى التكذيب بما كان يعتقد،

وهذا ما نعبّر عنه بأنّ المادّية في العمل تنتهي إلى المادّية في العقيدة. ونحن قد شاهدنا مثل هذه النماذج عبر حياتنا، فكم من إنسان ولد في بيت ملتزم دينيّاً، وعاش مع المؤمنين ولكن زلّت قدمه وانحرف عن الطريق المستقيم لمّا رافق الأشرار المفسدين وشاركهم في ملاذّ الحياة وتمادى في غيّه وصار ذلك سبباً للتوغل في المادّية عقيدة. وهذا هو المستفاد من الآية:(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى): أي واقترفوا المعاصي والسيئات(أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ)ولم يقتصروا على التكذيب بها، بل (كَانُوا بِهَا)أي بآيات الله (يَسْتَهْزِئُونَ).فالتكذيب بآيات الله والاستهزاء بها نتيجة ترك القيم والمثل الأخلاقية.

ويرشدنا إلى هذا المعنى أنّ عقيلة بني هاشم زينب بنت علي(عليهما السلام)استدلّت في خطبتها التاريخية في مجلس يزيد بهذه الآية على كفر يزيد.

روى السيد ابن طاووس(المتوفّى ٦٦٤هـ) أنّه لمّا جيء برأس الحسين (عليه السلام)إلى يزيد بالشام، دعا بقضيب خيزران وجعل ينكث به ثنايا الحسين(عليه السلام)ـ إلى أن قال: ـ وجعل يزيد يتمثّل بأبيات ابن الزبعرى ويقول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا *** جزع الخزرج من وقع الأَسَلْ

إلى آخر الأبيات.

فقامت زينب بنت علي(عليهما السلام) فقالت:

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله كذلك حيث يقول:(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الإماء، أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظيم خطرك عنده... . اللهوف على قتلى الطفوف:٢١٤ـ ٢١٥.

سورة الروم: الآيات ١١ ـ ١٦ (اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ...أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ).

الآيات: الحادية عشرة إلى السادسة عشرة

(اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَة يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ).

المفردات

يُبْلِس: أي يسكت وتنقطع حجّته. قال الراغب في «المفردات»: الإبلاس: الحزن المعترض من شدّة اليأس.

روضة: الروضة: الأرض المخضرّة بأنواع النبات.

يُحْبَرون: يُسرّون، من الحُبور.

التفسير

١١. (اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

لمّا تضمّنت الآيات السابقة تنديداً بالمشركين الّذين ينكرون الآخرة ويغفلون عن مصيرهم فيها، وتذكيراً لهم بما حلّ بمكذّبي الأُمم السالفة من عذاب ربّاني، عاد البيان القرآني إلى الاستدلال على إمكان البعث وقال:(اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ): أي الإيجاد والإيعاد بيد الله سبحانه فهو الخالق وهو المعيد.

وممّا يلفت النظر أنّه سبحانه استدلّ على إمكان البعث في هذه السورة أربع مرّات بصيغة واحدة، وإليك الموارد الباقية:

قال تعالى:(اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ). الروم:٤٠.

وقال: (اللهُ الذِي يُرسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...)إلى أن يقول: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا). الروم: ٤٨ـ ٤٩.
وقال: (اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّة)إلى أن يقول: (وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ). الروم: ٥٤ـ٥٥.

وبما أنّ المشركين كانوا يقرّون بأنّه سبحانه قد خلق الكون وما فيه بدءاً، فلازم ذلك أن يصدّقوا بالبعث؛ لأنّ القادر على الإيجاد قادر على الإعادة، ونتيجة ذلك ما يقول:(ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) فإنّ لفظة (ثُمَّ)تدلّ على التراخي، ولكنّه هنا رُتبيّ لا زماني؛ لأنّ الإعادة نفس الرجوع.

١٢. (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ):

لمّا دلّت الآية السابقة على رجوع الناس عامة إلى الله سبحانه، بيّن في هذه الآية حال المشركين عند الرجوع قائلاً: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) الساعة بمعنى جزء من الزمان ولكن صار في القرآن علَماً ليوم القيامة، ففي ذلك اليوم (يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)، أي يستولي عليهم الحزن الّذي يُخرس الألسنة، فلا ينبسون ببنت شفة من شدة يأسهم. ولعلّ الإطناب في الآية حيث كان اللازم أن يقول: يومئذ يبلس المجرمون لكن قال: (وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)لإفادة التهويل والرعب.

قال السيد الرضيّ (حول هذه الآية) : وهذه استعارة، والمراد بقيام الساعة حضور وقتها والأجل المضروب لها وعلى هذا قولهم: قد قامت السوق، أي حضر وقتها الذي يتحرّك فيه أصحابها، ويستمرّ بيعها وشراؤها. وعلى هذا المعنى سمّيت القيامة، وقد يجوز أيضاً أن تكون تسميتها بذلك لقيام الناس فيها على أقدامهم، قال سبحانه:(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) المطففين:٦.. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨١.

ثمّ إنّ السبب في إبلاس المشركين وسكوتهم الناشئ عن شدّة حزنهم هو انقطاع حجّتهم وعدم انتفاعهم بالشركاء، وهذا ما تفسّره الآية التالية.

١٣. (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ):

كان المشركون يعبدون الأصنام دهوراً بحجّة أنّهم يشفعون لهم عند الله ، ولمّا تبيّن لهم، في يوم القيامة، بطلان شفاعتهم وأنّهم لا يملكون دفع شيء من العذاب عنهم، تحقّق معنى قوله: (وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ). أمّا الأصنام الجسمانية فهي أحقر من أن يكونوا شفعاء لأنّها لا تسمع ولا تعقل، وأمّا محكياتها من الملائكة والأُمور المجرّدة فلم يفوَّض إليهم أمر الشفاعة، وعندئذ يقع المشركون في بحر من الحيرة واليأس، ومن ثمّ: (وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)كما يقول سبحانه: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْض وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا). العنكبوت:٢٥.

١٤. (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذ يَتَفَرَّقُونَ):

أعاد سبحانه قوله: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) لنفس النكتة الماضية، أعني: التهويل والرعب، ثم أخبر أنّ المبعوثين ـ أعمّ من المشركين والمؤمنين ـ (يَوْمَئِذ يَتَفَرَّقُونَ) حتى يتميّز المجرمون عن المؤمنين، ويذهب كلّ إلى الغاية الّتي سعى إليها، فالمؤمنون إلى الجنة والمجرمون إلى النار (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) الشورى: ٧ ..

١٥. (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَة يُحْبَرُونَ):

لمّا ذكر أنّ المبعوثين يوم القيامة يتفرّقون، عاد البيان القرآني إلى ذكر مصير كلّ من الطائفتين، وقال: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)فينعمون بحياة يغمرها الأُنس والسرور في ظلال ما أُعدّ لهم من جنّة عامرة بألوان الأزهار والثمار كما يقول: (فَهُمْ فِي رَوْضَة يُحْبَرُونَ): أي يُسَرّون.

١٦. (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ):

وأمّا مصير الكافرين بالله ومكذّبي آياته ولقائه كما قال:(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) بتوحيده سبحانه (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) وهي معاجز الأنبياء وكتبهم الّتي أُنزلت عليهم (وَلِقَاءِ الآخِرَةِ): أي يوم البعث والجزاء، فمصيرهم إلى العذاب الدائم كما يقول: (فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) ذُكر الإحضار وأُريد منه عدم الانفكاك عن العذاب، وربّما يفسّر بـ «معذّبون» وهو تفسير باللازم لأنّ الحضور في العذاب يلازم كونه معذّباً.

سورة الروم: الآيات ١٧ ـ ١٩ (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ... وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

الآيات: السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة

(فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

المفردات

سبحان: مصدر سبّح سبحاناً، والتسبيح هو التنزيه من السوء على وجه التعظيم.

تُمسون: الإمساء: الدخول في المساء، وهو إقبال الليل وظلامه.

تُصبحون: الإصباح: الدخول في الصباح، وهو إسفار النهار بضيائه.

وعَشيّاً: أي وفي العشيّ، وهو آخر النهار بعد الزوال.

تظهرون: الإظهار: الدخول في الظهيرة، وهي نصف النهار.

التفسير

١٧ و ١٨. (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ):

ابتدأ الآية بفاء النتيجة، وذلك أنّ المشركين لمّا أنكروا البعث الّذي يُفضي إلى نسبة العجز إلى الله سبحانه، أمر الله بتسبيحه وتنزيهه عن كلّ وصف هو منزّه عنه. وخصّ منها هذه الأوقات لما فيها من التبدّل الظاهر في أجزاء الزمن، والانتقال من حال إلى أُخرى على صورة واضحة، كالانتقال من الضياء إلى الظلام في المساء، ومن الظلام إلى النور في الإصباح، ومن ضياء تام وقت الظهيرة إلى اضمحلال لذلك الضياء وقت العشيّ، وهكذا. فقوله:(فَسُبْحَانَ اللهِ) يحتمل وجهين:

الأوّل: الأمر بالتسبيح والتحميد في الأوقات الثلاثة: أي سبِّحوه ونزِّهوه عمّا لا يليق به أو ينافي تعظيمه من صفات النقص بالقول: سبحان الله والحمد لله . وتشهد لهذا الاحتمال الخطابات الثلاثة: (تُمْسُونَ)، (تُصْبِحُونَ)، (تُظْهِرُونَ)، وإنّما خُصّت هذه بالخطاب دون العشيّ لأنّه لم يُبنَ منه فعل من باب الإفعال.

الثاني: أنّ التسبيح والتحميد هو إنشاء تنزيه وثناء منه تعالى لا من غيره، فليس المعنى قولوا: سبحان الله أو قولوا: الحمد لله. ويشهد لهذا الاحتمال قوله:(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) الصافات:١٨٠.وقوله:(تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ). الفرقان:١.

وعلى كلّ تقدير فليست الآيتان بصدد ذكر أوقات الصلاة، وعلى فرض كونهما لبيانها فللمفسّرين في تفسير مفردات الآيتين أقوال نذكر منها أوضحها:

١. (حِينَ تُمْسُونَ): أي حين تدخلون في وقت المساء، وهو مجيء الظلام بالليل فيكون إشارة إلى صلاتي المغرب والعشاء.

٢. (وَحِينَ تُصْبِحُونَ): إشارة إلى صلاة الفجر.

٣. (وَعَشِيًّا): أي وفي العشيّ، فيكون إشارة إلى صلاة العصر.
٤. (حِينَ تُظْهِرُونَ): أي حين تدخلون في وقت الظهيرة، فيكون إشارة إلى صلاة الظهر.
١٩. (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).
الآية كأنّها تأكيد لمضمون قوله: (اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، ولعلّها
أيضاً علّة لتسبيحه سبحانه في الأوقات المذكورة لكونه محيياً ومميتاً وذا قدرة عظيمة، والآية تتضمّن أُموراً ثلاثة:
١. (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ): حيث يخلق ذوي الحياة من الأرض الميتة.
٢. (وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ): يبدل ذوي الحياة أرضاً ميتة. الميزان في تفسير القرآن:١٦/١٦٢.

أقول: أمّا الأوّل فيصحّ فيه أن يقال:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ): أي يخلقه منه، وأمّا الثاني فليس من قبيل إخراج الميّت من الحيّ إلى الميّت، بل تبديل من الحيّ إلى الميّت. وبتعبير آخر: إماتة الإنسان ليست إخراجاً للميّت إلى الحيّ؛ لأنّ هذا التعبير يصحّ إذا بقي المخرج منه على حياته حتى يخرج منه الميّت، وإنّما ينتفي الموضوع بكماله بموت الحيّ، اللّهم إلاّ أن يقال: النفس المجرّدة باقية والبدن الميّت مخرج عنه.

ومنها يعلم ضعف ما يقال: أمّا مسألة إخراج الميّت من الحيّ فهي ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً، فدائماً تموت الأشياء على الأرض وتتبدّل إلى الأخشاب، ويفقد الإنسان والحيوان حياتهما ويتبدّل كلّ منهما إلى جسد هامد لا روح فيه. الأمثل في تفسير كتاب اللهِ المنزل:١٢/٤٤٦.

إذ يردُ عليه ما أوردناه على الرأي السابق؛ فإنّ معنى الإخراج إخراج الشيء مع بقاء المخرج عنه، وفي المثال المذكور ينتفي المخرج والمخرج عنه معاً.

وفسّره بعضهم بقوله:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)الإنسان من النطفة (وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)النطفة من الإنسان. انظر: روح المعاني:٢١/٣٠. وكلا التفسيرين خطأ؛ لأنّ النطفة ليست ميّتة بل هي خليّة حيّة.

قال السيد الآلوسي: وقيل: يعقب الحياة بالموت وبالعكس. المصدر نفسه.

ولعلّ هذا القول أفضل ممّا سبق، وقد أُشير إلى هذا المعنى في ما ورد في بعض الأدعية: «يحيي ويميت ويميت ويحيي».

وقال قتادة (المتوفّى ١١٧ هـ) في تفسيره: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن. انظر: التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٢٣٨. وكذا قال علي بن إبراهيم القمّي. تفسير القمّي: ٢ / ١٣٠.وهو تفسير بباطن الآية لا ظاهرها.

٣. (وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) فإحياء الأرض انتعاشها وابتهاجها بالنبات بعد جدوبها.
وكأنّه بيان مصداق للأمر الأوّل ـ أعني: يخرج الحيّ من الميّت ـ حيث يخرج النبات من الأرض الميّتة. وعلى كلّ تقدير فهو مقدّمة لقوله: (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ): أي تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإخراج النبات من الأرض بعد موتها.

سورة الروم: الآيات ٢٠ ـ ٢٦ (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب ... لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ).

الآيات: العشرون إلى السادسة والعشرين

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ

أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ).

المفردات

مودّة: قال الراغب: الودّ: محبّة الشيء وتمنّي كونِهِ. المفردات للراغب:٥١٩، مادة «ودد».وهذا المعنى يناسب معنى التمنّي ولا يناسب ما هو المراد في المقام، والظاهر أنّ المودّة نوع انجذاب الإنسان للمحبوب لكمال فيه.

رحمة: الرحمة: رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقّة المجرّدة وتارة في الإحسان المجرّد دون الرقّة كما إذا وصف به الباري تعالى.

ابتغاؤكم: البغي: الطلب.

فضله: الفضل: الزيادة. والمراد من فضل الله هو الرزق.

ألسنتكم: جمع لسان، وأُريد هنا اللغة.

البرق: لمعان السحاب. وهو عبارة عن شرارة كهربائية عملاقة تنتج عن الحركة السريعة للجسيمات المشحونة كهربائياً داخل السحب الركامية (الرعدية)، أو بين إحدى هذه السحب وسطح الأرض أو الهواء أو سحابة أُخرى . الموسوعة العربية العالمية: ٤ / ٣٣٧ .

قانتون: القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، وهنا يفسّر بالطاعة وحدها أو بالخضوع كذلك.

التفسير

تمهيد :الآيات الست من هذه المجموعة بصيغتها الخاصّة

الآيات الست من هذه المجموعة بصيغتها الخاصّة كسبيكة واحدة ليس لها نظير في سائر السور، وهي تتميّز بأُمور:

الأوّل: قد ابتدئ في هذه الآيات بقوله: (وَ مِن آيَاتِهِ) مثلاً يقول: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...) نعم ورد الابتداء به أيضاً في سورتين مختلفتين لكن لا متّصلاً، نظير: (وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ). فصلت:٣٧. وقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً). فصلت:٣٩. كما ورد في سورة الشورى أيضاً مرّتين ولكن لا متّصلاً نظير قوله: (وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ). (الشورى:٢٩.)

وقوله: (وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ) الشورى:٣٢..

الثاني: الغرض من هذه الآيات أمر واحد وهو أنّ المتصرّف في الكون هو الله سبحانه كما هو الخالق، والمشركون وإن كانوا موحّدين في الخلق بَيد أنّهم كانوا مشركين في التدبير، والله سبحانه ببيان خلقة الإنسان من تراب إلى تطوّره في رحم الأُم من النطفة إلى العلقة إلى المضغة حتى يكون إنساناً سويّاً يعيش باختلاف الألسن والألوان ويسعى في طلب الرزق ويستريح في المنام ويرى البرق خوفاً وطمعاً إلى أن يموت إلى أن يُبعَث بأمر الله سبحانه.. أنّه ببيان كلّ ذلك ـ أي هذه السلسلة المتصلة ـ يريد أن يُلفت نظر الإنسان إلى طلاقة قدرته تعالى، الدالّة على وحدانيته في الخلق والتدبير، وأنّه لم يفوّض أمر التدبير إلى غيره، فإذا كان هو المدبّر فليعبده دون غيره. هذا هو الغرض الذي صيغت لأجله تلك الآيات.

الثالث: أنّه سبحانه رتّب فواصل الآيات بالنحو التالي: (يَتَفَكّرون)، (لِلْعَالِمِينَ)، (يَسْمَعُون)، (يَعْقِلُون)، وفي هذا النوع من الترتيب عبور من مرحلة إلى مرحلة كاملة. فالإنسان إذا تفكّر تفكّراً صحيحاً يرتقي إلى درجة العلم فيكون عالِماً، ثم إذا سمع شيئاً من الحقائق يستمع إليه فيكون من مصاديق (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر:١٨. ويأخذ في تعقّل ما سمعه.

نعم الآية الأُولى من الآيات الست والآية السادسة خلتا من الفواصل وسيوافيك وجهه.

إنّ هذه الآيات الدالّة على قدرته الباهرة، بين كونها آية أنفسية وأُخرى آية آفاقية، وربما اجتمع في بعض الآيات القسمان كما

سيظهر.

إذا وقفت على ذلك فلندخل في تفسير الآيات.

٢٠. (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ):

الآية الأُولى(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَاب ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ):

(وَ مِنْ آيَاتِهِ): أي ومن دلائل قدرته(أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب) فإنّ النطفة تتخلّق من الأغذية الّتي يأكلها الإنسان، وهي بمختلف أصنافها ترجع إلى التراب، فيصحّ أن يقال:(أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب) ثم طوى الكلام عمّا يتوسّط بين التراب وصيرورته إنساناً سويّاً وقال: (ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) على سطح المعمورة، ففي الآية حجّتان على قدرته الباهرة:

١. خلق الإنسان من التراب، ولكن أين التراب من الإنسان السويّ؟!

٢. انتشار نسله على وجه البسيطة حيث جعل خلقة الإنسان على نحو يبقي نسله بالزواج.

ولك أن تنظر إلى ما يتمتع به الإنسان من جمال وحسٍّ وعقل وتفكير ومشاعر، ثمّ قس جميع ذلك إلى التراب الفاقد لكل جمال، فعندئذ تقف على أنّ هنا قدرة باهرة تأخذ بيد التراب وتوصله إلى تلك الغاية السامية، وهذه القدرة هي قدرة الله تعالى. والآية المذكورة من مقولة الآيات الأنفسية.

٢١. (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ):

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا... لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ):

لمّا تقدّم في الآية السابقة انتشار البشر على وجه البسيطة تضمّنت هذه الآية بيان سبب الانتشار وقال: (وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ): أي من جنسكم (أَزْوَاجًا) الزوج وإن كان يطلق على الشيئين المتماثلين كالخُفَّين والنَّعلين، ولكن في مصطلح القرآن كلّ من الرجل والمرأة بمفردهما زوج. قال الراغب: يقال لكلّ من القرينين من الذكر والأُنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج. قال تعالى: (وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)، و«زوجة» لغة رديئة وجمعها زوجات وجمع الزوج أزواج، قال تعالى:(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ). المفردات:٢١٦.

وبما ذكرنا يظهر معنى قوله سبحانه:(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس وَاحِدَة وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) الأعراف:١٨٩.فإنّ معنى جعل الزوج منها هو خلقه من جنسها، فالزوجان من جنس واحد وإن اختلفا في بعض الخصوصيات على خلاف ما جاء في التوراة من أنّه سبحانه خلق أُمّنا حواء من ضلع أبينا آدم(عليهما السلام). التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثاني.

وأمّا ما هي الغاية من خلق الزوج فقد أُشير إليه بقوله: (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)والفعل يتضمّن معنى الميل ولذلك تعدّى بـ«إلى»: وأمّا ما هو المراد من السكون المقرون بالميل؟ فهو أنّ كلاًّ من الزوجين إبّان شبابهما يجدان في أنفسهما ولعاً واشتياقاً إلى إعمال الغريزة الجنسية وهما يعيشان تلك الحالة، ولا تهدأ تلك الحالة إلاّ بارتباط أحدهما بالآخر فعندئذ يجدان في أنفسهما سكوناً وراحةً واستقراراً. ثمّ إنّه سبحانه لأجل توطيد العلاقة بين الزوجين أودع في إحساسَيهما عاطفة الحبّ والشعور بالرفق تجاه بعضهما، كما قال:(وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) وذلك لأنّ الحافز لانجذاب كلّ من الزوجين إلى الآخر هو الميل الجنسي الذي يعبّر عنه بالشَّبَق، ولكن بعد فترة أو فترات يضعف هذا الميل، والذي يحفظ استمرار الحياة الزوجية هو علاقة التراحم والتلاطف بين الزوجين، لأنّ طول العيش تحت سقف واحد والاشتراك في مرارة الحياة وحلوها يُسبّب وجود تلك العلاقة التي تقي الحياة الزوجية من الخلاف والشقاق.

وهناك احتمال آخر وهو جعل المودّة والرحمة في المجتمع الإنساني، فالكبار يرحمون الصغار فيتربَّون في ظل الرحمة، والصغار يحبّون

الآباء والأُمّهات لغاية تربّيهم في ظلّهما. وعلى كلّ تقدير فإنّ مشاعر التوادّ والتراحم الّتي هي من ألطافه سبحانه بالأُسرة أو المجتمع تُفضي إلى حفظ العلاقات وصيانتها من التصدّع أو الانهيار. ثمّ إنّه سبحانه يقول:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ) جاء قوله:(يَتَفَكَّرُونَ) في ذيل الآية الثانية دون ما تقدّمها لكونها متمّمة للآية الأُولى، فَذَكَر التفكّر لأنّه مبدأ لما سيأتي من كون الإنسان عالماً أو سامعاً لقول الآخرين.

ويظهر من بعض الروايات أنّ حب المرأة لزوجها لا يقاس به حبّ سائر أعضاء الأسرة، فقد روي أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال لابنة جحش: قُتل خالك حمزة، فاسترجعت وقالت: احتسبه عند الله ، ثم قال لها: قُتل أخوك، فاسترجعت وقالت: احتسبه عند الله ، ثم قال لها: قُتل زوجك، فوضعت يدها على رأسها وصرخت. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما يعدل الزوج عند المرأة شيء». نور الثقلين:٤/١٧٤.

٢٢. (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِلْعَالِمِينَ):

الآية الثالثة (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِلْعَالِمِينَ):

ومن آيات قدرته(خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) في الفضاء دون سناد وعِماد، فإنّ ما في السماء من الكواكب والنجوم والمجرّات كلّها معلّقة في الفضاء بدون أعمدة تستند إليها كما عليه قوله سبحانه:(رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا) الرعد:٢. والله يعلم عددها وكبر خلقتها، فالناظر فيها يقف على أنّها مخلوقة بقدرة عظيمة لا يدرك حدّها، ففيها من عجائب الأسرار وغرائب الآثار ما يدهش العقل، وكلّما تقدّم العلم في ذلك المجال يزداد الإنسان حيرة من عظيم الخلقة، فأين ما كشفه علماء الفلك في العصور الأخيرة ممّا كانت عليه هيئة بطليموس؟!(وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ): أي من آيات قدرته لغاتكم، فإنّ اختلاف القوميات غالباً في اللغة. ووجه شهادته على قدرته سبحانه أنّ جميع الأُمم ترجع إلى أب واحد وأُم واحدة ومع ذلك تكاثر أولادهم على وجه البسيطة وكلّ يتكلّم بلغة غير ما يتكلّم به الآخر. وكون الاختلاف في اللغة من آياته سبحانه ليس بمعنى عدم وجود سبب طبيعي لهذا الاختلاف ـ وذلك لأنّ أبناء آدم إذا تباعدوا وتعايشوا في نقاط مختلفة بعيدة عمّا يسكنه الآخرون، تحملهم الحاجة إلى التعبير عن مقاصدهم بلغة غير لغة الآخرين، فلو كان التواصل حاكماً على المجتمع البشري لما تعدّدت اللغات بل اختلفت اللهجات دون المواد ـ بل بمعنى أنّ الإنسان خلق على ملكة خاصة يقدر معها على التعبير عمّا يحتاج إليه بلفظ يحكي عنه ويستطيع على وضع لغة جامعة لبيان الحوائج مع كونها ذات نظام وقوانين، فالجميع يرجع إلى الله سبحانه.

ويحتمل أن يكون المراد من اختلاف الألسنة هو اختلاف الأصوات، فإنّ لكلّ إنسان صوت يميّزه عن غيره، من حيث الشدّة والطبقة والرنين، وليس ثمّة تماثل بين صوت وصوت حتى المتكلّمين بلغة واحدة.

ثمّ إنّ هنا اختلافاً آخر(وَ)هو اختلاف (أَلْوَانِكُمْ) ومن المعلوم أنّ البشر ينحدرون من أب واحد وأُمّ واحدة، ومع ذلك اختلفت ألوانهم اختلافاً كبيراً.

وأُصول الألوان لا تخرج عن اثنين: البياض والسواد، وما بينهما يشتق منهما بزيادة أو نقصان كالأصفر والأسمر والأحمر.

ووجه كون اختلاف الألوان من آيات الله سبحانه هو أنّ المجتمع البشري بحاجة إلى معرفة الأفراد والأشخاص، ولو كان الجميع على لون واحد لم يعرف الأبناء آباءهم ولا الآباء أبناءهم، ولا الأزواج زوجاتهم... كما لا يتميّز العدو من الصديق، ولذلك ربما يحدث التوأمان مشكلة عند الآباء والأُمّهات إبّان ولادتهما، ولذلك يضعون علامة خاصة للكبير والصغير. وهنا كلام للرازي لا بأس بذكره، وهو:

إنّ الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ؛ ليحترز قبل وصول العدو إليه،

وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور، وقد يكون بالسمع، فخلَق اختلاف الأصوات. تفسير الرازي:٢٥/١١١.

فلأجل هذا الأثر البارز يقول سبحانه:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِلْعَالِمِينَ)هؤلاء هم الذين يعرفون عظمة خلق السماوات والأرض، ويعلمون أسرار اختلاف الألسن والألوان.

٢٣. (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَسْمَعُونَ):

الآية الرابعة(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَسْمَعُونَ):

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن خلق الإنسان وحالاته المتنوّعة وخصائصه الذاتية المختلفة، عاد البيان القرآني إلى ذكر حالة من حالاته العامّة التي لا يشذّ عنها إنسان وهي حاجته إلى النوم وإلى تحصيل الرزق، فقال سبحانه:(وَ مِنْ آيَاتِهِ): أي قدرته الهائلة:(مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وهذه ـ أي نعمة النوم ـ موهبة عظيمة من الله سبحانه، إذ كلّ موجود يتعب بعد العمل الممتدّ، فيحتاج إلى الانقطاع عن العمل الفرديّ أو الجماعي حتى تتجدّد قواه، وهذا لا يتحقّق إلاّ بتعطيل عامّة الأجهزة سوى ما يتوقّف عليه بقاء حياته كدوران الدم والتنفس، ولولا النوم لَفَقد الإنسان المحروم منه طاقته وأصبح سريع الانفعال، وإذا زادت فترة عدم النوم على ثلاثة أيام فإنّه يجد صعوبة في التفكير والرؤية والسماع بوضوح.

ومن فوائد النوم أنّه يعيد الطاقة للجسم وخصوصاً الدماغ والجهاز العصبي. ويحتاج الناس للنوم ذي الموجة البطيئة، وللنوم الحالم؛ ولا يعوّض أحدهما عن الآخر. وقد يساعد النوم ذوالموجة البطيئة على بناء البروتين واستعادة تحكّم الدماغ والجهاز العصبي في العضلات والغدد وأجهزة الجسم الأُخرى، وقد يكون للنوم الحالم أهمّيته بشكل خاص في الحفاظ على أوجه النشاط العقلي مثل التعلّم والتعقّل والتكيّف العاطفي. راجع: الموسوعة العربية العالمية:٢٥/٥٩٠، مادة «النوم».

ثمّ إنّه سبحانه يذكر ظرف المنام الطبيعي ويقول:(بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وما ذلك إلاّ لأنّ الإنسان ربما يحتاج إلى النوم في النهار وخصوصاً في أيام الحرّ، أو عند طروء الضرورة للاشتغال بالليل، فلا محيص من النوم في النهار. ولكن هذا لا ينافي قوله:(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) النبأ:١١. لأنّ حاجة الإنسان في النهار إلى النوم بصورة استثنائية (وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ): أي طلب الرزق وربّما يتصوّر أنّ الليل للمنام وأنّ النهار لابتغاء الفضل، وتقدير الآية (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) في النهار، وهذا هو خيرة الزمخشري، حيث يقول: هذا من باب اللف وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلاّ أنّه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين لأنّهما زمانان والزمان الواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد، ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرّره في القرآن.(تفسير الكشّاف:٣/٢٠١.) ولا يخفى ما فيه من التكلّف، وما ذكرناه هو الواضح.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ): أي تعاقب الحالتين: المنام والابتغاء، من فضل الله عبر الحياة، وهما أفضل دليل على صنع الله سبحانه حيث إنّ الإنسان لا يستغني بأحدهما عن الآخر وقد خلق الإنسان على نحو يأتي كلّ بعد الآخر. (لآيَات لِقَوْم يَسْمَعُونَ): وفي استدعاء السمع هنا، دون حواسّ الإنسان الأُخرى إشارة إلى أنّ السمع الّذي يعطي فهماً، ثم يعطي لهذا الفهم ثمرة، هو السمع الّذي يخلي له الإنسان حواسّه كلّها، ويكون ذلك عندما يشتمل عليه الليل، ويمسك عليه حواسّه، ولم يبق له إلاّ سمعه المرهف، الموجّه إلى العالم الخارجي، وما يجيء منه. انظر: التفسير القرآني للقرآن: ١١ / ٥٠٥ .

٢٤. (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ):

الآية الخامسة(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا.... لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ):

الآية عبارة عن إراءة البرق، لكن أشار إليها بذكر الفاعل وقال: (وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)، وهو يورث أمرين: عقاباً وطمعاً. أمّا الأوّل حيث تصيب الصاعقة ما تصيب فتحرقه، وأمّا الثاني فيورث أملاً في نزول المطر، ولذلك يقول: (وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا): أي يخرج النبات من الأرض بعد جفافها وموتها: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) حيث يدلّ على القدرة الباهرة مع أنّ النظام الموحّد أفضل دليل على مدبّر واحد.

بقي هنا كلام وهو ما هو واقع الصاعقة الذي يعبّر عنه القرآن بالبرق؟

الجواب: أنّ كلّ ما يحيط بنا في هذا العالَم يتكوّن من ذرّات، وعلى الرغم من أنّ الذرّات تكون في أغلب الأحيان متعادلة كهربائياً، إلاّ أنّها تصبح موجبة أو سالبة الشحنة إذا فقدت أو اكتسبت إلكترونات. وتنجذب الشحنات الموجبة والشحنات السالبة إلى بعضها بعضاً وأثناء حركة كلّ منها نحو الأُخرى فإنّها تُكوّن تياراً كهربائياً يُحدِث شرارة، والبرق هو الشرارة (الكهربائية العملاقة في السماء) التي تنتج عن الحركة السريعة للجسيمات المشحونة كهربائياً داخل السحب الركامية، أي السحب الرعدية، أو بين إحدى هذه السحب وسطح الأرض أو الهواء أو سحابة أُخرى. والبرق ربّما يصيب الأبنية المرتفعة ومن الممكن أن يصعق البرق الإنسان، ويتلف الممتلكات، أو يسبب الحرائق. الموسوعة العربية العالمية:٣٣٦/٤، مادة «برق».

٢٥. (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ).

الآية السادسة(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ..... إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ).

هذه هي الآية السادسة وبها تنتهي الآيات، والفرق بينها وبين الآية الثالثة ـ أعني: خلق السماوات والأرض ـ واضح لأنّ الآية الثالثة تركّز على خلق السماوات والأرض، وهذه الآية تركّز على بقائهما على النظام الذي كانا عليه عبر ملايين السنين، ولذلك يعبّر عن بقاء النظام بقوله: (أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ). يقول الشريف الرضيّ في تفسير القيام: معناه أنّها تتماسك بأمره في مناطاتها وتقف على مستقرّاتها، ومثل ذلك قول القائل: «إنّما يقوم أمر فلان بكذا» يريد أنّه إنّما يتماسك به، وليس هناك في الحقيقة قيام يشار إليه. تلخيص البيان: ٢٠٨.

وقد جاء هذا المضمون في قوله سبحانه:(إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ)،(فاطر:٤١.) وقوله سبحانه:(وَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ). الحج:٦٥.

إلى هنا تمّت الآيات الست.

وأمّا قوله:(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) فاستنتاج ممّا سبق من الآيات، حيث إنّ القادر على خلق هذه الآيات الكاشفة عن القدرة العظيمة، قادر على إحياء الإنسان وإخراجه من الأرض وسوقه إلى المحشر كما يقول:(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ)، والظاهر أنّ قوله: (من الأرض) متعلّق بقوله: (دعاكم)نظير ما يقال: دعوت فلاناً من فوق البيت فنزل، وكذلك تكون دعوة الناس من الأرض(إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)، وفي تصدير هذه الجملة الخبرية بأداة المفاجأة : (إذا) إشارة إلى سرعة خروجهم من الأجداث وبعثهم للحساب والجزاء كما يقول: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) يس: ٥١ ..

وهناك وجه آخر لذكر البعث بعد الآية السادسة، وهو: أنّه ربّما يتوهّم بقاء النظام السماوي والأرضي دائماً وليس لهما زوال، ولكن التركيز على دعوة الإنسان من الأرض يلازم اختلال النظام السائد، ولذلك يقول سبحانه: (مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ).(الزمر:٦٧.)

إنّ التدبّر في هذه الآيات الست يثبت أنّ موضوعها هو الإنسان، حيث بدأت الآيات بخلقه وتكوّنه، ثم تصنيفه إلى الذكر والأُنثى،

ثمّ صلته بخلق السماء والأرض، واختلاف لغته ولونه، ونومه في الليل والنهار وسعيه في طلب الرزق، وكون رؤية البرق مورثاً لخوفه وطمعه، وانتهت تلك الآيات بالتركيز على قيام السماء والأرض وحفظ نظامهما إلى أجل مسمّى حتى ينتفع بهما الإنسان إلى يوم القيامة، وفي كلّ ذلك دلائل واضحة له ليفتح عينيه على طلاقة قدرته تعالى وعظمة تدبيره، وعلى وجود غاية لهذا النظام الثابت الّذي يسير عليه الكون وما فيه من ظواهر جمّة ومتنوعة وإلاّ يلزم العبث، وهذا البيان البديع الّذي عُرضت به هذه الحقائق كسلسلة منظّمة لا يمكن أن يكون نتيجة تفكير رجل أُمّيّ عاش في مجتمع أُمّيّ وإنّما يهدي إلى أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)قد تلقّاه من عالَم آخر.

٢٦. (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ).

لمّا تضمّن قوله سبحانه:(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) أنّ خروج هؤلاء من قبورهم أمر قطعيّ وليس بإراديّ، جاءت هذه الآية لبيان وجهه، وهو يتركّب من شيئين:

١. (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (اللام) للملكيّة، فهو سبحانه يملك مَن في السماوات والأرض من الإنس والجنّ والملائكة ملكية تكوينية، ولذلك جاز له التصرّف فيهم بالإحياء والإخراج من الأرض، والتصرّف على الإطلاق لأجل كونه مالكاً إذ لكلّ مالك أن يتقلّب في ملكه.

٢. (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ): أي أنّ هؤلاء كلّهم طائعون منقادون له سبحانه، ولذلك ما إن يدعو الناسَ ـ بعد موتهم ـ من الأرض حتّى يستتبع ذلك خروجهم منها سراعاً وسوقهم إلى المحشر. روي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «كلّ قنوت في القرآن فهو طاعة»، ولذلك روي عن ابن عباس أنّه قال: (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ): أي كلّ له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصَوا في العبادة. الدر المنثور:٦/٤٩١.

سورة الروم: الآيات ٢٧ ـ ٢٩ (وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

الآيات: السابعة والعشرون إلى التاسعة والعشرين

(وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

المفردات:

من أنفسكم: أي منتزعاً من أحوال أنفسكم الّتي هي أقرب الأُمور إليكم، وأعرفُها عندكم.

ملكت أَيمانكم: يراد بمُلك اليمين: العبيد والإماء.

فيما رزقناكم: ما يملكه الإنسان من المنقول وغير المنقول.

تخافونهم: أي تخافون أن يستبدّ العبيد بالتصرّف فيه.

كخيفتكم أنفسكم: أي كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض.

التفسير

٢٧. (وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

احتجّ سبحانه على ربوبيته وقدرته على المعاد في هذه السورة في مقاطع أربعة، وهذا هو المقطع الأوّل، حيث بدأ بالضمير دون الاسم الظاهر وقال: (وَ هُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ).

وأمّا المقاطع الثلاثة الأُخرى فقد بدأها باسم الجلالة وقال:

الثاني:(اللَّهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...) الروم:٤٠.

الثالث:(اللَّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ ـ إلى أن قال:ـ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى). الروم: ٤٨ـ ٥٠.

الرابع: (اللَّهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْف قُوَّةً ـ إلى أن يقول: ـ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ). الروم: ٥٥ـ ٥٦.

ولمّا تقدّم في الآية السابقة ذكر البعث وخروج الناس من الأجداث، عاد البيان القرآني إلى أنّه سبحانه قادر عليه بشهادة أنّه قادر على الإيجاد، والقادر على الإبداع قادر على الإعادة، كما يقول:(وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ)أي ينشؤه من دون مثال ولا مادّة سابقة (ثُمَّ يُعِيدُهُ)، أي يرجعه إلى الحالة الأُولى (وَهُوَ) أي الإعادة تذكير الضمير فيه مع أنّه راجع إلى الإعادة المأخوذة من لفظ (يُعِيدُهُ) نظراً إلى المعنى دون اللفظ، وهو رجعُه أو ردُّه، أو أن تذكيره جاء مراعاة للخبر (أَهْوَنُ). انظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش: ٧ / ٥٠٠ . (أَهْوَنُ عَلَيْهِ) من الإبداع؛ وذلك لأنّ الإعادة عبارة عن جمع الأجزاء المتفرّقة، فالخالق من لا شيء أَولى من أن يكون خالقاً من شيء، ثمّ إنّ قوله سبحانه:(وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) حسب تفكيرنا ورؤيتنا، وإلاّ فالأُمور الممكنة أمام مشيئته سواء. قال الإمام علي(عليه السلام): «وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ». نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

ولأجل توضيح هذا المعنى ـ أي أنّ وصف الأَهْونية إنّما هو حسب تفكيرنا ورؤيتنا لا حسب الواقع ـ قال سبحانه:(وَ لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى): أي الوصف الأتمّ والأكمل لله سبحانه، فهو علم كلّه، قدرة كلّه، حياة كلّه، ليس لأوصافه حدّ (فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي ليس له شبيه ونظير في صحيفة الوجود (وَ هُوَ الْعَزِيزُ)الغالب الذي لا يُغلب، فهو قادر على إحياء الإنسان (الْحَكِيمُ) فهو يتصرّف في الكون وفق الحكمة والسداد.

٢٨. (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَعْقِلُونَ).

تضمّنت الآية مثلاً يبرهن به على بطلان الشرك بلسان التمثيل حيث إنّ المشركين قالوا بمشاركة الأصنام مع الله سبحانه في تدبير العالم وإدارته، والله سبحانه يبطل ذلك، بأن يوجّه لهم سؤالاً: هل أنتم ترضون في حياتكم بأن يشارك عبيدكم أو إماؤكم معكم في الأموال؟ فإذا كان الجواب بالنّفي، فكيف ترضون بذلك؟

وبعبارة أُخرى: إنّ العبد المملوك بالملكية الوضعية لا يصحّ أن يكون في رتبة مولاه على نحو يشاركه في الأموال، فأَولى أن لا يكون العبد المملوك تكويناً (الأصنام) في درجة الخالق المدبّر فيشاركه في الفعل كأن يدبّر العالم مشاركاً مع الله سبحانه. فالشيء الذي لا ترضونه لأنفسكم، كيف ترضونه لله سبحانه وهو ربّ العالمين؟!

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الآية.

قوله: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ): أي ضرب لكم مثلاً متّخَذاً من أنفسكم ممّا يرجع إلى حياتكم الدنيوية:(هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)العبيد والإماء (مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ): أي شركاء في أموالكم على نحو (فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ): أي يكون العبيد كسائر الشركاء الأحرار، فكما أنّ الشريك الحرّ يخاف من شركائه الأحرار ولا يتصرّف إلاّ بإذنهم، كذلك تخافون من عبيدكم إذا كانوا شركاء لكم. والجواب: لا. فإنّكم تأنفون من شراكة العبيد، فكيف ترضون شراكة المملوك بالملكية التكوينية لله سبحانه؟!(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَعْقِلُونَ)فعلى ذلك فالمشبَّه جعل المخلوق في درجة الخالق، والمشبَّه به جعل المملوك بالملكية الوضعية شريكاً للمالك.

٢٩. (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ):

لمّا كان مقتضى التمثيل الرصين عدم القول بتشريك العباد مع الله سبحانه، لكن مع الأسف نجد جماعة كثيرة وقعوا في هوّة الشرك، كما يقول: (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) حيث ذكر لوجه سقوطهم في شَرَك الشِّرك وجهين:

١. (ظَلَمُوا): أي ظلموا الله سبحانه باتّخاذهم شركاء له، لقوله سبحانه: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان:١٤..

ويحتمل أن يراد ظلموا أنفسهم فاستحقّوا العذاب الأليم.

٢. اتّبعوا أهواءهم، فهم مكان أن يتدبّروا آيات الله ودلائله الّتي تقودهم إلى الحق، اتّبعوا أهواءهم وانقادوا لشهواتهم، بعيداً عن العلم الّذي تُدرك بنوره حقائق الأشياء، فتحيّروا في الظلمات، وارتكسوا في الضلال، فخلّى الله تعالى بينهم وبين أنفسهم الّتي غلبت عليها الأهواء المُردية، كما يقول: (فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ). نعم أضلّهم الله سبحانه لأنّهم سلكوا، باختيارهم، طريق الضلال، ولم يهتدوا بما جاء به أنبياؤه ورسله من بيّنات وبصائر، فإذا جاء وعد الآخرة، نالوا جزاءهم العادل (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)ينقذونهم من عذاب الله إذا حلّ بهم.

سورة الروم: الآيات ٣٠ ـ ٣٢ (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ ... كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

الآيات: الثلاثون إلى الثانية والثلاثين

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).

المفردات

أقم: من أقام العود وقوّمه إذا عدّله، والمراد الإقبال على الدين.

وجهك: أصل الوجه الجارحة، وأُريد هنا القلب.

حنيفاً: الحَنَف: الميل، فهو مائل من الضلال إلى الاستقامة، والجنف: هو ميل من الاستقامة إلى الضلال، قال تعالى في وصف إبراهيم (عليه السلام): (حَنِيفًا مُسْلِمًا). آل عمران: ٦٧ .

فَطَر: الفطر: شقّ الشيء طولاً، ويسمّى الخلق فطراً لأجل أنّ الخالق يشقّ ظلمة العدم بإيجاده وإبداعه. وصيغة «الفطرة» تدلّ على نوع من الفَطْر، كهيئة الخِلقة وما هذا النوع إلاّ خلق الإنسان على خصيصة يستعدّ معها على إدراك الحق وقبوله، وبما أنّها مضافة إلى لفظ الجلالة يُقال «فطرة الله»، وبما هو بيان للدين المتقدّم في قوله:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطرَةَ اللهِ) تدلّ على أنّ الإنسان يهتدي إلى هذا الدين بخلقته وفطرته، ويساق إلى الله بداع داخلي قبل أن يساق إليه بداع خارجي، وكأنّ وجوده عُجن بالدين.

القيّم: المستقيم.

منيبين إليه: أي راجعين بالعمل والتوبة. والإنابة: الانقطاع إلى الله بالطاعة.

فرّقوا دينهم: أي اختلفوا فيه.

شِيَعاً: فِرَقاً، وكلّ فرقة شيعة على حدة، سمّوا بذلك لأنّ بعضهم يتابع بعضاً على مذهبه، فشيعة الحقّ هم الذين اجتمعوا على الحقّ، وتطلق الشيعة اليوم على مَن شايع عليّاً(عليه السلام) واجتمع معه على الحقّ.

التفسير

٣٠. (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ):

هذه الآية ـ كما يقول صديقنا العلاّمة مغنية(رحمه الله) ـ تدور كثيراً على ألسنة الخطباء وأقلام الكاتبين، ومنهم مَن يستشهد بها وكفى،

ومنهم مَن يطلق حولها كلمات رنّانة عامّة ويقول: هذا هو الدين الصحيح الضخم الهائل... الخ. وليس من شكّ أنّ هذه الآية تقرّر أصلاً هامّاً يرتكز عليه الإسلام عقيدة وشريعة، وهو يدلّ دلالة واضحة على أنّ تعاليم هذا الدين من ألفه إلى يائه تهدي إلى الرشد والوفاء بمطالب الحياة ونموّها وتقدّمها إذا فُهم الإسلام على أساس فطرة الله التي فطر الناس عليها. التفسير الكاشف:٦/١٤٠.

فإذا كان الأمر بهذه الأهمية فلابدّ أن نبيّن الموضوع على وجه يتّضح معنى كون الدين فطرياً، فنقول:

ذهب علماء الاجتماع المحايدون إلى أنّ للاعتقاد والإيمان بالله جذوراً عميقة، وتاريخاً عريقاً في حياة الإنسان، بحيث لم يحدث للبشر أن حذف الدين من مناهج حياته ولا حتى لبرهة عابرة من الزمن.

لقد كان البشر ولا يزال طالباً للجديد، وخاضعاً لسنّة التطوّر والتحوّل والتغيّر، ففيما هو يوجد لنفسه ولحياته، أو يختار، برامج وأساليب جديدة لنظامه، نجده من جانب آخر يلغي أُموراً ـ تبعاً للعوامل الطبيعية والظروف المحيطية والعنصرية ـ طالما دافع عنها وأحبّها إلى درجة بذل النفس في سبيلها.

لكنّ هناك أمراً واحداً بقي ثابتاً لا يتغيّر في قاموس الحياة البشرية رغم كلّ تلك التغيّرات والتحوّلات، أمراً واحداً بالغ البشر في حفظه وصيانته وتوسيع دائرته ألا وهو موضوع «الدين» والإيمان بما وراء المادة الذي لم يَعرف فيه مللاً ولا فتوراً ولا إعراضاً.

هذا القِدَم في الوجود، وهذه الأصالة كاشفة ولا شكّ عن أنّ «التديّن» والدين يعتبر من العناصر التي تؤلّف ذات الإنسان وتعدّ من غرائزه الأصيلة وحاجاته الروحية والنفسية التي كانت ولا تزال معه بحيث لم تتسلّل إليها يد التغيير والتبديل.

وبما أنّ الأمر الفطري لا ينحصر بالدين أو الإيمان بالله بل يعمّ غير ذلك، فلنذكر أنّ الأفعال التي تصدر عن الإنسان على نوعين:

١. أفعال فطرية.

٢. أفعال عادية.

أمّا الأوّل فهو تلك الأفعال التي تنبع من جبلّة الإنسان وفطرته، وتصدر عنه بلا تفكّر ولا تروٍّ، كالتنفّس والدفاع عن النفس عند مواجهة الخطر، كلّ ذلك يصدر منه بداعٍ داخلي وكأنّه نداء يسمعه الإنسان من أعماق وجوده.

وأمّا الثاني فهو تلك الأفعال التّي يقوم بها الإنسان بداعٍ خارجي عن ذاته، وذلك كالبيع والشراء والشعر والكتابة إلى غير ذلك.

ولأجل إيضاح النوع الأول، نأتي بأمثلة للأفعال الفطرية الّتي مبدأها الأُمور التالية (وكلّ ذلك داخل تحت ما ذكرنا وهو أنّ الإنسان كأنّه يسمع نداءً من صميم ذاته) :

١. الغريزة الجنسية نظير ميل كلّ جنس إلى مخالفه من الأُمور الفطرية التي تتجلّى لدى كلّ فرد من أبناء البشر في سنين متفاوتة. فكلّ أبناء البشر ـ بلا استثناء ـ يميلون في هذه الفترة من العمر إلى الزواج واللقاء الجنسي دون أن يدعوهم إلى ذلك داعٍ أو مبلّغ ودون أن يسوقهم إلى ذلك مرشد أو معلّم.

٢. الميل إلى الجاه والمكانة الاجتماعية هو الآخر من الأُمور الفطرية التي تنبع من أعماق الباطن البشري، وحنايا النفس الإنسانية. فالحكم على الناس والحصول على المناصب ليس شيئاً لا يريده أحد أو يحتاج إلى تعليم معلّم.

٣. حب المال واكتناز الثروة وجمعها من الأُمور الفطرية كذلك. ألاترى كيف لا يشبع الإنسان من جمع المال، ولا يملّ من تكديس الثروة وكأنّ جبلّته عجنت بطلب الدنيا وحبها.

هذه هي بعض النماذج من الأفعال الفطرية، وهي كما نرى لا تخضع لأي تغيير وتبدلّ كما لا تخضع لأي عامل خارج الذات.

ويقابل ذلك مجموعة من الأفعال العادية التي تخضع لحالة التغيّر والتبدّل باستمرار.

فإذا كانت الحاجة إلى اللباس فطرية، فإنّ كيفية اللباس الذي يلبسه الإنسان ليست فطرية، ولأجل هذا نرى التفاوت الكبير في كيفية الثياب والألبسة والأزياء واختلافها من شعب إلى شعب ومن أُمّة إلى أُخرى.

وقس على ذلك أساليب تجميل النساء وطرق الزينة وزخارف المنازل، فالجميع خاضعة للتغيّر والتبدّل، حيث ينتخب كلّ شعب بنفسه شكلاً من الأشكال.

إلى هنا تبيّن أنّ الأفعال الصادرة من الإنسان على نوعين: فطرية وعادية، وقد تبيّن بفضل الأمثلة وجود القسمين ولكن يمكن بيان ضابطة لتمييز الفطرية عن العادية:

١. الأُمور الفطرية تتّسم بالشمولية والعمومية فلا تجد إنساناً خالياً منها بخلاف الأُمور العادية، فلكلّ قوم لون خاص.

٢. الأُمور الفطرية تتحقّق بوحي الفطرة ولا تحتاج إلى تعليم معلم بخلاف الأُمور العادية، فهي تخضع لذلك.

٣. الأُمور الفطرية لا تخضع لتأثير العوامل السياسية والاقتصادية والجغرافية وهي فعّالة في حياة الإنسان؛ بخلاف الأُمور العادية فإنّها تستمد من هذه العوامل، ولذلك لم تزل كيفية الألبسة والأبنية متغيّرة حسب ارتفاع الأسعار وانخفاضها كما تختلف كيفية الأبنية على ساحل البحر عن الأبنية في المناطق النائية عنه.

٤. الدعايات المكثّفة ضد الأُمور الفطرية قد تضعفها ولكن لا تستأصلها بخلاف الأُمور العادية، فإنّ الدعايات ربّما تقلبها رأساً على عقب. ومثال ذلك أنّ النظام الحاكم في الاتحاد السوفيتي حاول ـ لسنوات طويلة ـ غسل الأذهان عن الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وسخّر لذلك وسائل الإعلام المتطوّرة والدعايات المختلفة، ولكنْ فشلت دعاياتهم وبطلت أساليبهم؛ والدليل على ذلك أنّه لمّا انهار الاتحاد السوفيتي الّذي كان الحزب الشيوعيّ الإلحاديّ يستبدّ بحكمه، ونال الناس حريتهم، أخذ المسلمون يتوجّهون إلى مساجدهم والمسيحيون إلى كنائسهم واليهود إلى بِيَعهم، كلّ ذلك يدلّ على أنّ الأُمور الفطرية التي لها جذور في حياة الإنسان لا تُقلَع بسهولة.

أُصول الأُمور الفطرية عند بعض المحلّلين

ذهب بعض المحلّلين إلى أنّ أُصول الأُمور الفطرية أربعة، وإليك بيانها:

١. غريزة حبّ الاستطلاع

وهذه الغريزة هي التي دفعت وتدفع الفكر الإنساني ـ منذ البداية ـ إلى البحث وإلى دراسة المسائل والمشاكل والسعي لاكتشاف المجهولات وفكّ الرموز واستكناه الحقائق. وهي الغريزة التي نشأت في ظلّها العلوم والصناعات، وتوسّعت المعارف وتطوّرت وتقدّمت. وهي الغريزة التي ساعدت المكتشفين والمخترعين منذ القدم، وكانت عوناً لهم على مواصلة البحث المُضني لاكتشاف ألغاز الطبيعة وأسرار الحياة وكشف القناع عنها، وتحمّل كلّ الصعوبات والمتاعب في ذلك الطريق الوعر.

٢. غريزة حبّ الخير

وهي منشأ ظهور الأخلاق، ومعتمد الفضائل والسجايا الإنسانية والصفات النفسانية المتعالية. وهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى أن يحبّ بني نوعه ويطلب العدل والحق والسلام.

وهي التي توجد في المرء نوعاً من الميل الفطري الباطني إلى الأخلاق النبيلة والسجايا الحميدة ونفوراً من الرذائل والصفات الذميمة.

٣. غريزة حب الجمال

وهي منشأ الفنون الجميلة قديماً وحديثاً وسبب ظهور الأعمال الفنية في شتّى مجالات الحياة.

٤. غريزة التديّن

وتعني بأنّ كلّ فرد من أبناء الإنسان يميل بنحو ذاتي وفطري، وبحكم غريزته إلى ما وراء الطبيعة ويميل إلى التديّن، وينجذب عفوياً إلى معرفة ما وراء الطبيعة والقوّة الحاكمة على هذا الكون الذي يعيش ضمنه، ويكون وجود الإنسان فرعاً من وجوده وجزءاً من أجزائه.

ولقد أوجد اكتشاف هذا الشعور وهذا البعد الأخير حركة عظيمة في الأوساط العلمية، إذ حطّ هذا الاكتشاف العلمي المهمّ من غرور ماديّي القرن العشرين وكبريائهم.

وإذا كان إنكار ما وراء الحسّ «الميتافيزيقيا» دليلاً على الفهم والعلم والتحقيق ذات يوم، فقد أصبح هذا الأمر ـ بعد اكتشاف البعد الرابع ـ علامة الجهل والتعصّب والتحجّر، والإنكار لأبده الحقائق الحاضرة.

إذا تبيّن ما ذكرنا يظهر لك أنّ الدين عقيدة وشريعة أمر فطري يصير الإنسان إليه بدافع داخلي.

أمّا الصانع وتوحيده فقد ظهر ممّا ذكرنا من أنّ الاعتقاد بما وراء الطبيعة أقدم شيء في حياة الإنسان، وسيوافيك في تفسير الآيات أنّ الإنسان مهما توغّل في المادّية يلجأ إليه عند طروء المصائب؛ وأمّا الشريعة فكفى في ذلك كون أُصولها أمراً فطرياً، ويشهد لذلك أنّه سبحانه بعد ما يذكر بعض هذه الأُصول، يصف الغاية بقوله: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، مشعراً بوجود جذور هذه الأُصول في فطرته وخلقته غير أنّه ربّما يغفل ويحتاج إلى التذكّر، يقول سبحانه :(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) النحل:٩٠. فقوله: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أفضل دليل على أنّ الإنسان سائر على هذه الأُصول وفق دعوة الفطرة.

وأنت إذا تفحّصت عن الأُصول الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي دعا إليها الإسلام لرأيتها تنسجم مع الفطرة، ولذا يقبل الإنسان الأحكام المستندة إليها بسهولة حتى تلك الأحكام التشريعية الّتي تجعل للأزواج ـ في نظام الأُسرة ـ القوامة على الزوجات، كما قال تعالى: (اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) النساء:٣٤..

إنّه سبحانه يصف ما جاء به في مجال التشريع حكمة، وقد بدأ في سورة الإسراء شيئاً من هذا التشريع الموافق للفطرة بقوله: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ـ إلى أن يقول:ـ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) الإسراء: ٢٣ـ ٣٩.فقد تضمّنت تلك الآيات رؤوس التشريع التي لا تشذّ عن الفطرة قيد شعرة.

وقد دلّت السيرة النبوية على أنّ العربي المشرك المتحرّر من أسر العناد، إذا قرئ عليه شيء من الآيات يترك الوثنية ويتوجّه إلى التوحيد؛ وما ذلك إلاّ لأنّه يجد أنّ ما يدعو إليه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر فطريّ يقضي به وجدانه الحرّ؛ فقد روي أنّ أسعد بن زرارة زار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أيام الحجّ وهو في حِجر إسماعيل وسلّم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رأسه إليه وقال: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحيّة أهل الجنة: السلام عليكم» قال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب إلى مَ تدعو يا محمد؟ قال: «إلى شهادة ألاّ إله إلاّ الله وإنّي رسول الله، وأدعوكم إلى: (أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَق نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). الأنعام:١٥١ـ ١٥٢.

فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّك رسول الله ، يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي.... إعلام الورى:١/١٣٨؛ بحار الأنوار:١٩/٨ ـ ٩.

ولعلّ ما ذكرناه يكفي لتوضيح أنّ الدين (عقيدة وشريعة) أمر فطري يميل إليه الإنسان بوازع داخلي، ولا يصدّه عنه إلاّ العوامل الخارجية المؤثرة. إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الآية.

قوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ): أي أقبل عليه بقلب واع غير غافل (لِلدِّين)الظاهر أنّ اللام للعهد والمراد به معرفة الله أو الإسلام عقيدة وشريعة (حَنِيفاً) حال من فاعل «أقم» فيكون حالاً للنبي ويؤيّده أنّه وصف به إبراهيم في قوله تعالى:(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا) النحل:١٢٠.: أي عادلاً عن الباطل إلى الحق؛ وربّما قيل: إنّه حال من الدين أو من الوجه، والأوّل أقرب. (فِطْرَةَ اللّهِ): حال من الدين، ويحتمل أن يكون منصوباً على الإغراء، أي الزمْ فطرة الله ، وفي إضافة الفطرة إلى الله إشعار بأنّ الدين موافق للفطرة، أي أقم وجهك وقلبك إلى الدين الذي هو فطرة الله (التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا): أي خلقهم على تلك الفطرة، وكأنّ الدين عُجن مع خلقتهم فهو يناسبها، وقد أودع الله سبحانه في ذاته خلاصة الدين، حيث أوحى إليها فجورها وتقواها، قال سبحانه:(وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقْوَاهَا) الشمس:٧ ـ ٨.، والله سبحانه قد أكرم الإنسان بهدايتين:

الأُولى: الهداية التكوينية التي بها قوام حياة الإنسان وغيره عبر حياته، وهذا النوع من الهداية يشير إليه سبحانه بقوله:(رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه:٥٠.، وقوله: (الذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالذِي قَدَّرَ فَهَدَى) (الأعلى:٢ـ٣.)

الثانية: الهداية التشريعية التي بها قوام سعادته في الدنيا والآخرة، وهي الّتي يشير إليها سبحانه بقوله: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد:٨ ـ١٠. والمراد من النجدين: سبيل الخير وسبيل الشر، وهما اللّذان تُناط بهما سعادة الإنسان وشقاؤه، فقد فطر الإنسان على كلتا الهدايتين التي تناط بهما حياته المادية والمعنوية.

نعم الهداية الأُولى لا تختصّ بالإنسان بل تعمّ كلّ شيء، كما مرّ.

قوله: (لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ): جملة حالية من الدين، وفيه وجهان:

١. أنّ النفي بمعنى النهي، أي لا يجوز أن تُبدَّل خلقة الله أو تُغيَّر من التوحيد إلى الشرك، فيكون نظير قوله سبحانه:(فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) البقرة:١٩٧..

٢. أن يكون جملة خبرية والنفي على معناها، بمعنى لا يقدر أحد على أن يغيّر خلق الله سبحانه وفطرته بافتراض أنّه فطري وداخل في صميم ذاته.

(ذَلِكَ): أي الدين المأمور بإقامة الوجه له ولزوم الفطرة(الدِّينُ الْقَيِّمُ): أي المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف عن الحق. وأصل القيّم القيّوم، فقلبت الواو ياءً وأُدغمت الياءان(وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)تلك الحقيقة.. حقيقة أنّ الدين المستقيم الّذي فيه نجاتهم وسعادتهم يتجاوب مع فطرتهم ومصالحهم الحقيقية، فيصدّون عنه. وهذا الجهل ناشئ عن اتّباع الهوى الّذي يجعل على قلوبهم غشاوة، فلا يبصرون ما يدلّ عليها.

٣١. (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ):

أمر سبحانه في الآية السابقة بإقامة الوجه للدين إقامة خالصة من كلّ شرك، فذكر للفاعل في قوله: (أقِم) حالين أو وصفين: أحدهما: (حَنيفاً)والثاني ما جاء في هذه الآية من قوله:(مُنِيبِينَ): أي مطيعين ملازمين للطاعة. وفي إفراد الألفاظ في الآية السابقة (فَأَقِمْ وَجْهَكَ)، وجمعها في هذه الآية (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ...)دليل على أنّ الآيتين تشملان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وغيره،

وإلاّ كان يجب أن يقول: منيباً إليه...

قوله: (وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ): التقوى هي خشية الله ومراقبته في السرّ والعلَن، وتتجسّد في اجتناب المحارم والقبائح، والمبادرة إلى الخير والعمل الصالح. وأمّا إقامة الصلاة فتعني المحافظة على أوقاتها وأداءها بحدودها وأركانها، وقد خصّها بالذكر من بين سائر العبادات للتنبيه على فضلها والعناية بأمرها (وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)الذين يبدّلون فطرة التوحيد إلى الشرك.

٣٢. (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ):

قوله تعالى: (مِنَ الَّذِينَ) بيان للمشركين في قوله: (وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشرِكين)فعرّفهم بأنّهم هم الذين(فَرَّقُوا دِينَهُمْ) وأمّا ما هو المراد من التفريق في الدين، فيفسّره قوله: (وَ كَانُوا شِيَعًا)حيث إنّهم ينتمون إلى فِرق مختلفة، كلّ منها يلتزم بعقيدة تختلف عن عقيدة الآخر، فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يعبد النار، وآخرون يعبدون الشمس إلى غير ذلك من الآلهة المكذوبة، بخلاف الموحّدين فإنّهم يعبدون ربّاً واحداً، ولكن (كُلُّ حِزْبٍ): أي كلّ أهل ملّة وفرقة (بِمَا لَدَيْهِمْ) من المعتقدات المنحرفة الّتي صنعتها أهواء النفوس ومآربها (فَرِحُونَ) مسرورون، إذ كلّ حزب يظنّ أنّه على حقّ، ويحسب أنّ الصواب لا يعدوه إلى غيره، دون أن يستند إلى دليل بيّن، وحجّة واضحة.

قال الشريف الرضيّ حول هذه الآية: وهذه استعارة، لأنّ الدين على الحقيقة لا يتأتّى فيه التفريق، وإنّما المراد ـ والله أعلم ـ أنّهم لمّا افترقوا في دينهم بمذاهب مختلفة وطرائق متباينة، كانوا كأنّهم فرّقوه فِرَقاً وجعلوه شِيَعاً فحسن وصفهم بذلك. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٢.

إلى هنا تمّ تفسير الآيات. بقي هنا كلام وهو أنّ كون الدين فطرياً على ضوء الروايات.

الشعور الديني الفطري في الأحاديث

نظراً للأهمية التي تتمتّع بها مسألة فطرية الحسّ الديني في العلوم الإنسانية، وردت بعض الأحاديث الصادرة من النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، والأئمة الطاهرين الصادقين(عليهم السلام) التي تتحدّث عن ذلك، منها:

ما رواه البخاري بإسناده عن أبي هريرة، قال: قال رسول (صلى الله عليه وآله وسلم):«ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانِهِ أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ...» ثم يقول: (فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا). صحيح البخاري:٣ / ٢٥٧ برقم ٤٧٧٥ ، كتاب التفسير؛ تفسير البرهان:٣/٢٦١، الحديث٥؛التاج الجامع للأُصول:٤/١٨٠.

وقد ورد في أحاديث أهل البيت(عليهم السلام) في تفسير آية الفطرة ما يقارب (١٥) حديثاً ففُسّرت تارة بالتوحيد، بمعنى أنّ توحيد الله والإيمان بذاته ووجوده وصفاته ممّا جُبل عليه البشر وعُجنت به فطرته. راجع: التوحيد للصدوق:٣٢٨ـ ٣٣١؛ تفسير البرهان:٣/٢٦١ـ ٢٦٣.

وأُخرى بـ «الإسلام»، وثالثة بـ :«معرفة الله » التي تعود في الحقيقة إلى المعنى السالف.

أمّا ما صرّح منها بالتوحيد، فقد روي عن زرارة عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) في قوله عزّ وجلّ:(فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)قال(عليه السلام):«فطرهم على التوحيد». التوحيد للصدوق: ٣٢٩، الحديث٤، الباب ٥٣(باب فطرة اللهِ عزّ وجلّ الخلق على التوحيد).وأمّا تفسير الفطرة بالإسلام، فقد روى عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق(عليه السلام) لمّا سأله عن قول الله عزّ وجل:(فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

ما تلك الفطرة؟ قال(عليه السلام):«هي الإسلام». التوحيد للصدوق: ٣٢٩، الحديث٣.وأمّا تفسير الفطرة بالمعرفة، فقد روى زرارة عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ:(حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ)وعن الحنيفية؟ فقال الإمام(عليه السلام):

«هي الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله». ثم قال: «فطرهم الله على المعرفة». التوحيد للصدوق: ٣٠، الحديث٩.ولعلّ الجميع بصدد بيان الفرد الأعلى، وإلاّ فالظاهر عموم الدين للعقيدة وأُصول الشريعة.

سورة الروم: الآيات ٣٣ ـ ٣٧ (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ... لآيَات لِقَوْم يُؤْمِنُونَ).

الآيات: الثالثة والثلاثون إلى السابعة والثلاثين

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يُؤْمِنُونَ).

المفردات

مسّ: المسّ كاللّمس، ولكنّ اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، والمسّ يقال في ما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمس، واشتمل المسّ في الآية على كلّ ما ينال الإنسانَ من أذى. مفردات الراغب: ٤٦٧، مادة«مسّ».

أذاقهم: الذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر.

سلطاناً: السلطان: الحجّة أو الكتاب.

يقنطون: القنوط: اليأس من الخير.

يقدر: يضيّق.

التفسير

٣٣. (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ):

قد تقدّم في الآيات السابقة أنّ معرفة الله وتوحيده أمر فطري جُبل عليه الإنسان، فالتوحيد داخل في صميم ذاته، وقد يَخفى الشعور الديني نتيجة عوامل مادّية تنكرها الفطرة، لكنّه يتجلّى عند الشدائد والمصائب، وكأنّ الأستار على الفطرة تتراجع وتنسحب فتتجلى الفطرة بأجلى مظاهرها خصوصاً إذا واجه الإنسانَ خطر فظيع، أو ألمّت به مصيبة فادحة، وهذا ما تشير إليه الآية.

قوله: (وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ)كما إذا أصابهم مرض أو فقر أو شدّة أو سجن فعندئذ (دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ): أي منقطعين إليه ومخلصين بالدعاء.

وقد ورد هذا المضمون في آيات عديدة، منها ما ورد في سورة الإسراء:(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ). الإسراء:٦٧. وتدوم حالة التضرّع والابتهال إليه تعالى مادامت حالة الضرّ سائدة حاكمة، ولكن (ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً)كما إذا نَضا عنهم ثياب المرض أو الفقر، عادوا إلى حالتهم السابقة، كما يقول: (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ): أي يعودون إلى عبادة غيره أو ينسون الله تبارك وتعالى. وقد أُشير إليه أيضاً في ذيل آية الإسراء المتقدّمة (فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا).(الإسراء:٦٧.)

وهذه الآيات إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أمرين:

الأوّل: رحمته الواسعة التي تشمل الإنسان الذي يعلم سبحانه أنّه كفور بعد نزول الرحمة وزوال الضرّ.

الثاني: أنّ الفطرة مصباح ينير الدرب ويسوق الإنسان إلى الطريق السويّ، ومع ذلك فهي مقهورة وقد تُطمس غبّ الأفكار الضالّة والآراء الباطلة والعوامل المادّية التي تنسي الآخرة، فلذلك بعث سبحانه إلى الناس الأنبياء «لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ

مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ».(نهج البلاغة: الخطبة ١.)

قال ابن أبي الحديد: ومعنى قوله (عليه السلام): «لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ»: أنّه لما كانت المعرفة به تعالى وأدلّة التوحيد والعدل مركوزة في العقول، أرسل سبحانه الأنبياء أو بعضهم ليؤكّدوا ذلك المركوز في العقول، وهذه هي الفطرة المشار إليها بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «كلّ مولود يولد على الفطرة».شرح نهج البلاغة: ١ / ١١٥.

٣٤. (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ):

هذه الآية تقدّمت ـ باختلاف يسير ـ في سورة العنكبوت حيث قال تعالى:(فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). العنكبوت:٦٥ـ ٦٦. وقد ذكرنا أنّ في تفسير الآية وجهين:

١. أنّ هذا النوع من الأمر يعتبر تهديداً نظير قوله سبحانه:(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).(فصّلت:٤٠.)

٢. أن تكون اللام لام العاقبة، والمعنى يكفرون بما آتيناهم من النّعم ويتمتّعون بالدنيا (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة كفرهم، وهو إشارة إلى ما ينتظرهم من عذاب عند المصير إليه سبحانه.

٣٥. (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ):

لمّا تقدّم تهديد القوم بقوله:(فَتَمَتَّعُوا) أعقبه بهذا التوبيخ والتبكيت: (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا) وهو بمنزلة الاستفهام الاستنكاري، أي: ما أنزلنا عليهم سلطاناً، أي برهاناً يعتمدون عليه فهو ـ أي السلطان ـ (يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) فالفقرة بمعنى النفي، أي ما أنزلنا عليهم سلطاناً يتكلّم بما يدّعونه من الإشراك مع الله في العبادة حتى يتّخذوه سنداً!! وهو نظير قوله سبحانه:(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ).(الزخرف:٢١.)

قال الشريف الرضيّ: وهذه استعارة، والمراد بالسلطان هاهنا البرهان على أحد التأويلين، وهو الحقّ الذي يتسلّط به الإنسان على مخالفه ويظهر على منازعه، وإنّما وصفه سبحانه بالكلام لظهور حجّته وقوة دعوته فكأنّه ناطق ومدافع مناضل. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٦٤.

٣٦. (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ):

تقدّم في الآية الثالثة والثلاثين أنّه إذا نزل البلاء بالمشركين توجهوا إلى الله ضارعين، وإذا شملتهم الرحمة نسوا الله وعادوا إلى ما كانوا عليه، وفي هذه الآية يذكر حالة أُخرى له، وهي أنّهم إذا شملتهم الرحمة استبدّ بهم الفرح والسرور ، كما يقول: (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا) فلفظة (أَذَقْنا)تدلّ على نزول قليل من الرحمة ولكنّهم مكان أن يشكروا يفرحون، فكأنّهم نسوا مبدأها و مُنْزِلها، وإن انقلب الأمر كما يقول سبحانه:(وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) ضد الرحمة (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) من المعاصي (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ): أي ييأسون من الرحمة، غافلين عن أنّ قسماً من المصائب التي تحلّ بالإنسان، هي نتيجة أعماله وذنوبه، فالسيئة التي حاقت بهم نتيجة ما كسبت أيديهم.

وهنا سؤال وهو: أنّه سبحانه وصف المشركين في الآية الثالثة والثلاثين بأنّهم إذا مسّهم الضرّ دعوا ربهم منيبين إليه، ولكنّه سبحانه في هذه الآية وصفهم بأنّه إذا أصابتهم سيئة صاروا قانطين، أي غير داعين وغير منيبين؟

وبعبارة أُخرى: أنّ مقتضى هذه الآية أنّ الله إذا أعطى المشرك، فرح وإذا منعه سخط وقنط، ولكن مقتضى الآية المتقدّمة أنّه إذا أصابه الضرّ دعا الله سبحانه وأناب إليه، وإذا كشف عنه الضرّ عاد إلى ما كان عليه ، فكيف يمكن التوفيق بينهما؟

والجواب: أنّ الموضوع في الآيتين مختلف فالموضوع في الآية الأُولى هو أنّ المشرك إذا حاق به البلاء فعندئذ تنجلي فطرته ويدعو الله منيباً إليه، فإذا انكشف البلاء، نسي الله سبحانه وعاد إلى الشرك.

وأمّا الموضوع في الآية الأُخرى فهو أنّ المشرك إذا مسّته الرحمة فعندئذ يفرح بها، دون أن يتفكّر في مبدئها ومنزلها ويكون شاكراً، وإذا سُلبت عنه النعمة بما كسبت أيديه من السيئات، يكون قانطاً ساخطاً.

وللسيد الطباطبائي هنا بيان آخر يقول: إنّ مدلول هذه الآية أنّ أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا، وإذا فقدوا قنطوا، ومدلول تلك أنّهم إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا دعوا الله منيبين راجعين إلى الله سبحانه، فلا تدافع. الميزان في تفسير القرآن:١٦/١٨٤.

٣٧. (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

لمّا تضمّنت الآية السابقة قنوط المشرك عند إصابة السيئة، عاد البيان القرآني إلى التصريح بجهلهم بسنن الله تبارك وتعالى في الناس، وهو أنّ بسط الرزق وضيقه من سنن الله تبارك وتعالى، فلو بسط فبملاك ولو قدَر فبملاك آخر كما قال:(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ): أي يضيّقه على من يشاء(إِنَّ فِي ذَلِكَ): أي بسط الرزق وضده (لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بحكمته، كما قال الشاعر:

نكَدُ الأريب وطيب عيش الجاهلِ *** قد أرشداك إلى حكيم كاملِ

سورة الروم: الآيتان ٣٨ ـ ٣٩ (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ).

الآيتان :الثامنة والثلاثون والتاسعة والثلاثون

(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ).

المفردات

حقّه: أُريد به نفقة الأقارب كالآباء وإن علَوا والأبناء وإن نزلوا، أو الأعمّ وهو صلة الرحم والبرّ بهم وإن لم يكونوا واجبي النفقة .

المسكين: المُعْدم الذي لا مال له.

ابن السبيل: المسافر الذي نفدت نفقته وهو في أثناء الطريق وهو غنيّ في بلده.

رباً: زيادة.

التفسير

٣٨. (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ):

لمّا بيّن سبحانه أنّه يبسط الرزق لمن يشاء، أمر أصحاب السعة والمال أن ينفقوا على الآخرين ويعطوهم حقوقهم، وهم كالتالي:

الأوّل: ذو القربى، أي صاحب القرابة، إمّا أراد مَن تجب نفقته، أو الأعمّ.

الثاني: المسكين، وهو الذي يفقد كلّ إمكانيّات الحياة.

الثالث: ابن السبيل، وهو الذي انقطع في سفره وليس عنده شيء يوصله إلى وطنه. والخطاب في قوله سبحانه:(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) وإن كان للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكنّ القرائن تشهد أنّه حكم إلهي يعمّ أصحاب السعة والمال.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر الأثر الإيجابي لذلك الإنفاق والإعطاء بشرط أن يكون الدافع إليه امتثال أمر الله سبحانه وابتغاء مرضاته كما يقول: (ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ) لأنّه سبحانه سوف يضاعف لهم الجزاء عليه (وَ)في النهاية (أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ): أي الفائزون برضوان الله وفضله الكبير.

والآية تدلّ على عناية الإسلام بالأُسرة أوّلاً، والمجتمع ثانياً. أمّا الأُسرة فلقوله: (ذَا الْقُرْبَى)، وأمّا المجتمع فللأمر بالإنفاق على المسكين وابن السبيل.

وأمّا إيجاب الإنفاق فلأنّ كلّ نعمة تصل العبد تستوجب الشكر، والشكر كما يتحقّق بالذكر اللساني في موارد، يتحقّق بالعمل في موارد أُخرى، فليس للإنسان الغنيّ أن يتصوّر أنّ المال له وأن ليس للآخرين حقّ في ماله، بل يجب أن يؤمن أنّ المال مال الله ، وأنّ الأغنياء وكلاؤه في الأرض كما يقول سبحانه:(وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) الحديد:٧. وعندئذ لا يمسك يده عن البذل والعطاء. وللتشريع الإسلامي عناية خاصّة بالإنفاق كتاباً وسنّة يقف عليها من رجع إلى مواضعه. وممّا ورد في الحثّ عليه:

١. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع. وما من أهل قرية يبيت وفيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة». الكافي:٢/٦٦٨ برقم ١٤، كتاب العِشرة، باب حق الجوار.

٢. وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِنَّ للهِ عِبَاداً يَخْتَصُّهُمُ اللهُ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا؛ فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ». نهج البلاغة: الحكمة ٤٢٥ .

٣. وقال الإمام الحسن السبط (عليه السلام): «المعروف ما لم يتقدّمه مَطْلٌ ولا يتبعه مَنٌّ، والإعطاء قبل السؤال، من أكبر السؤدد».(بحار الأنوار : ٧٥ / ١١٣ .)

٤. وقال الإمام علي بن الحسين، زين العابدين(عليه السلام)، وهو يخاطب الزُّهري (في خبر طويل): «إنّما الاستعداد للموت تجنّب الحرام، وبذل الندى والخير». علل الشرائع: ٨٨ ؛ وسائل الشيعة: ٤ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

ونعم ما يقول القائل:

إذا جادت الدنيا عليك فجُد بها *** على الناس طُرّاً إنّها تتقلّبُ

فلا الجود يُفنيها إذا هي أقبلت *** ولا البخل يُبقيها إذا هي تذهبُ

٣٩. (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاة تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ):

لمّا أمر سبحانه بالإيتاء الذي أُريد به الإعطاء للأرحام وذوي الحاجة، أرشد إلى أنّ ما يُنفق من مال يجب أن يكون لله وطلباً لمرضاته إذ هو الذي يزيد ويُبارَك فيه عند الله ، وأمّا إذا أُريد به غير وجه الله فلا يزيد عند الله سبحانه كما يقول: (وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا): أي مَن قدّم للناس العطاء من غير نيّة القُربة، وإنّما (لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ): أي ليزيد بذلك أموال الناس (فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ): أي لا يزيد عنده ولا ينمو (وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاة): أي من صدقة (تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ): أي هم الذين يضاعف لهم ثواب ما أعطَوا.

وعلى هذا التفسير فأُريد من قوله: (مِنْ رِبًا) العطية لا لوجه الله ، وأُريد من قوله:(مِنْ زَكَاة): الصدقة المستحبّة لله سبحانه، فالأُولى لا تربو عند الله ، والثانية تربو بأضعاف مضاعفة.

وهناك احتمال آخر أقوى ممّا ذكر وهو أن يراد بالرّبا: الفائدة الّتي يحصل عليها صاحب المال من المَدين، وكان الرّبا من الظواهر الفاشية في زمان الجاهلية بين العرب الذين كانوا يردّدون قولهم: (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)والمراد من الزكاة هو الزكاة الواجبة، فمن أقرض ماله لأخذ الربا ليزيد في أمواله لن يحصل في الآخرة على أي شيء، وأمّا من أعطى الزكاة الواجبة لله سبحانه فهؤلاء هم الذين يثابون بأفضل ما عملوا.

وهذا الاحتمال لا ينافي كون السورة مكية لأنّ غالب آياتها مكية، أو أنّ ذكر الرّبا هنا يمكن أن يكون إرهاصاً مكيّاً بكراهية الرّبا الّتي جاءت بأُسلوب تشريعي تحريميّ في القرآن المدني وفقاً لأُسلوب القرآن المكيّ والمدنيّ، حيث يجنح الأُسلوب المكي إلى الحظر بالتخويف من عقاب الله الدنيوي والأُخروي وبيان مضارّ المحظور، في حين يجنح الأُسلوب المدنيّ إلى التشريع، لإمكانية تنفيذه في ظلّ الدولة الّتي أقامها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم). انظر: التفسير الحديث: ٥ / ٤٥٤ .

قال الشريف الرضي: المراد بالرِّبا هاهنا المال الذي يعطيه الإنسان غيره ليعطيه أكثر منه على الوجه المنهيّ عنه، وأصل الربا الزيادة والكثرة، وإنّما سمّي المال المعطى الذي يلتمسون به الزيادة ربا، لأنّه جعل غرضه لطلب الزيادة ووصلته إليها علّة لها، فحسن تسميته بذلك للسبب الذي ذكرناه.

ومعنى قوله:(لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ): أي ليزيد في أموال الناس وليس قوله سبحانه هاهنا بمعنى ليكون مدداً لأموال الناس (كما هو الحال في التفسير السابق) فتزيد به، وإنّما المعنى ليزيد هو بدخوله في أموال

الناس، ودخوله فيها هو أنّ صاحبه يعطيه الناس ليأخذ منهم أكثر منه، فإذا ما كره وأراد التعويض عنه بالقدر الزائد عليه كان كأنّه قد ربا أي كثر. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٣.كلام في نزول الآية ٣٨ في إعطاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فدكاً

روى الطبرسي في «المجمع» قال: روى أبو سعيد الخدري وغيره: أنّه لمّا نزلت هذه الآية على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى فاطمة(عليها السلام) فدكاً وسلّمه إليها، وهو المروي عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام) وأبي عبد الله]الصادق [(عليه السلام).

والشيخ الطبرسي اقتصر على رواية واحدة ولكنّ القوم رووا نزولها فيما ذكرناه في غير واحد من كتبهم، نذكر منها ما يلي:

ما رواه الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» بسند متصل إلى ابن عباس قال: لمّا أنزل الله :(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة وأعطاها فدكاً، وذلك لصلة القرابة: (وَالْمِسْكِينَ)الطوّاف الذي سألك، يقول: أطعمه (وَابْنَ السَّبِيلِ): وهو الضيف، حث على ضيافته ثلاثة أيام، وإنّك يا محمد إذا فعلت هذا فافعله لوجه الله (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) يعني أنت ومن فعل هذا من الناجين في الآخرة من النار الفائزين بالجنّة. شواهد التنزيل:١/٤٣٩، تحقيق محمد باقر المحمودي

ورواه بسند آخر عن عطية عن أبي سعيد قال: لمّا نزلت(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) أعطى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة فدكاً. شواهد التنزيل:١/٤٤٠.

سورة الروم: الآيات ٤٠ ـ ٤٥ (اللَّهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ ... إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ).

الآيات: الأربعون إلى الخامسة والأربعين

(اللَّهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ).

المفردات:

البَرّ: الفيافي والقفار ومواضع القبائل.

البحر: كلّ مكان واسع جامع للماء الكثير ثم يكنّى به عن التوسّع، يقال: وجدته بحراً، ويطلق التبحّر على التوسّع في العلم.

وفي «مفردات الراغب»:(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) قيل: أراد في البوادي والأرياف لا فيما بين الماء. وعلى ما ذكره فالبحر هنا بمعنى المدن؛ وربّما يؤيّد بما قاله سعد بن عبادة في عبد الله بن أُبيّ ابن سلول: ولقد أجمع أهل هذه البحيرة(المدينة) ليتوّجوه.

ونقل عن ابن عباس أنّه قال: البَرّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر. ومع ذلك لا وجه لرفع اليد عن ظهور البحر فيما هو الرائج بين الناس.

مردّ: المردّ: مصدر ميمي من الردّ وهو الدفع والصرف.

يصّدّعون: الصَّدْع: الكسر والشَّقّ ومنه تصدّع القدَح. وأصل يصّدّعون يتصدّعون فقلبت التاء صاداً لتقارب مخرجيهما ثم أُدغمت الصادان.

التفسير

٤٠. (اللّهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ):

هذا هو المقطع الثاني من المقاطع التي احتجّ بها سبحانه على ربوبيّته وإبطال الشرك وإثبات المعاد، وبدأ المقطع بلفظ الجلالة خلافاً للمقطع السابق، وذكر من أفعاله الدالة على ربوبيّته أُموراً أربعة:

١. الخلق ٢. الرزق ٣. الإماتة. ٤. الإحياء يوم القيامة.

وقال: (اللّهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ).

ومن المعلوم أنّ هذه الأفعال من شؤونه سبحانه وليس لأحد من شركائهم الّذين يعبدونهم نصيب فيها، ولذلك يقول:(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْء) و (مَنْ يَفْعَلُ) مبتدأ تقدّم عليه خبره وهو (مِنْ شُرَكَائِكُمْ) والاستفهام إنكاري يتضمّن معنى النفي، والإشارة في قوله:(ذَلِكُمْ) إلى الخلق والرزق والإماتة والإحياء المفهومة من الأفعال المذكورة، والمعنى: ما من شركائكم من يفعل شيئاً من ذلكم. وإذا كان سبحانه هو القائم بهذه الأفعال فهو المدبّر والمدير، ومن ثمّ هو المعبود لا الشركاء، ولأجل تنزيهه وتقديسه عمّا يزعمه الوثنيون من ثبوت الربوبيّة للشركاء، قال : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

٤١. (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ):

يشير قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)إلى سنّة من سنن التاريخ، تتمثّل في العلاقة الّتي تربط بين الإنسان والأرض.. بين مواقفه وخيراتها برّاً وبحراً، وهي علاقة مسبَّب بسبب، فالفساد الّذي ينتشر في الأرض، ويشمل المجالات الاقتصادية والأخلاقية والأمنية والصحية، إنّما هو ـ وفق النظرية القرآنية ـ من صنع الناس الّذين يمارسون ألوان الظلم والاستغلال والأعمال السيئة، نتيجة إعراضهم عن الله تعالى، وبُعدهم عن خطّ الدين الّذي يرسم لهم النظام الاجتماعي المنسجم مع مصالحهم الحقيقية، ويكفل لهم السعادة والرخاء والهناء.

وبكلمة أُخرى: إنّ للإنسان بسلوكه الشاذّ النابع من إرادته واختياره والمعبّر عن فساد محتواه الداخلي.. إنّ له دوراً في خلق الأزمات الحادّة والكوارث والمحن وغيرها من مظاهر الفساد في البرّ والبحر.

وهذه العلاقة بين ظهور الفساد وما كسبت أيدي الناس لا يتُوصّل إليها بالأدوات العلمية وفي زمن قصير، وإنّما من خلال تجربة اجتماعية يمارسها المجتمع وتمتد لفترة طويلة، وقد صرّح سبحانه بوجود هذه العلاقة في واحدة من الآيات وقال:(وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) الأعراف:٩٦.. ولأجل إعلام الناس أنّ هذا الفساد إنّما هو نتيجة أعمالهم يقول:(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوا)اللام لام العاقبة، أي ينتهي فساد أعمالهم لإذاقة بعض الذي عملوه نظير قوله: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) . القصص:٨.وإنّما لم يذقهم سبحانه كلّ الذي عملوا تفضّلاً منه وكرماً، كما قال في آية أُخرى: (وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَة فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِير) الشورى:٣٠..

وعلى كلّ تقدير يذيقهم (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ): أي رجاء أن يرجعوا من شركهم إلى التوحيد، والآية تتضمّن ـ كما قلنا ـ سنّة من سنن الله سبحانه على وجه البسيطة ولا تختصّ بعصر دون عصر فما في بعض التفاسير بتخصيص مورد الآية ببعض الموارد من قبيل تطبيق الكلّ على مصداقه .

ثمّ إنّ الظاهر من قوله:(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوا) أنّ ما يذوقه الإنسان في الآخرة هو نفس ما عمله في الدنيا لكن بثوب آخر.

٤٢. (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ):

لمّا نبّه سبحانه بأنّ حلول الفساد في البر والبحر الذي يتضرّر به البشر عامة نتيجة أعمالهم، عرض عليهم السير في الأرض حتى يعتبروا بمصائر أقوام أشركوا مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، فإنّ كثيراً من مشركي مكّة ومن والاها يمرّون على ديارهم وقال:(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)للاتّعاظ والاعتبار (فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ) من الأقوام العاتية والأُمم العاصية كيف أهلكهم الله حتى صارت قصورهم قبورهم حيث (كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المتأخّرون. نعم بعض تلك الأُمم لم يكونوا مشركين ولعلّهم أُهلكوا لأعمالهم الفاسدة.

أمر سبحانه في هذه الآية، وفي آيات كثيرة أُخرى آل عمران:١٣٧، الحج:٤٦، يوسف:١٠٩، فاطر:٤٤، غافر:٢١ و ٨٢، محمد:١٠. بالسير في الأرض ولكن الغاية من هذا السير هو أخذ العبرة من مصير المشركين والكافرين والمستكبرين على خلاف ما هو السائد في أيامنا الحاضرة، فإنّ الغاية، في هذه الأيام، من السياحة من الغرب إلى الشرق أو بالعكس إمّا التجسس لصالح الدول الاستعمارية حيث يستكشفون خلال سياحتهم في المدن والصحاري أسرار البلاد، وأسباب ضعف الشعوب وقوّتها، أو أن تكون الغاية هي الترفّه وإشباع الأهواء والشهوات.

٤٣. (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ):

لما بيّن سبحانه مصير المشركين أمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في الظاهر وجميع المؤمنين ـ في الباطن ـ بالحذر منه والتوجّه إلى التوحيد، فابتدأ بفاء الفصيحة أي إذا كان أمر المشركين على ما مرّ (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ)أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ) أي لا يقدر أحد على ردّه، يعني يوم القيامة، فالناس (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ): أي يتفرّقون، كما قال سبحانه: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ). الشورى: ٧

وربما يقال بأنّ المراد تفرّق الناس بأشخاصهم كما يشير إليه قوله: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)(القارعة:٤.)، روح المعاني:٤٩/٢١. ولكن الظاهر هو المعنى الأوّل بشهادة الآية التالية.

٤٤. (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ):

أي (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ) وبال كفره وهي الجحيم، (وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ): أي يوطّئون لأنفسهم كما يوطئ الرجل لنفسه فراشه لئلاّ تؤذيه أحجار الأرض وصلابتها، يقول الطبرسي:من أصلح عمله فكأنّه فرش لنفسه في القبر والقيامة وسوّى مضجعه ومثواه، وروى منصور بن حازم عن أبي عبد الله (عليه السلام):«إنّ العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة فيمهّد له كما يمهّد لأحدكم خادمه فراشه». مجمع البيان:٧٢/٨.

ثمّ إنّه سبحانه أفرد الضمير في الكافر وقال: (فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)وجمعه في جانب المؤمن وقال: (فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)، ولعلّ وجهه تحقير قدرهم وإن كانوا كثيرين عدداً، وتكريم المؤمنين وإن كانوا أقلّ منهم عدداً.

يقول الشريف الرضيّ حول الآية: وهذه استعارة ومعنى (يَمْهَدُونَ)هاهنا أي يوطّئون لجنوبهم ويمكّنون لأقدامهم عند مصارع الموت ومواقف البعث وذلك كناية عن تقديم العمل الصالح والمتجر الرابح تشبيهاً بمن وطّأ لمضجعه بالفُرش الوثيرة والنمارق الكبيرة. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٤.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر خصوص العمل الصالح مع أنّه لا يُقبل بلا إيمان.

أقول: إنّما ذكره لوضوحه، مضافاً إلى التصريح به في الآيات التالية:

٤٥. (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ):

سبق في الآية المتقدّمة أنّ أصحاب العمل الصالح يمهدون لأنفسهم لِما بعد الموت، ومن المعلوم أنّ تمهيد الفراش يكون لغاية من الغايات، والغاية هنا هي إحراز ما في الآخرة من نعيم ورضوان، كما قال: (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) على قدر استحقاقهم، ومع ذلك يزيدهم (مِنْ فَضْلِهِ) فالآية تجمع بين أمرين: جزاء استحقاق، وجزاء تفضّل.

ويمكن تفسير الآية بشكل آخر، وهو أنّ الجزاء كلّه من فضله وعن وجه التفضّل، فيكون الجزاء جميعاً من فضله سبحانه دون أن يكون هناك استحقاق، وما ذلك إلاّ لأنّ ما يقدّمه الإنسان الصالح ليس ملكاً له بل هو وعمله ملك لله سبحانه.

قوله تعالى:(إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) كأنّه تعليل لحصر الجزاء من فضله على المؤمنين فقط، فإنّ كلاًّ من الكافر وعمله مبغوض من قبل الله تعالى، فلا يستحقّ الجزاء الجميل.

سورة الروم: الآيات ٤٦ ـ ٥٣ (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَات ...ِ لاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

الآيات: السادسة والأربعون إلى الثالثة والخمسين

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَات وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ * اللهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ * فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ):

المفردات

مبشّرات: من البشارة، وهي الخبر السارّ.

أجرموا: الجرم: أصله قطع الثمرة من الشجر، واستعير لكلّ اكتساب مكروه.

تثير: تحرّك.

يبسط: ينشر.

كِسَفاً: قِطَعاً.

الوَدْق: المطر.

خلاله: واحدها خلل، وهو الفرجة بين الشيئين.

مُبلسين: آيسين.

مصفرّاً: من الصفرة، وهي لون معروف، وهل هي صفة للأشجار والنبات، أو للسحاب أو للريح؟ هذا ما سيوافيك بيانه.

التفسير

قد تقدّم أنّ من أغراض السورة التأكيد على التوحيد في الربوبيّة، ومن ثمّ على التوحيد في العبادة، وقد مرّ قسم من دلائله في الآيات التي ابتدأت بقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ) . الروم: ٢٠ـ ٢٥. فعاد هنا إلى ذكر الآيات التي ترشدنا إلى تفرّده في الربوبيّة أيضاً، وهو أنّه سبحانه يرسل الرياح مؤذنة بالخير والمطر، ويقول:

٤٦. (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَات وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ):

أي(وَ مِنْ آيَاتِهِ) الدالّة على ربوبيّته (أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ) فإنّ للرياح دوراً في سَوق السحاب الحامل للمطر من مكان إلى آخر، كلّ ذلك بأمر الله تعالى. ثمّ إنّه سبحانه يذكر أنّ الغاية من إرسال الرياح هي الأُمور الخمسة التالية:

١. (مُبَشِّرَات) تبشّر بالخير ونزول المطر الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات، حيث يجلب هبوب بعض الرياح (الّتي هي جزء من الدورة العامّة للرياح الّتي تحدث فوق سطح الأرض) أمطاراً إلى البلدان الّتي تهبّ عليها، فتنبت بها ألوان الزروع والثمار. ولولا المطر لعمّ الجفاف الأرض، وقد مرّ أنّ حياة الحيوانات في البحر أيضاً تقوم بالمطر.

٢. (وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) عطف على مبشرات، وتطلق الإذاقة على القليل وما ذلك إلاّ لأجل أنّ رحمته تعالى أكثر ممّا يذيقه الإنسان بنزول المطر. وقال الرازي: إنّ الإذاقة تقال في القليل، ولمّا كان أمر الدنيا قليلاً وراحتها نزراً قال:(وَ لِيُذِيقَكُمْ) تفسير الرازي:١٣١/٢٥.، وما ذكرناه أوضح وهو أنّ رحمة الله أوسع، فما يدركه الإنسان من رحمته بالنسبة إلى رحمته الواقعية أشبه بالإذاقة.

٣. (وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ) فإنّ العامل المحرّك للسفن الشراعية هوالرياح، وكان البحّارة يعتمدون عليها في توجيه سفنهم، ولكونها منتظمة أطلقوا عليها اسم الرياح التجارية، وهي قسمان: رياح تجارية جنوبية شرقية، ورياح تجارية شمالية شرقية.

٤. (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ): أي تبتغوا بركوب السفن، التجارة والربح، أو تطلبوا بالأمطار من فضل الله فيما تزرعونه.

٥. (وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)قيّد هذه الفقرة بلفظة «لعلّ» دون الغايات الأُخرى، يقول الطبرسي: تلطّف سبحانه بلفظة (لَعَلَّكُمْ) في الدعاء إلى الشكر، كما تلطّف في الدعاء إلى البِرّ، وقال: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) البقرة:٢٤٥.وقال الرازي: ما ذكر من الغايات أُمور مترتّبة تكويناً فكلٌّ يؤثر في الآخر، يقول: في الرياح فوائد، منها: إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها، فقال: (مُبشّرات) بإصلاح الهواء فإنّ إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده، ثم جريان الفلك فإنّه موقوف على اختبار من الآدمي بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها. تفسير الرازي:١٣١/٢٥.

وقال الشريف الرضيّ حول هذه الآية: وهذه استعارة والمراد بها ما جرت به العادة من هبوب الرياح أمام الغيوث، وأنّ ذلك يقوم مقام النطق البشّار والوعد بالأمطار المتوقعة بين يدي الرحمة، والرحمة في كثير من الآيات كناية عن الغيث، وعلى ذلك قوله تعالى في هذه السورة(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ) وقرئ «أثر رَحْمَةِ الله»: أي إلى ما كان يعقب الغيوث من منابت الأعشاب واكتساء القيعان. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٤.

٤٧. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ):

هذه الآية كأنّها جملة معترضة بين الآية السابقة (وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَات) والآية اللاحقة:(اللهُ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ) فكلتا الآيتين تستهدفان أمراً واحداً، وهو الدعوة إلى التوحيد في الربوبيّة فتوسّطت بين الآيتين هذه الآية، لتثبّت قلوب المؤمنين وتقرّر أنّ الله سبحانه تعهّد بالانتقام من الكافرين ونصر المؤمنين، فلا خوف ولا وَجَل من عمل الكافرين بالنسبة إلى هذه الآيات كما قال: (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ)بالحقّ والهدى، ولم يرسلهم فارغين مجرّدين عن المعجزات والدلائل الواضحة بل مزوّدين بها كما يقول: (فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)فانقسموا حيال دعوة الرسل إلى فريقين: مجرمين، وهؤلاء أخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر كما يقول: (فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا) ومؤمنين بالرسل، وهؤلاء نصرهم سبحانه نصراً عزيزاً كما يقول:(وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) وحاصل الآية: إنّ الذين تلقّوا دعوة الرسل بالتكذيب والعصيان واجترحوا السيئات جوزوا بأعمالهم، والذين آمنوا بهم واستجابوا لدعوتهم نصرهم الله سبحانه بإنقاذهم من العذاب الّذي حلّ بالمجرمين، فيجب على المؤمن أن ينظر إلى عاقبة الأمر لا إلى ابتدائه.

٤٨. (اللهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ

بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ):

هذا هو المقطع الثالث من المقاطع الأربعة التي احتجّ فيها سبحانه على ربوبيّته وتمكّنه من إحياء الموتى، وقد بدأ هذا المقطع كالثاني والرابع بلفظ الجلالة، وبيّن فيه الأثر المهم لإرسال الرياح كما بيّن في الآية السابقة شيئاً من فوائدها.

وفي الآية تصريح بتأثير العلل الطبيعية كلّ في الآخر، حيث إنّ إرسال الرياح وهبوبها سبب لإثارة السحاب، كما أنّه سبب لانتشارها في السماء وجعله قطعاً قطعاً، ومن ثمّ نزول قطرات المطر من خلال قِطَع السحاب، كلّ ذلك بأمره سبحانه كما يقول: (اللَّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ) إرسالاً هادئاً على خلاف العواصف التي تقلع الأشجار وتهدم الأبنية ولا تفيد شيئاً، وهذه نعمة من نعم الله تعالى حيث إنّ الرياح بيد قدرته يرفع القيد عنها فيرسلها إرسالاً هادئاً (فَتُثِيرُ سَحَابًا): أي تحرّكه (فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ): أي ينشر السحاب ويدفعه إلى أعلى (كَيْفَ يَشَاءُ)والجميع من جنود الله سبحانه كما يقول: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) آل عمران:٦.، (وَ يَجْعَلُهُ كِسَفًا): أي قِطَعاً مكثّفة متراكمة بعضها على بعض، وعندئذ فالناظر إلى الجو يرى ما تذكره الآية (فَتَرَى الْوَدْقَ): أي قطرات المطر(يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ): أي من بين السحاب بعد ما صار مكثّفاً. ومن المعلوم أنّ حياة الإنسان خصوصاً من يمارس الزراعة ينظر إلى زرعه أوّلاً ثم إلى السماء ثانياً وكأنّه ينتظر رحمة الله سبحانه، وهذا ما يشير إليه قوله: (فَإِذَا أَصَابَ بِهِ) المطر(مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ): أي يفرحون أو يبشّر بعضهم بعضاً.

قال الشريف الرضيّ حول هذه الآية: وهذه استعارة، والمراد بإثارتها السحاب أنّها تلقّق قِطَعه، وتوصل منقطعه، وتستخرجه من غيوبه، وتظهره بعد غيوضه، تشبيهاً بالقانص كذا. ويظهر حدوث سقط بعد قوله: (تشبيها بالقانص). أي ينهضه من مجاثمه ويبرزه عن مكانه لتراه عينه، فيتأتّى لقنصه ويتمكّن من فرصه. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٤.

٤٩. (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ):

فربّما يتأخّر نزول المطر على نحو يطرأ اليأس على المزارعين والفلاحين كما يقول: (وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ) المطر (عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ)من قبل النزول(لَمُبْلِسِينَ) وآيسين.

وأمّا الوجه في تكرار لفظ (قبل) حيث قال: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ)ثم قال: (مِنْ قَبْلِهِ)، فأجاب عنه الزمخشري بأنّه من باب التكرير والتوكيد كقوله سبحانه:(فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا) الحشر:١٧. ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أنّ عهدهم بالمطر قد تطاول وبعُد، فاستحكم يأسُهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.(تفسير الكشّاف:٣/٢٠٧.)

ويمكن أن يقال: إنّ التكرار لأجل الاختلاف في مرجع الضميرفأُريد من الأوّل قبل نزول المطر، ومن الثاني قبل إرسال الرياح .

٥٠. (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ):

يعدّ المطر من نِعَم الله تعالى الكبرى على عالم الحياة والنبات، ولولاه لعُدمت الحياة، ولهذه النعم آثار واضحة يلمسها كلّ إنسان، فبالمطر تحيا الأرض بعد موتها وفي ظله تنبت الأرض زرعها وأشجارها وتؤتي ثمارها كما يقول: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ) إحياء الأرض وإنباتها وثمارها (رَحْمَةِ اللهِ)الناشئة عن المطر (كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) يحييها بألوان الزروع والنبات بعد همودها وجدوبها ، فالقادر على إحياء الأرض قادر على إحياء الموتى كما يقول: (إِنَّ ذَلِكَ) الله تعالى (لَمُحْيِي الْمَوْتَى) في الآخرة، بعد كونهم رفاتاً، والدليل على ذلك وراء ما نشاهده من إحياء الموتى هو أنّ الله (وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فلا يعجزه شيء.

٥١. (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ):

دلّت الآيات السابقة على أنّ بعض عباد الله سبحانه كان يغمرهم اليأس والقنوط قبل نزول المطر، كما قال: (وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) فلمّا أصابهم المطر فرحوا واستبشروا، ولما انقلب الأمر وأصابتهم البأساء أسرعوا إلى

الكفران،دون أن يرضَوا بتقدير الله وقضائه، فإنّ إرسال النعمة وقبضها كلّها لمصالح وحكم، ولكن هؤلاء لا يفكّرون إلاّ في مصالحهم، فبالنعمة يستبشرون، وبسلبها يكفرون، كما قال:(وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ) الضمير يرجع إلى النبات المعلوم من السياق (مُصْفَرًّا)فإنّ الرياح الباردة إذا أصابت النبات تجعله مصفرّاً مؤذناً بيبسه،وقيل: إنّ الضمير في قوله: (فَرَأَوْهُ) يرجع إلى السحاب، لأنّ السحاب إذا كان أصفر لم يمطر، وهو بعيد .فعندئذ (لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ): أي لصاروا ـ بعد أن كانوا راجين مستبشرين ـ يكفرون بنعمة الله ولم يرضوا بقضاء الله تعالى فيه، وهذا فعل من لم يعرف الله سبحانه بأنّه حكيم وفعله لا يكون عبثاً.

ثمّ إنّه يقع السؤال في أنّه لماذا جمع الريح في قوله: (اللّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ) وأفرده في قوله: (وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا)؟ ولعلّ الوجه هو أنّ الغالب على الرياح هو النعمة والبركة، وأمّا الريح المبيدة للنبات فهي أقلّ بالنسبة إلى الأُولى.

ثمّ إنّ مورد الآية وإن كان هو الفلاّح الذي يستبشر إذا نزل الغيث، ويكفر بنعم الله إذا عصفت الريح المُهلكة بالزرع، ولكنّها ـ في المعنى ـ عامّة فتشمل جميع الأفراد الّذين يشعرون بالغبطة والسرور إذا أُفيضت عليهم النِّعم من الرزق الواسع والصحّة والأمان، ويملكهم اليأس فيجحدون نعم الله عليهم إذا نزلت بهم مصيبة أو عضّتهم فاقة، وربّما يعترضون على تقديره جلّ شأنه، غافلين أنّ كلاًّ من الحالتين رهن حكمة، يقول سبحانه:(وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ). الأعراف:٩٦.

٥٢ و ٥٣. (فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ):

الآيتان تسلية للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث إنّ إعراض الناس كان ثقيلاً عليه، وهما تقسّمان الناس إلى طوائف أربع:

الأُولى: الموتى.

الثانية: الصُّمّ.

الثالثة: العُمي.

الرابعة: المؤمنون.

والألفاظ الثلاثة الأُولى من قبيل الاستعارة، فالمشركون لم يكونوا موتى بشهادة وجود آثار الحياة فيهم، ولم يكونوا صمّاً بشهادة أنّهم يسمعون كلام الله ثم يردّون عليه، ولم يكونوا عُمياً فاقدي الرؤية بشهادة أنّهم يميّزون الصديق من العدوّ، ولكنّه سبحانه شبّه المشركين بهذه الطوائف الثلاث، فبما أنّهم كانوا يقولون: (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّة مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) فصلت:٥.فصاروا لذلك كالموتى أشباحاً بلا إدراك وأجساماً بلا قلوب واعية، وبما أنّهم كانوا يقولون:(وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ) فصلت:٥. صاروا لذلك كالصمّ الّذين لا يسمعون ، وبما أنّهم كانوا مصرّين على سيرة آبائهم ولم يستضيئوا بأنوارالهداية الربّانية، صاروا لذلك كالعُمي الّذين لا يبصرون ، وبذلك تبيّن مفاد الآيتين.

قوله تعالى: (فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى): أي من كان شعارهم:(قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّة)، (وَ لاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ)الذين قالوا: (وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ)،(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) وكيف يمكن هداية قوم إذا كانوا يبتعدون إعراضاً عن سماع القرآن؟ بل كانوا يمنعون الناس من الإصغاء إليه عند تلاوته بإثارة اللغو والضجيج، كما يقول: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) فصلت:٢٦..

قوله تعالى:(وَ مَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ): أي من لا يستعدّ للاهتداء ولا ينظر إلى دلائل النبوة، بل يكفّ بصره عن رؤيتها، فهذه الأصناف الثلاثة لا يمكن لأحد أن ينتشلهم من الضلال الّذي هم عليه لتماديهم فيه ، وإنّما يهتدي من يصغي إلى

كلمة الحقّ ويملك إرادة الاستجابة لها، كما يقول: (إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا): أي ما تُسمع السماع الّذي ينتفع به سامعُه إلاّ مَن يعي ما يُلقى إليه من حجج وبراهين ويصدّق بها (فَهُمْ مُسْلِمُونَ): أي منقادون لأمر الله .

وممّا جاء في معنى هاتين الآيتين، ما ورد في كتاب للإمام علي(عليه السلام)إلى قُثَم بن العباس بن عبد المطلب (واليه على مكّة)، يدعوه فيه إلى الحزم في مواجهة الدعايات المغرضة الّتي يبثّها أزلام الفئة الباغية في أيام الحجّ، قال (عليه السلام):

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي ـ بِالْمَغْرِبِ ـ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الاْسْمَاعِ، الْكُمْهِ الاْبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الاْبْرَارِ الْمُتَّقِينَ». نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣٣ .

سورة الروم: الآيات ٥٤ ـ ٦٠ (اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ ... وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ).

الآيات: الرابعة والخمسون إلى آخر السورة

(اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَة لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ).

المفردات

ضعف: الضّعف خلاف القوّة، وقد يكون في النفس أو البدن، وقيل: الضَّعف والضُّعف لغتان، قال الخليل: الضُّعف ـ بالضمّ ـ في البدن، والضَّعف ـ بالفتح ـ في العقل المفردات للراغب:٢٩٠، مادة «ضعف». [١]، وعلى ما ذكره فيجب أن يُقرأ بالضمّ «ضُعف» ولكن قراءة عاصم بالفتح.

شيبة: الشَّيب: بياض الشعر، قال تعالى:(وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا).(مريم:٤.)

الساعة: جزء من أجزاء الزمان ويعبَّر بها عن القيامة، وإنّما خُصّت في القرآن بيوم القيامة لأنّها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا.

ما لبثوا إلاّ قليلاً: أي ما أقاموا بعد الموت إلاّ يسيراً.

غير ساعة: أي غير قطعة قليلة من الزمان.

ضربنا: أُريد به هنا التوصيف والتبيين، فضرب المثل في القرآن هو توصيف حال فرد أو جماعة.

لا يستخفنّك: لا يزعجنّك ولا يزيلنّك عن اعتقادك بما يوقعون من الشُّبَه.

التفسير

هذا هو المقطع الرابع الذي ابتدأ بلفظ الجلالة، وهو يركّز على مرور الإنسان في مراحل خلقته، وأنّه تمرّ عليه المراحل التالية:

الضعف أوّلاً، ثم القوّة ثانية، ثم الضعف ثالثاً، ثم الشيب رابعاً، وختمت الآية باسمين من أسماء الله الحسنى، وهما:(الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ).

٥٤. (اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ):

الآية وما بعدها بصدد الاستدلال على إمكان البعث بشهادة أنّه سبحانه هو وحده الّذي يدبّر الإنسان في أطواره المختلفة ومراحل تغيّراته الجسمية، فمن ضعف إلى قوّة، ومن قوّة إلى ضعف، كما يقول:(اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف)وليس المراد أنّ الضعف مادة الخلقة بل هو بدء الخلقة نظير قوله سبحانه:(وَ خُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا) النساء:٢٨، فقد مرّت عليه أطوار، أوّلها أنّه خُلق من نطفة أمشاج (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْف قُوَّةً)وذلك في مرحلة الشباب الّتي هي ذروة النشاط والحيوية، ثم يسري الوهن في جسمه بالتدريج عندما يتقدّم في العمر، كما يقول:(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّة ضَعْفًا)وذلك في مرحلة الشيخوخة(وَ شَيْبَةً) والشّيب ـ كما قيل ـ خِطام(الخِطام: ما يُجعل في أنف البعير ليُقاد به .) المنيّة (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)حسب تدبيره وحكمته كما يقول:(وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) عليم بما يخلق وقادر عليه.

قال أبو تمّام الطائي في الشيب:

غدا الشَّيبُ مختطّاً بفَوْديَّ خُطّةً *** طريق الرَّدى منها إلى النفس مَهْيَعُ[٢]

[٢] . الفَوْد: ما يحاذي الأُذن من شعر الرأس. ومَهيَع: بيّن وواضح .

له منظرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ *** ولكنّه في القلب أسودُ أسفعُ[١] أسفع: شديد السواد.

وقال محمود بن حسن الورّاق:

بكيتُ لقُرب الأجلْ *** وبُعدِ فوات الأملْ

ووافدِ شيب طَرا *** بعُقب شباب رحلْ

شبابٌ كأن لم يكن *** وشَيبٌ كأن لم يزلْ

طواك بشير الـبَقا *** وجاء نذير الأجلْ

٥٥. (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ):

لمّا تقدّم في الآيات السابقة ذكر الدلائل الباهرة على التوحيد في التدبير والقدرة على الإعادة والبعث يوم القيامة، وشبّه المشركين ـ لعدم انتفاعهم بما مرّ من الدلائل ـ بالموتى والصُّمّ والعُمي، عاد البيان القرآني ليصف حالهم عند قيام القيامة ويقول:(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) ويُبعث الناس بأجسامهم الصحيحة فيُخَيّل للمجرمين أنّهم لم يمكثوا إلاّ جزءاً قليلاً من الزمان، كما يقول: (يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة) إلاّ أمداً قصيراً، ويظنّون أنّ فترة البرزخ كانت فترة قصيرة، وكأنّهم كانوا نائمين لما رأوا صحّة أبدانهم وأعضائهم وعقولهم فاغتروا بذلك، ولم يقفوا على ما هو الواقع ولذلك يردّ عليهم القرآن بقوله: (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ): أي يُصرفون عن الحق إلى الباطل كما كانوا كذلك في الدنيا، والسبب سيادة الجهل عليهم لأنّ توغّلهم في الجهل صار سبباً لانصرافهم عن الحقّ في الدارين، فقد كانوا منكرين للمعاد بسبب هذا الجهل، وصاروا أيضاً منكرين له لذلك الوجه، وبذلك ظهر أنّ قسَمهم كما يحكي عنه قوله سبحانه: (يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة) كان قسماً صادقاً حسب اعتقادهم حيث لم يشعروا بأنّهم انتقلوا إلى الدار الآخرة وتوهّموا أنّهم قاموا من نومتهم، ولذلك نرى ـ في الآية التالية ـ أنّ المؤمنين يردّون عليهم بقولهم: (فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ).

٥٦. (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ):

يحكي سبحانه ردّ طائفة عليهم بقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ) قدّم العلم على الإيمان لأنّ الثاني ثمرة الأوّل، والمراد به المؤمنون الذين آمنوا بما وعد الله في كتابه (لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ): أي حسب علمه المثبّت في اللوح المحفوظ أو في القرآن الكريم حيث قال: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) المؤمنون:١٠٠، (إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) الذي كانوا يتصوّرون أنّهم

في الدنيا(وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)فاستمرّ جهلكم في الدنيا إلى يومكم هذا.

ثمّ إنّ لفخر الدين الرازي كلاماً يوضح لنا سبب تصوّر المشركين قصر المدّة، وعلم المؤمنين بطولها، ويقول: الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله، والموعود بوعيد إذا ضرب له أجل يستقلّ المدّة ويريد تأخيرها، لكن المجرم إذا حُشر علم أنّ مصيره إلى النار فيستقلّ مدّة اللبث ويختار تأخير الحشر والإلقاء في القبر، والمؤمن إذا حُشر علم أنّ مصيره إلى الجنّة فيستكثر المدّة ولا يريد التأخير، فيختلف الفريقان ويقول أحدهما: إنّ مدّة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله:((يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة)ويقول الآخر: لبثنا مديداً وإليه الإشارة بقوله تعالى:(وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) يعني كان في كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث (فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) يعني طلبكم التأخير، لأنّكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير. تفسير الرازي:٢٥/١٣٦.

٥٧. (فَيَوْمَئِذ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ):

ولمّا كانت هنا مظنّة توهّم أنّ هؤلاء المشركين إذا اعتذروا إلى الله سبحانه يقبل عذرهم، وأنّ ردّ الذين أوتوا العلم والإيمان عليهم قد كشف لهم عن حقيقة الموقف، نبّه سبحانه على عدم قبول عذر المعتذرين بقوله:(فَيَوْمَئِذ): أي إذا قامت القيامة (لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ): أي عذرهم، بل ربما لا يؤذن لهم حتى يعتذروا ، ولو اعتذروا لم يقبل عذرهم لفوات أوانه (وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) من العتب وهو الملامة، يقال:فلان عتب على فلان، أي لامه، وإذا دخلت عليه الهمزة (همزة باب الإفعال) فيصير بمعنى إزالة الملامة، وعلى هذا فمعنى (يُسْتَعْتَبُونَ): أي لا يطلب منهم إزالة العتاب عن أنفسهم، فإنّ لهمزة باب الإفعال معان، منها الإزالة كما في المقام.

نعم ظاهر الآية أنّه يؤذن للمجرمين أن يعتذروا ولكن لا يقبل منهم الاعتذار، وظاهر بعض الآيات أنّه لا يؤذن لهم أن يعتذروا نظير قوله سبحانه:(وَ لاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) المرسلات:٣٦.. والجواب كما سيوافيك في تفسير سورة المرسلات أنّ يوم القيامة يوم طويل وللناس فيه مواقف كثيرة مختلفة يصمتون في بعضها إبلاساً، ويُسألون في غيرها فينطقون، وربما يعتذرون بقولهم:(وَ اللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ).(الأنعام:٢٣.)

٥٨.(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَة لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ):

الظاهر أنّ قوله تعالى: (ضَرَبْنَا) بمعنى ذكرنا وبيّنا، والمراد من الناس: المشركون، ويحتمل أن يكون المراد هو الأعم لظاهر قوله سبحانه: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا) الإسراء: ٨٩ .

كما أنّ المراد من المثل هو التمثيل، حيث إنّه سبحانه ذكر في تحقير آلهتهم تمثيلات فقال: (إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) البقرة:٢٦، وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج:٧٣.، إلى غير ذلك من التمثيلات التي ناهزت السبعة والخمسين مثالاً، كلّ ذلك ليتدبّروا كما يقول: (وَ تِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الحشر:٢١.

ولكن هؤلاء المشركين لانكبابهم على الدنيا وتماديهم في ضلالهم وعنادهم لم ينتفعوا بهذه الأمثال ولم يأخذوا منها العِبرة ولذلك يقول: (وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَة): أي جئتهم بمعجزة باهرة وإن كانت ممّا اقترحوه لَمَا آمنوا وللجّوا في طغيانهم كما يقول: (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ): أي أصحاب الأباطيل،وما ذلك إلاّ لأنّهم يقيسون الحق والباطل بآرائهم وأفكارهم أو بمنافعهم ومضارّهم، فما وافق أهواءهم فهو الحقّ، وما خالفها فهو الباطل.

ثم ذكر سبحانه وجه تولّيهم عن الحقّ في الآية التالية:

٥٩. (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ):

الآية تذكر أنّ سبب إعراضهم عن أمثال القرآن المشحونة بالمواعظ والحكم والأفكار الصائبة، هو عدم انفتاح قلوبهم لنفوذ نور الهداية إليها، كما قال: (كَذَلِكَ): أي مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء(يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ)وفي قوله: (لاَ يَعْلَمُونَ) إلماع إلى وجه الطبع والختم على القلوب وهو أنّ جهلهم الناشئ من عنادهم، صار سبباً لعدم الاهتداء بهدي الأنبياء والكتب فصاروا محرومين من الهداية الثانية.

وبعبارة أُخرى: إنّ لله سبحانه هدايتين:

هداية عامّة تشمل كلّ المكلّفين حتى الشيطان والجبابرة والطواغيت وهي تتحقّق بإرسال الرسل وإنزال الكتب والدلائل العقلية، فمن اهتدى بهذه الهداية تشمله الهداية الثانية، وأمّا من تولّى عنها فقد حرم نفسه من الهداية الثانية، فهؤلاء هم المعنيّون بقوله: (يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) وفي موضع آخر قال تعالى: (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) البقرة:٧.فليست الآية دالّة على الجبر، بل الطبع والختم نتيجة إعراضهم عن الهداية الأُولى، وفي الحقيقة إنّ الطبع والختم كناية عن حرمانهم من الهداية الثانية.

٦٠. (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ):

ختم الله تعالى هذه السورة بهذه الآية، تسليةً للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) خصوصاً بالنسبة لقوله: (وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَة لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ)فقال:(فَاصْبِر): أي استقم على عناد هؤلاء وإصرارهم على الكفر (إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ): أي إنّ يوم القيامة حقّ سيُجزَون فيه (وَ لاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ): أي لا يحملنّك على ترك الصبر (الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ) أعني: المشركين، فإنّهم جهلة لا يقام لجهلهم وعنادهم وزن.

ولعلّ في الآية إشارة إلى انتشار دين الله في أقطار العالم وأرجاء الدنيا.

روى ابن أبي الحديد عن أنس بن عياض المدني، قال: حدّثني جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)، عن أبيه، عن جدّه أنّ عليّاً كان يوماً يؤمّ الناس، وهو يجهر بالقراءة، فجهر ابن الكوّاء من خلفه: (وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الزمر:٦٥، فلمّا جهر ابن الكواء وهو خلفه سكت عليٌّ، فلمّا أنهاها ابن الكواء عاد عليٌّ(عليه السلام)، فأتمّ قراءته، فلمّا شرع عليّ(عليه السلام) في القراءة أعاد ابن الكوّاء الجهر بتلك الآية، فسكت عليٌّ، فلم يزالا كذلك، يسكت هذا ويقرأ ذلك مراراً، حتى قرأ عليٌّ(عليه السلام): (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ)، فسكت ابن الكواء، وعاد(عليه السلام) إلى قراءته. شرح نهج البلاغة:٣١١/٢.

***

تمّ تفسير سورة الروم

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة لقمان

تأليف: الفقيه المحقّق: جعفر السبحاني

٣١سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
(٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ
أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ
الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ
ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ
فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ
وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ
أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ
وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ
بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة بسورة «لقمان» لورود هذا الاسم فيها، وليس لها اسم آخر.

عدد آياتها ومحلّ نزولها
آياتها ثلاث وثلاثون آية في عدّ الحجازي، وأربع وثلاثون في عدّ الباقين. وهي مكية تشهد لذلك مضامينها. وقد نسب إلى ابن عباس أنّه استثنى ثلاث آيات نزلت في المدينة تبتدأ من قوله سبحانه:(وَ لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...)إلى قوله: (تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) لقمان:٢٧ و ٢٨ و ٢٩، ولكن لا دليل على ذلك، بل أنّها تنسجم مع سائر آيات السورة في كونها مكيّة، كما سيوافيك.
أغراض السورة
الغرض المهم للسورة الدعوة إلى التوحيد ومكافحة الشرك، ويعلم ذلك من النصائح والحِكَم التي نقلت عن لقمان ووعظ بها ابنه، بل حتى من الآيات التي تشرح لنا أسرار الكون والخلقة. وفي إطلاق اسم «لقمان» على هذه السورة، وفي عناية الباري تعالى بنقل مواعظه ونصائحه في مصاف آياته، إشارة إلى أنّ لكلماته مسحة إلهية. وروي أنّ سبب نزول هذه السورة هو أنّ قريشاً سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)عن قصة لقمان وابنه سؤال تعنّت واختبار، فنزلت الآيات. وسيوافيك ما ورد حول شخصية لقمان من الروايات.
سورة لقمان: الآيات ١ ـ ٥ (الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ *... أ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).
الآيات: الخمس الأُولى
(الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).
المفردات
الحكيم: إذا كان وصفاً للكتاب فمعناه كتاب مشتمل على الحكمة، ومنها ما ورد في السورة من الحِكَم التي أوصى بها لقمانُ ابنه. وإن كان وصفاً لله يكون المراد أنّه منزّه عن اللغو والعبث وأنّ أفعاله لا تنفك عن الغاية الخاصّة. الزكاة: بما أنّ السورة مكية فقد أُريد بالزكاة هنا الصدقة، فإنّ الزكاة بالمعنى المصطلح فُرضت في دار الهجرة في العام الثاني منها.
التفسير
١.(الم): من الحروف المقطعة، وقد افتتحت تسع وعشرون سورة بهذه الحروف التي هي عبارة عن الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، والتي صيغت، بعد حذف المكرّرات، بالعبارة التالية: «صراط عليّ حقّ نمسكه». وقد اختلفت كلمات المفسّرين في بيان المراد من هذه الحروف على وجوه، سنوافيك بأهمّها عند تفسير سورة الأحقاف. وإجمال الوجه الأكثر اعتباراً هو ما رواه الصدوق عن الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها جميع العرب ثم قال: (لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيرًا). توحيد الصدوق:١٦٢. ٢. (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ): أشار سبحانه بقوله (تِلْكَ) إلى ما سيأتي من الآيات، نظير قوله سبحانه:(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ) البقرة:٢. فإنّ لفظة «ذلك» إشارة إلى مجموع الكتاب، وإنّما أشار بما يشار به إلى البعيد تعظيماً وتكريماً، وبياناً لرفعة مقامه.

وقوله:(آيَاتُ الْكِتَابِ) خبر اسم الإشارة، ووصف الكتاب بـ(الْحَكِيمِ)إشارة إلى ما فيه من الحكمة.

ثمّ إنّ في وصف الكتاب بالحكيم إشعاراً بأنّه ليس من لهو الحديث الذي سيأتي بيانه، وتمهيداً لما سيأتي في قصة لقمان، وهو قوله سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ).

٣. (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ):

قوله:(هُدًى وَرَحْمَةً) كلاهما حالان من الكتاب، فالقرآن يهدي إلى الحقّ والرشاد ويوصل إلى سبيل السلامة، خلافاً للّهو الذي يحول بين الإنسان وبين الحق والرشاد؛ لأنّه يشغله عمّا يهمّه، ويجرّه إلى مهاوي الرّدى، كما أنّه رحمة لأنّه يشتمل على نظام كامل يضمن سعادة الإنسان في الدارين، وقد قدّم الهداية على الرحمة لأنّ الإنسان لو لم يعرف الله على القدر المستطاع لما صار مستحقّاً للرحمة.

ثمّ إنّه سبحانه خصّ المحسنين بنَيل هذين الأمرين مع أنّ القرآن هدى لعامّة الناس، محسنين وغيرهم كما يقول: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ)، البقرة:١٨٥. وما ذلك إلاّ لأجل أنّ كلا الأمرين صحيح، فالقرآن بطبيعته وجوهره، هدى للناس، وكلّ إنسان عاقل سليم القلب إذا استمع إلى آياته يهتدي إلى الحقّ ولكن لا ينتفع به إلاّ المتّقون كما في سورة البقرة.(لاحظ: البقرة: ٢.) أو المحسنون كما في هذه الآية، بشهادة أنّ الآية التالية تصف المحسنين بصفات ثلاث وهي تلازم انتفاعهم بالقرآن. وكأنّ قائلاً يقول: إذا كان الكتاب هدى ورحمة للمحسنين، فمَن هم هؤلاء؟

وعندئذ يفسّره بالآية التالية، نظير قول أوس بن حَجَر:

الألمعيّ: الذي يظنّ بك *** الظنَّ، كأنْ قد رأى وقد سمعا

وقد روي أنّ الأصمعي سُئل عن معنى الألمعيّ، فأنشد هذا الشعر.

٤.(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ):

الصفة الأُولى: إقامة الصلاة، التي هي صلة العبد بالخالق المدبّر سبحانه. ولعلّ الإقامة كناية عن إعطاء الصلاة حقّها من إتيانها بقلب واعٍ .

الصفة الثانية: إيتاء الزكاة، التي هي صلة الإنسان بالمجتمع.

الصفة الثالثة: الإيمان اليقيني بالآخرة، الذي يبعث على أداء الواجبات واجتناب المحرّمات.

٥. (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ):

الإشارة هنا إلى المحسنين، الّذين بيّنت الآية السابقة صفاتهم، فهم على بيّنة وبصيرة لإقبالهم عليه سبحانه بقلوب سليمة ونيّات خالصة من الشك والارتياب، وارتقائهم إلى مقام الإحسان في القول والعمل، ومن الحكم الجميلة المعاصرة: إنّ المحسن المُعين، وجه آخر للمَلاك الكريم. فلسفة الجود والإيثار لدى الإمام علي(عليه السلام)للسيد محمود الموسوي:٤٧٢. هذا، والتعبير عن شمول الهداية الإلهية لهم بقوله: (عَلَى هُدًى)كأنّهم أخذوا بزمام الهداية، وهي تقودهم إلى الفلاح والسعادة في الدارين، كما قال (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

سورة لقمان: الآيات ٦ ـ ٩(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ... وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

الآيات: السادسة إلى التاسعة

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْم وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَاب أَلِيم * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ *

(خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

المفردات

لهو الحديث: ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه، يقال: لهوتُ بكذا ولَهَيتُ عن كذا إن اشتغلت عنه بلهو.

وقراً: الوَقْر: الثقل في الأُذن.

التفسير

٦.(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ):

كأنّ الآيات بصدد بيان أنّ الناس على صنفين:

صنف يهتدون بهدي القرآن فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوقنون بالآخرة، وصنف يشتغل بلهو الحديث، فيعوقه ذلك عمّا يعنيه ويهمّه، ومن ثمّ يَضلّ ويُضلّ كما يقول: (وَ مِنَ النَّاسِ)أي صنف منهم (مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) المراد بلهو الحديث نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدّث بالخرافات وفضول الكلام، ويؤيّد ذلك ما روي في سبب نزول الآية من أنّها نزلت في النضر بن الحارث، وكان يتّجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم ويحدّث بها قريشاً، ويقول: إن كان محمد يحدّثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أُحدّثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن.

تفسير الدر المنثور:٦/٥٠٣.

قوله تعالى:(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الجار والمجرور متعلّق بقوله:(يَشْتَرِي)، والإضلال إمّا غاية أو عاقبة، فهذا الرجل باشترائه لهو الحديث والتحديث به يضلّ به الناس ويصرفهم عن سبيل الله يعني القرآن، ومن ثم (يَتَّخِذَهَا) سبيل الله (هُزُوًا) أي سُخرية واستهزاءً قائلاً بأنّ معارف القرآن وقصصه مثل القصص التي أنا أرويها وأُحدّثكم بها عن تلك الأُمم.

قوله: (أُولَئِكَ): أي مَن هذه صفتهم (لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ): أي يُهينهم الله به، كما استهانوا بسبيل الله .

هذا هو تفسير ظاهر الآية حسب سياق الآيات، فالمشتري عبارة عن النضر بن الحارث، و (لَهْوَ الْحَدِيثِ) القصص التي يشتريها من ملوك فارس وغيرهم، وبسردها يصدّ الناس عن القرآن، وهذا ومن هم على شاكلته سيجزون بما عملوا عذاباً مهيناً.

وربّما تفسّر الآية بوجهين:

الأوّل: اقتناء القينات المغنّيات مستدلاًّ بما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهنّ ولا خير في تجارة فيهن وثمنهنّ حرام» حتى قيل: إنّ الآية نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية فشغل الناس بها عن استماع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). التحرير والتنوير:٢١/٩٠ـ٩١.

ولا يخفى أنّ الموضوع في الآية هو الباطل من الحديث لا المتغنّي به، كالمغنّيات وكون بيعهنّ وشرائهنّ حراماً لا صلة له بالآية.

الثاني: أنّه تضافرت الروايات على الاستدلال بالآية على حرمة الغناء، فعن يحي بن عبادة، عن أبي عبد الله] الصادق [(عليه السلام) قال: قلت: قوله عزّ وجلّ:(وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) قال: «منه الغناء».

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر] الباقر [(عليه السلام): سمعته يقول: «الغناء ممّا أوعد الله عزّ وجلّ عليه النار، وتلا هذه الآية».

إلى غير ذلك من الروايات التي جمعها مؤلّف تفسير «نور الثقلين».(تفسير نور الثقلين:٤/١٩٣ـ١٩٤.

ولعلّ وجه الاستدلال هو أنّ الموضوع في الواقع هو اللهو والتحدّث به آلة اللهو، فعلى هذا فالغناء من مصاديق اللهو، فيصحّ الاستدلال بالآية على حرمة الغناء.

ولعلّه إلى ما ذكرنا يشير السيد الرضيّ بقوله في تفسير الآية : وهذه استعارة والمراد بالاشتراء هاهنا الاستبدال بالشيء من غيره،

وكذلك البيع للشيء يكون بمعنى استبدال غيره منه، فكأنّ المذموم بهذا الكلام استبدال لهو الحديث من سماع القرآن والتأدّب بآدابه والاعتلاق بأسبابه، ويدخل تحت لهو الحديث سماع الغناء والحداء، والإفاضة في الهزل والفحشاء، وما يجري هذا المجرى.

تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٥.

وقد درسنا موضوع الغناء، وذكرنا الاستدلال على حرمته وما استثني منه في كتابنا «المواهب».

لاحظ: المواهب في تحرير أحكام المكاسب:٥١٦ـ٥٤٩.

أساليب الضلال ووسائله

إنّ الله سبحانه حرّم لهو الحديث وبيّن العلّة وقال:(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) فإذا كانت الغاية من التحريم هي الضلال بغير علم، فكلّ ما راج في هذا العصر من أساليب الضلال فهو محرّم، نظير:

١. الغناء في المسارح والاحتفالات.

٢. العزف على آلات الموسيقى بأنواعها المختلفة.

٣. الصحف المأجورة والكتب المؤلّفة لغاية إضلال الناس وتأمين أهداف حكّام الجور. وما أكثر ذلك في البلاد الإسلامية حيث يشيعون قضايا كاذبة تصبّ في مصلحة قوى الطغيان والاستكبار أو يسيئون إلى المقدّسات والشخصيات الإسلامية.

٤. الأفلام الهابطة والقصص المضلّة الّتي تستهدف إخماد عزائم الشُّبّان والشابّات، وتبثّ في صفوفهم الكسل والدعة والعجز.

كلّ ذلك وأشباهه يشمله قوله تعالى:(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) حيث باعوا وجدانهم ووطنهم بالأماني الباطلة.

٧. (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ):

غسيل الدماغ

إنّ الاسترسال مع لهو الحديث ليل نهار وفي كلّ فرصة مؤاتية، يؤثر في تفكير الإنسان وحاله وشعوره، فلو سمع شيئاً يغاير ما حصّله عن طريق لهو الحديث لم يُطق الإصغاء إليه، بل ينفر منه ويُعرض عنه تكبّراً، كما يقول سبحانه: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) وما هذا إلاّ لأنّ الطبيعة الثانية التي اكتسبها بسبب الانغماس في اللهو تضادّ الآيات الإلهية وتخالفها، حتّى لكأنّ في أُذنيه ثقلاً يمنع من سماع الحقّ، كما يشير إليه قوله: (كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا) وقيل: الوقر هنا كناية عن الصمم، فكما أنّ الأصمّ لا يسمع في الواقع، فالمتوغل في لهو الحديث بالأساليب المختلفة يكون مثله، فمثل هذا الشخص يختم على قلبه ويغلق عليه فلا نهاية له إلا قوله:(فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

قال السيد الرضيّ حول قوله تعالى:(فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ): وهذه استعارة لأنّ البشارة في العرف إنّما تكون بالخير والسعادة والمسرّة لا بالشرّ والمضرّة، لكن إبلاغهم الوعيد بالعقاب لمّا كان كإبلاغهم الوعد بالثواب في تقدّم الخبر به، جاز أن يُسمّى لهذه العلّة باسمه. وكان أبو العباس المبرّد يذهب بذلك مذهباً حسناً، فيقول: إنّ لفظ البشارة مأخوذ من البشَرة، فكأنّ المخبر لغيره بخبر النفع والخير أو خبر الشرّ والضرّ، يلقي في قلبه من كلا الأمرين ما يظهر تأثيره في بشَرة وجهه، فإن كان خيراً ظهرت تباشير المسرّة، وإن كان شرّاً ظهرت فيه علامات المساءة، فحسُن على هذا المعنى أن تستعمل البشارة في الشرّ والضرّ، كما تستعمل في النفع والخير.

تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٥.

هذا هو حال الكافرين، وأمّا المؤمنين فيذكر حالهم في الآيتين التاليتين:

٨ و ٩. (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

فإذا كان الكافر يتصامم عن الحقّ، فالمؤمن يتصامم عن الباطل ويفتح أسماعه لقول الحقّ، قال الإمام علي(عليه السلام) في وصف

المتقين: «غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣ .

فاتّضح معنى قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ) وما هذا إلاّ لأنّهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالآخرة إيماناً محقّقاً. ثمّ إنّ الله سبحانه يصف هذه الجنات بالخلود ويقول:(خَالِدِينَ فِيهَا): أي مؤبّدين فيها (وَعْدَ اللهِ) منصوب بفعل مقدّر أي وَعَدَ الله ذلك وَعْداً (حَقًّا) لا خلف فيه (وَ هُوَ الْعَزِيزُ)القادر على إنفاذ ما وعد به(الْحَكِيمُ) في جزاء المسيء بالإساءة، والمحسن بالإحسان.

سورة لقمان: الآيتان ١٠ ـ ١١ (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

الآيتان: العاشرة والحادية عشرة

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

المفردات

عَمَد: جمع عمود، وهو ما تعتمد عليه الخيمة من خشب ونحوه، ويعرف باسم (عمود البيت)، أو هو اسم جمع مفرده عماد أي سَند.

رواسي: جمع راسية: وهي بمعنى الجبال.

تميد: من المَيْد، وهو اضطراب الشيء العظيم.

زوج: صنْف، قال سبحانه:(فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى) طه:٥٣..

التفسير

١٠. (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ):

لمّا تقدّم أنّ المنغمسين في اللهو إذا تتلى عليهم آيات الله تصامموا، أخذ سبحانه في ذكر عدد من آياته الكونية، التي تدلّ على قدرته العظيمة وحكمته الرصينة لعلّها توقظ عقول المنكرين لوحدانيته وربوبيّته، وهي:

١. (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) وجاء هذا المضمون في سورة الرعد أيضاً، قال تعالى: (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). الرعد:٢.

ثمّ إنّ قوله:(تَرَوْنَهَا) يمكن أن يكون قيداً توضيحياً، والمعنى أنّكم ترونها ولا عَمَد لها، وهذا هو خيرة الشيخ الطوسي، حيث قال: لأنّه لو كان لها عمد لرأيتموها فلمّا لم تروها دلّ على أنّه ليس لها عمد، لأنّه لو كان لها عمد لكانت أجساماً عظيمة حتى يصحّ منها إقلال السماوات، ولو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد أُخر، فكان يتسلسل، فإذاً لا عمد لها. التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٢٧٣ .

وهناك وجه آخر وهو أنّ (تَرَوْنَهَا) صفة للعمَد وهو قيد احترازيّ، والمعنى أنّه خلقها بغير عَمَد مرئية، ولا ينافي أن تكون هناك عمد غير مرئية، أي عمد من شأنها ألاّ تُرى. وهذا ما تؤيده بعض الروايات، فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن أبي الحسن الرضا(عليه السلام) قال: قلت له: أخبرني عن قوله تعالى:(وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) فقال: هي محبوكة إلى الأرض وشبّك بين أصابعه، فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول:(رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الرعد:٢. فقال: سبحان الله أليس يقول بغير عمد ترونها؟ فقلت: بلى، فقال: «فثَمّ عمد ولكن لا ترونها». تفسير نور الثقلين:٤/١٩٥.

هذا هو الأَولى إذ على الوجه الأوّل يلزم الالتزام بالتقديم والتأخير في الآية بأن يقال: إنّ الأصل خلق السماوات ترونها بغير عمد، وهذا خلاف الأَولى في اللغة.

والآية تعدّ من المعاجز العلمية للقرآن الكريم حيث أخبرت عن حقيقة كونية لم تكن معروفة في وقت نزول القرآن لعلماء ذلك العصر إلى ما بعده لقرون، وكان الرأي السائد في خلق السماوات والأرض ما ورثوه من الفلكي اليوناني الشهير بطليموس، حيث ذهب إلى أنّ العالم الجسماني كرة منضّدة من ثلاث عشرة كرة متلاصقة أعلاها الأطلس وهو كاسمه غير مكوكب، ثم فلك الثوابت وكلّها مركوزة في ثخنه بحيث يماس سطح أعظمها سطحيه وهذان هما العرش والكرسي بلسان الشرع، ثم السماوات السبع للسيارات السبع المشهورة كلّ في فلك يسبحون وترتيبها عن السلف مأثور والكلام فيه مشهور، ويحيط بكلّ من التسع سطحان متوازيان مركزها مركز العالم وهي الأفلاك الكلّية. تشريح الافلاك للشيخ بهاء الدين العاملي:١٢.وأين هذه النظرية من قوله سبحانه: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)؟!

ومن الثوابت العلمية الّتي توصّلت إليها الدراسات الكونية، أنّ الجاذبية العامّة هي سنّة من سنن الله تعالى أودعها كافّة أجزاء الكون ليربط تلك الأجزاء بواسطتها، وينصّ قانون هذه السنّة الكونية بأنّ قوة الجاذبية بين أي كتلتين تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسياً مع مربع المسافة الفاصلة بينهما.ولمّا كان لأغلب أجرام السماء كتل مذهلة في ضخامتها، فإنّ الجاذبية العامّة هي الرباط الحقيقي لتلك الكتل على الرغم من ضخامة المسافات الفاصلة بينهما، وهذه القوة الخفيّة (غير المرئية) تمثّل النسيج الحقيقي الّذي يربط كافة أجزاء الكون كما هو الحال بين الأرض والسماء، وهي القوة الرافعة للسماوات (بإذن الله) بغير عمد مرئية... وهي نفس القوة الّتي تحكُم دوران الأجرام السماوية كلٌّ حول محوره، وتحكُم جريه في مداره، بل في أكثر من مدار واحد له.. من آيات الإعجاز العلمي.. السماء في القرآن الكريم: ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

٢. (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ).

قوله: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ): أي ألقى في الأرض جبالاً ثابتة (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ): أي كراهة أن تميد بكم، أو خوف أن تميد بكم، أو: لئلاّ تميد بكم، كما في قوله:(يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) النساء:١٧٦. أي: لئلاّ تضلّوا.

وهذه الفقرة من الآية من المعاجز العلمية من وجوه:

أ. تدلّ على حركة الأرض في خضمّ الفضاء، لئلاّ تميد بكم، فهي سفينة جوّية بحاجة لاستقرارها إلى رواسي تربطها عن الميَدان، ويشهد لهذا التفسير قول الإمام علي(عليه السلام): «وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ» نهج البلاغة: الخطبة١.. لاحظ: الفرقان في تفسير القرآن:٢٠ـ٢١/٢١٨.

وهذا الوجه لا يخلو من تأمّل لأنّ مِرساة السفينة إنّما تكون مفيدة عند سكونها حتى لا تخرج عن الميناء، والمفروض أنّ الأرض مزودة بالرواسي في حال سبحها في خضمّ الفضاء، فلابدّ أن تفسَّر بوجه آخر، فنقول:

ب. إنّ الأرض في حال الحركة في مظنة تفكّك بعض أجزائها عن بعض، خصوصاً نتيجة الضغوط التي تنشأ من الحرارة الداخلية التي تكاد تفجّر الأرض، فصارت الجبال كالمسامير فهي داخلة من جوف الأرض إلى ما فوقها، تربط بعضها ببعض وتصده عن التفكّك والتفرّق.

وهذا التفسير يناسب قوله سبحانه:(وَالْجِبالَ أوتاداً) النبأ:٧.ولا يناسب قوله سبحانه:(وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) فلابدّ أن تكون الجبال شيئاً مانعاً من اضطراب الناس من على فوق الأرض، ولعلّ الوجه التالي أنسب.

ج. أثبتت بعض الأبحاث العلمية أنّ القشرة الأرضية تتعرض لجزْر ومدّ تسببهما الشمس والقمر، كما هو الحال في مياه البحار والمحيطات التي يحدث فيها المدّ والجزر، فلولا الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض، لحدث في هذه الطبقة جزر ومدّ أقوى ممّا يحدث في البحار، ومن ثمّ صار للجبال دور في منع ميَدان الأرض واضطراب سكّانها، ويجعل حركتها أكثر

انتظاماً وسلاسة.

ويضاف إلى هنا أنّ العواصف الشديدة تحرّك الرمال والتراب من على وجه الأرض، فلولا هذه الجبال لأصبح سطح الأرض كالصحاري اليابسة، وكأنّها تحدّ من ضغط الرياح على وجه الأرض ومن فيها.

٣. (وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّة).

وذلك كالحيوانات المختلفة من الطيور والحشرات والزواحف التي لكلّ منها حياة خاصّة، فلو قلنا بفرضية «لابلاس»: «أنّ الأرض كانت جزءاً من الشمس فانفصلت عنها إثر دوران الشمس على محورها وكانت شعلة وهاجة تبلغ حرارتها مقدار حرارة الشمس»، ومن المعلوم أنّ مثلها لا يكون منبتاً للنبات والحيوان حتى بعدما بردت وصارت صالحة للحياة، فإنّ الموجود الحيّ لا يتولّد إلاّ ـ من موجود مثله ـ والمفروض أنّه لم يوجد فيها أي حياة، فعندئذ يطرح السؤال: من أين ظهرت آثار الحياة على اختلاف ألوانها على سطح الأرض؟ وهذا يدلّ على أنّ ثَمّة خالقاً مبدعاً مدبّراً أوجد الحياة فيها بفضل قدرته.

ولمّا كانت هناك مظنّة سؤال من أنّ استمرار الحياة رهن وجود الماء، فمن أين انتفعت بذرة الحياة من يومها إلى يومنا هذا؟ جاء الجواب في الفقرة الآتية.

٤. (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً).

عدل سبحانه في هذه الفقرة عن الغَيبة إلى التكلُّم مع الغير وقال: (وَ أَنْزَلْنَا) مع أنّ الجميع فعله سبحانه، ولعلّ وجه العدول إظهار العناية بفعله هذا ثم إنّ المراد من (السَّمَاءِ) هو كلّ ما علاك وأظلّك، فكلّ دابة في الأرض تستمد حياتها من الماء الذي ينزله سبحانه من السماء، بل يستمد كلّ نبات حياته النباتية من الماء كما يقول:

٥. (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْج كَرِيم).

أي أنبتنا من كلّ صنف كريم، أي حسن النبتة وطيّب الثمرة والرائحة.

ومع هذه الآيات الكريمة هل يصحّ نسبة هذه الأُمور إلى الأصنام والأوثان؟ والظاهر أنّ قوله: (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْج كَرِيم) إشارة إلى الأصناف من كلّ نبات، ولا يشير إلى وجود الزوجية في عالم النباتات، وإن كانت الزوجية فيها أمراً مسلّماً عند العرب في بعض النباتات كالنخل.

نعم تستفاد الزوجية في عالم المادّة كلّه من قوله سبحانه:(وَ مِنْ كُلِّ شَيْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات:٤٩..

١١. (هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَل مُبِين):

كأنّ الآية بمنزلة استنتاج ممّا تقدّم، وقوله: (فَأَرُونِي) الأمر بالإراءة للتعجيز وهو متضمّن معنى الاستفهام أي استفهام إنكاري، والآية تندّد بالمشركين حيث إنّهم مع رؤية هذه الآيات الباهرة التي تدهش العقول يتركون عبادة الخالق ويعبدون المخلوق الذي لا يسمع ولا يبصر، فهؤلاء بسبب عبادتهم غير الله ظالمون وضالّون، كما يقول: (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَل مُبِين) أمّا كونهم ظالمين فلأنّ العبادة من حقوق الله سبحانه وهم جعلوها لمن هم ليسوا لها بأهل، وأمّا كونهم (فِي ضَلاَل مُبِين) فلأنّهم عدلوا عن الحقّ الجليّ إلى الباطل المحض.

سورة لقمان: الآيات ١٢ ـ ١٩ (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ ... إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ).

الآيات: الثانية عشرة إلى التاسعة عشرة

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْن وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ

لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ).

المفردات

لقمان: اسم رجل حكيم، سيوافيك تفصيل حياته.

اشْكر: الشكر: صرف النعمة في محلّها وتقدير صاحبها.

وهناً على وهن: قال الراغب: كلّما عظُم في بطنها زادها ضعفاً على ضعف.

فِصاله: الفصال: الفطام، وهو الحيلولة بين الطفل والرضاع.

جاهداك: بذلا جهدهما وسعيهما.

مثقال: الثقل، لا الوزن المعروف الذي يجمع على مثاقيل.

خردل: نبات له حبّات سوداء صغيرة جدّاً يضرب المثل بصغرها.

لطيف: أُريد هنا وصول علمه إلى كلّ شيء خفيّ.

عليم: عالم بكُنه الأشياء وحقائقها.

عزم الأُمور: العزم: عقد القلب على إمضاء الأمر، وأُريد هنا الأُمور المعزومة التي قطعها الله قطع إيجاب.

تصعّر: الصَّعَر: إمالة الوجه عن الناس تكبّراً.

قال الشاعر:

وكنّا إذا الجبّار صعّر خدّه *** أقمنا له من ميله فتقوّما

مرحاً: فرحاً وبطراً.

مختالاً: الخيلاء: التكبّر عن تخيّل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه.

فخور: الفخر: ذكر المناقب للتطاول بها على السامع.

اقصد: الاقتصاد يستعمل فيما له طرفان: إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، وكالشجاعة، فإنّها بين التهوّر والجبن، وعلى هذا فيكون المعنى لا تُبطئ ولا تُسرع. ويحتمل أن يكون المراد مشياً بين التكبّر والخضوع، والوسط بينهما هو التواضع.

اغضض: اخفض من صوتك إذا دعوت ولا ترفعه عالياً.

التفسير

١٢.(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ):

صلة الآية بما قبلها واضحة، فبينما تضمّنت تلك وصفاً لمن يستغرق في لهو الحديث وباطل الكلام ليضلّ به سامعيه عن سبيل الله ، تضمّنت هذه ما يقابلها، أعني وصفاً لمن يحمل الحكمة، فهو يهتدي ويهدي بها الناس، والله سبحانه يعرّف لنا رجلاً آتاه الله الحكمة ويقول:(وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)فيقع الكلام في موردين:

١. مَن هو لقمان؟

٢. ما هو المراد من الحكمة؟

وإليك دراسة الموردين:

الأوّل: مَن هو لقمان؟

اختلفت في «لقمان» هذا كلمات المفسّرين والمؤرّخين والمحدّثين اختلافاً كبيراً، وها نحن نذكر بعض ما يكشف عن شخصيته، دون الدخول في التفاصيل .

أخرج الترمذي في نوادر الأُصول عن أبي مسلم الخولاني قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّ لقمان كان عبداً كثير التفكّر، حسن الظن، كثير الصمت، أحبَّ الله فأحبّه الله تعالى، فمنّ عليه بالحكمة، نودي بالخلافة قبل داود(عليه السلام)فقيل له: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق، قال لقمان: إن أجبرني ربي عزّ وجلّ قبلت، فإنّي أعلم أنّه إن فعل ذلك أعانني، وعلّمني، وعصمني، وإن خيّرني ربي قبلت العافية، ولم أسأل البلاء، فقالت الملائكة: يا لقمان لِمَ؟ قال: لأنّ الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كلّ مكان، فيخذل أو يُعان، فإنّ أصاب فبالحريّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ضائعاً، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فغُطّ بالحكمة غطّاً، فانتبه فتكلّم بها، ثم كان يؤازر داود بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان، أُعطيت الحكمة، وصرفت عنك البلوى». مجمع البيان:٨/٨٨ . ولاحظ : الدر المنثور:٦/٥١١.

ونقل الطبرسي أيضاً عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «والله ما أُوتي لقمان الحكمة لحسب ولا مال، ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنّه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورّعاً في الله ، ساكتاً سكيناً عميق النظر، طويل الفكر، حديد البصر، لم ينم نهاراً قط، ولم يتكئ في مجلس قوم قط، ولم يتفل في مجلس قوم قط، ولم يعبث بشيء قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط قط، ولا على اغتسال، لشدّة تستّره وتحفُّظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط، ولم يغضب قط مخافة الإثم في دينه، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بما أُوتيه من الدنيا، ولا حَزِن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء وولد له الأولاد الكثيرة، وقدّم أكثرهم أفراطاً فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمر بين رجلين يقتتلان أو يختصمان إلاّ أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحاجزا، ولم يسمع قولاً استحسنه من أحد قط إلاّ سأله عن تفسيره، وعمّن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والعلماء، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين، فيرثي للقضاة بما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لعزّتهم بالله ، وطمأنينتهم في ذلك، ويتعلّم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز من السلطان، وكان يداوي نفسه بالتفكر والعبر، وكان لا يظعن إلاّ فيما ينفعه، ولا ينظر إلاّ فيما يعينه، فبذلك أوتي الحكمة، ومنح العصمة». مجمع البيان:٨/٩٢ـ٩٣؛ تفسير القمّي: ٢ / ١٣٩ .

ولعل هذا المقدار يكفي في التعرّف على شخصيّة ذلك الحكيم الذي نقل الله كلماته الحكيمة في مصافّ آياته. وسيوافيك شيء من حكمه بعد الفراغ من تفسير الآيات المتضمّنة لكلماته.

الثاني: ما هو المراد من الحكمة؟

الحكمة هي المعرفة العلمية النافعة، وهذا هو التعريف الجامع. فمعرفته سبحانه بما له من الصفات والأفعال من مصاديقها، كما أنّ معرفة كمال النفس الذي يعبّر عنه بعلم الأخلاق من مصاديقها، أو معرفة ما يُعدّ كمال العائلة الذي يعبر عنه بتدبير المنزل، ويمكن أن يُعدّ من الحكمة ما فيه صلاح المجتمع الذي يعبَّر عنه بالسياسة المدنية.

والذي يدلّنا على سعة المفهوم أنّه سبحانه بعدما أفاض في سورة الإسراء في ذكر موضوعات متعدّدة، وصف الجميع بالحكمة، وقال: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) الإسراء:٣٩.والموضوعات هي: توحيده سبحانه ، والإحسان إلى الوالدين، وإيتاء ذي

القربى حقّه، والنهي عن الإسراف والتقتير، وعن قتل الأولاد خشية الإملاق، واقتراف المعاصي الكبيرة كالزنا وقتل النفس، والتطفيف في الكيل والوزن، والمشي في الأرض مرحاً.

وعلى هذا فكلّ معرفة مُحكَمة غضّة طريّة في كلّ زمان ومكان لا تندرس بمرور الأزمنة، تُعدّ حكمة تكمن فيها سعادة الفرد والمجتمع.

قوله تعالى: (أَنِ اشْكُرْ للهِ) على تقدير كلمة وهي (قلنا له: أن اشكر لله)، وربما يقال إنّه تفسير للحكمة، والأوّل أظهر.

والذي يؤيد الوجه الأوّل أنّ كلّ نعمة تفاض من الله سبحانه على عبد من عباده تقتضي الشكر، فبما أنّه سبحانه آتاه الحكمة فاقتضى ذلك أمرَه بالشكر، وهو عرفان النعمة من المنعم، ومقابلة إنعامه بما يرضيه .

ثمّ إنّ الشكر لمبدأ النّعم مفتاحُ المعارف، فإنّه إذا أراد الشكر فعليه أن يعرف المنعم بأفعاله وصفاته حتى يكون شاكراً له، فيكون مثل هذا مبدأ للمعارف.

ولمّا كانت هنا مظنّة توهُّم أنّ الأمر بالشكر لحاجة من الله سبحانه إليه، دفعه بقوله: (وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ): أي أنّ منفعة الشكر تعود لمصلحة الشاكر نفسه وفائدته لا لحاجته سبحانه إليه وانتفاعه به، كيف؟ وهو عزّ اسمه غنيّ مطلق لا ينفعه شكر الشاكرين (وَمَنْ كَفَرَ) فلا يضرّه كفره، فالجزاء محذوف أُقيم مقامه قوله:(فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ)عن خلقه، غير محتاج لشكر من يشكر، (حَمِيدٌ): أي محمود بصفاته الذاتية والفعلية، مستوجب للحمد والثناء.

هذا، والوجه في رجوع شكر الشاكر إلى نفسه واضح، وهو أنّه بالشكر تظهر معرفته بالمبدأ، ومن ثمّ استحقاقه للمزيد من النعم في الدنيا والآخرة، وأمّا الكافر فهو لكفره وعدم معرفته بمبدأ النعم قد أظهر جهله وعدم استحقاقه لمزيد من النعم، وفي الآخرة يُعرّض نفسه لسخط الله تعالى لأجل هذا الجهل.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «شكر النعم يوجب مزيدها، وكفرها برهان جحودها». عيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي الواسطي:٢٩١.

وقال (عليه السلام): «شكر النعمة أمان من حلول النقمة». عيون الحكم والمواعظ:٢٩١.

وقال (عليه السلام): «نعمة لا تُشكر كسيئة لا تغفر». عيون الحكم والمواعظ:٤٩٧.

ثمّ إنّه سبحانه عبّر عن الشكر بلفظ المضارع وعن الكفر بلفظ الماضي وقال: (وَ مَنْ يَشْكُرْ) ثم قال: (وَ مَنْ كَفَرَ) ولعلّ ذلك لإفادة أنّ الشكر يجب أن يكون مستمراً لتجدّد النعم في كلّ يوم.

وأمّا الكفر فيكفي فيه مرّة واحدة ليُحبط ما تقدّم عليه من الأعمال الصالحة.

إلى هنا تعرّفنا على شيء من أحوال لقمان ومقامه السامي. ثم إنّه سبحانه بدأ في الآيات التالية ـ التي لا تتجاوز ست آيات ـ ببيان كلماته الحكيمة التي أوصى بها ولده وهو بصدد وعظه، وقبل أن نفسّر مفاد هذه الكلم نشير إلى أمر، وهو:

أنّ ما أوصى به ابنه لا يخرج عن وصايا عشر، وهي تدخل في الأبواب التالية:

١. الوصية في باب الاعتقاد، وتتمثّل في الاعتقاد بوحدانيته تعالى، ونهيه عن اتّخاذ شريك له في إلهيّته أو ربوبيّته .

٢. الوصية بما يرجع إلى تحسين الأفعال، وتشمل: أداء الصلاة، والقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى.

٣. الوصية في مجال المعاشرة مع الناس، وتشمل: النهي عن تصعير الخدّ، وعن المشي مرحاً.

٤. الوصية في مجال القيم والمثل الإنسانية، وتشمل: الاعتدال في المشي، وغضّ الصوت.

إذا عرفت ذلك فلندخل في تفسير كلّ واحد من الأُمور التي أوصى بها لقمان ابنه.

١٣. (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ):

قوله تعالى:(وَ إِذْ) عطف على قوله: (وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا)والظرف متعلّق بفعل محذوف تقديره: (وَ)«اذكر يا محمد»(إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ): أي ينصحه ويذكّره، وقد بدأ في تأديبه وتعليمه بأفضل المعارف وأعلاها وهي معرفة الله كما قال:(لاَ تُشْرِكْ بِاللّهِ): أي لا تجعل شريكاً لله في ألوهيّته أو ربوبيّته. ثمّ علّل هذا النهي بقوله: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)لأنّ الظلم عبارة عن التجاوز على حقوق الآخرين، وأي ظلم أعظم من التجاوز على حقوق الله سبحانه؟ فمن أشرك بالله سبحانه وتوجّه بالعبادة إلى غيره فقد منع ما وجب لله عليه من معرفته وتوحيده، فكان ظالماً.

هذا هو تفسير الآية بظاهرها وهناك أُمور لها صلة بالآية، وهي:

١. تربية الأولاد من وظائف الآباء

كما أنّ من مسؤوليات الآباء النفقة على الأولاد، وتوفير مستلزمات الحياة لهم إلى أن يبلغوا رشدهم ويستطيعوا إدارة حياتهم بأنفسهم، فهكذا التربية المعنوية فإنّها تقع على عاتق الآباء، من غير فرق بين تعليمهم العقائد الصحيحة، وبين غرس القيم والأخلاق التي جاء بها نبي الإسلام في نفوسهم، وليس ثمّة شيء أفضل من أدب حسن يؤدّب به الآباء أولادهم، يقول الإمام علي (عليه السلام): «ما نحل أب ولداً نحلاً أفضل من أدب حسن». مستدرك الوسائل:٢/٦٢٥.

ولذلك نرى الإمام زين العابدين(عليه السلام) يعتبر تأديب الأولاد أمراً في غاية الأهمية، ويسأل الله تعالى أن يوفّقه لهذا الأمر، ويقول في بعض أدعيته: «وأعنّي على تربيتهم وتأديبهم وبرّهم». الصحيفة السجادية:١٣٥، الدعاء رقم٢٥.

وما هذا إلاّ لأنّ الطفل في أوّل حياته مستعدّ لقبول كلّ أدب يُعلّم، ومثله كالأرض الخالية تقبل كلّ بذر يُلقى فيها، يقول الإمام علي(عليه السلام):«إنّما قلب الحدَث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قَبِلتْه».(نهج البلاغة، قسم الكتب، برقم ٣١.) فعلى الآباء أن يبادروا أولادهم بالتهذيب والتوجيه والتربية السليمة قبل أن يسبقهم إلى ذلك أصحاب المناهج الفاسدة، وإلاّ فيصعب إحلال تربية إسلامية مكان تربية فاسدة، ونحن نأتي لبيان ذلك بمثال: نفترض أنّ نحّاتاً أخذ حجراً من الرخام، فهذا الحجر في بدء الأمر يكون قابلاً لأن ينحت منه أي شكل يريد من طير وإنسان وحيوان، فلو أتمّ النحّات عمله وأخرج من هذا الحجر مجسمة معيّنة فمن الصعوبة أن يصنع منه مجسمة أُخرى بشكل آخر، إلاّ بكسر الحجر و إتلافه. فهكذا الطفل إذا وقع تحت تربية منهج فاسد، ونشأ عليها وصار ذا طبع وفكر خاص، فمن العسير أن تستبدل تلك الشخصية بشخصية أُخرى بالتصرّف في قلبه وإزالة ما سبق.

وأفضل الطرق لنجاح تربية المربي ولده هو أن ينظر إليه باحترام وتكريم، ويتكلّم معه من ذلك المنطلق على نحو يحسّ الولد أنّه إنسان مكرّم عند أبيه، وهذه هي الطريقة التي سلكها الإمام المجتبى(عليه السلام) في تربية أولاده، فقد روى ابن عساكر عن الحسن بن علي(عليه السلام) أنّه قال ـ وقد دعا بنيه وبني أخيه ـ : «إنّكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار آخرين فتعلّموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه ويجعله في بيته». تهذيب تاريخ دمشق: ٤ / ٢٢٢. وانظر: بحار الأنوار:٢/١٥٢.

ترى أنّ الإمام يخاطبهم بكلام يوحي فيه إليهم أنّهم خلقوا لعصر آخر، يصبحون فيه ذوي مسؤولية عن وظائف كبيرة، فلابدّ من التزود ـ لإنجازها ـ بالعلم والمعرفة.

ولذلك نرى أنّ لقمان الحكيم صدر عن هذا المبدأ وأخذ يخاطب ولده بقوله: «يا بُنيّ» بالتصغير للتحبيب كما هو معروف، ثم بدأ بالتربية العقائدية، وقال: (لا تُشْرِكْ بِاللّهِ) فأراد أن يعرّفه مبدأ وجوده، وبالتعرّف عليه يعرف نفسه ووظائفه، ولذلك بدأ بقوله:(يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ) وهذا دليل على أنّ وجود الصانع كان أمراً مسلّماً، ولم يكن أي خلاف فيه بل كان الخلاف هو في توحيده وعدمه، وما ربما يقال من أنّ الآية تدلّ على أنّ ولد لقمان كان مشركاً فأراد هدايته إلى التوحيد أمر مشكل، إذ من البعيد

أن يغفل حكيم مثل لقمان عن ولده حتى يقع في مستنقع الشرك، وإنّما هو تعليم كلّي يساوي فيه بين ولده وغيره.

ما هو الدافع إلى الشرك؟

لا شكّ أنّ كلّ إنسان خلق على فطرة التوحيد بمعنى معرفة الصانع، ولكن ربما تختلّ الفطرة وتميل من التوحيد إلى الشرك وذلك بتعليمات فاسدة نابعة من نفس خاطئة أو من أشخاص خاطئين، فربما يتصوّر أنّ الصانع بما أنّه غير مرئيّ لا يمكن عبادته والتضرّع إليه، فيتوسّطون في عبادة الله بإناس قدّيسين فيعبدونهم بزعم أنّ عبادتهم تقرّبهم إلى الله سبحانه، وهذا هو المفهوم من قوله سبحانه:(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) الزمر:٣.فكأنّهم يتصوّرون أنّ الله تعالى احتجب عنهم فلا يمكن عبادته والتضرّع إليه، فلا محيص من عبادة الوسائط مع أنّه سبحانه يفنّد تلك العقيدة ويقول: (وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ق:١٦، ويقول: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَة إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ) المجادلة:٧، ويقول سبحانه: (وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد:٥، ومع هذا القرب فأين الاحتجاب؟ نعم هذا القرب ليس قرباً مكانياً ولا قرباً حلولياً بل المراد قرب قيّوميّ، فإنّ العالم وما فيه قائم بوجوده، على نحو يفاض الوجود من العالم القدسيّ إلى العالم السفليّ آناً فآناً ولحظة بعد لحظة، فمنزلة ذلك العالم بالنسبة إلى الله منزلة الصور المترشّحة في النفس لو عرض الانقطاع بين النفس وصورها لم يكن منها أي أثر.

نعم للقول بالشرك علل أُخرى تسرّبت إلى المشركين، ونحن نحيل بيانها إلى مكان آخر.

٢. بداية التربية

إنّ التربية عند الغربيّين والمتأثّرين بهم تبدأ بعد الولادة بمدة غير قليلة، ولكنّها في الإسلام تبدأ قبل الزواج، ولذلك نرى أنّ الإسلام يرشد الزوجين إلى أُمور فيها صلاح أولادهم، وقد حفلت كتب النكاح بآداب الزواج والمضاجعة وغير ذلك، وها نحن نذكر منها نزراً قليلاً:

١. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):«أيّها الناس إيّاكم وخضراء الدّمَن»، قالوا: يا رسول الله : وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في منبت السوء». الوسائل:١٤، الباب١٣، مقدّمات النكاح وآدابه، الحديث٤.

٢. قال الإمام الصادق(عليه السلام):«تزوّجوا في الحِجر الصالح، فإنّ العرق دسّاس». مكارم الأخلاق:١٩٧؛ كنز العمال:١٦/٢٩٦.

١٤. (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْن وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ):

توسّطت آيتان ـ أعني: هذه الآية ومابعدها ـ في ثنايا وصايا لقمان، حيث يأتي بعدهما قول لقمان:(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّة مِنْ خَرْدَل) فيقع الكلام فيما هو السبب لورود الآيتين في ثنايا وصايا لقمان.

أقول: الصلة بين الآيتين وما قبلهما واضحة، يمكن تبيينها بالوجه التالي:

إنّه سبحانه أمر لقمان لأجل تعليم الحكمة أن يشكر له وقال: (وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ)، فعاد البيان القرآني إلى أنّ الشكر غير مختصّ بالله سبحانه وإن كان أسمى الشكر له، بل يجب الشكر لمن أسدى إلى الإنسان نعمة كالوالدين اللّذين تولّيا بذر بذرة وجوده، وحمله على وهن بعد وهن إلى فطامه.

فيجب على الإنسان شكر الله سبحانه ثم شكر الوالدين، وفي هذا الصدد يشير إلى أُولى مراحل نموّ الإنسان (فترة الحمل) ويقول:(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) كما وصّيناه بالشكر لي، ثم بيّن سبب إسداء الشكر إليهما، والّذي يتجسّد في برّهما والإحسان إليهما. ومع أنّ الوالدين ـ كليهما ـ يشاركان في بذرة وجوده وتربيته لكنّه سبحانه خصّ بالذكر ما تتحمّله الأُم خلال فترة الحمل، فقال: (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْن): أي ضعفاً على ضعف، إذ كلّما ازداد الحمل نموّاً ازدادت الأُمّ ضعفاً ، لأنّ الجنين يحصل، من خلال المشيمة، على الغذاء والماء والأُوكسجين من دمها، ولذلك كلّما تقدّم في العمر يزداد ضعف الأُم، ثم انتقلت الآية إلى ذكر

فطامه وقالت: (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ): أي وفطامه من الرضاع في انقضاء عامين، وقد صرّح سبحانه بمدّة الرضاعة في آية أُخرى وقال: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) البقرة:٢٣٣. . ثم أمر سبحانه بعد هذا بشكره وشكر والديه وقال: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)ذكر نفسه بياء المتكلّم فقال: (لِي)مكان «لنا»، لأنّه أصرح في التوحيد، حيث إنّ الكلام في مكافحة الشرك.

وسيوافيك في تفسير سورة الأحقاف أنّ الإمام عليّاً(عليه السلام) استخرج أقلّ مدّة الحمل وهي ستة أشهر من ضمّ قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) إلى قوله تعالى:(وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً).(الأحقاف:١٥.)

ثمّ إنّ هذه الفقرة(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) تفسير للوصاية في أوّل الآية، فالله سبحانه أوصى بشكره وشكر والديه، ثم أتمّ الآية بقوله: (إِلَيَّ الْمَصِيرُ)أي إليّ المرجع، فأُجازي كلاًّ بحسب عمله.

وانسجاماً مع ما ورد في الآية من تنبيه إلى ما تكابده الأُم من المشاقّ من الحمل، والتربية حتّى الفطام، الأمر الّذي يوجب إيثارها بالقسط الأكبر من البرّ والإحسان... انسجاماً مع ذلك، تأتي وصيّة الإمام عليّ بن الحسين، سيّد العابدين بالأُمّ، فيقول (عليه السلام):

«وأمّا حقّ أُمّك: أن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً، ووَقَتْكَ بجميع جوارحها، ولم تبالِ أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتَضحى وتُظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووَقَتْكَ الحرّ والبرد لتكون لها، فإنّك لا تطيق شكرها إلاّ بعون الله وتوفيقه». الأمالي للشيخ الصدوق: ٣٠٣ ـ ٣٠٤، المجلس (٥٩).

١٥. (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

دلّت الآية السابقة على أنّ من واجبات الإنسان شكر الوالدين، كما أنّ من واجبه ما في قوله:(وَ صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا): أي صاحبهما صحاباً معروفاً على ما يقتضيه العرف والشرع من حسن المعاشرة والمعونة .

ثمّ ربّما يتوهّم منه لزوم إرضاء الوالدين في كلّ شيء وإن كان مخالفاً للعقل والشريعة، عاد البيان القرآني لتوضيح ذلك، بالتأكيد على أنّ إطاعة الوالدين إطاعة محدودة بشرط، وهو أن لا يأمراه بالتنكّب عن جادّة التوحيد إلى مستنقع الشرك كما قال:(وَ إِنْ جَاهَدَاكَ): أي بذلا جهدهما (عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ): أي تخرج عن حدّ التوحيد إزاء ما لم يكن لهم علم به فضلاً عمّا كان لهم علم ببطلان ما يأمران به، فعندئذ (فَلاَ تُطِعْهُمَا) ومع ذلك (وَ صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا): أي أحسن إليهما وارفق بهما في الأُمور الدنيوية ولا يكون ترك إطاعتهما في الشرك بالله ، سبباً للخروج عن أدب المعاشرة. ولمّا نهى عن اتّباع الوالدين في الشرك، أمره باتّباع مَن رجع إليه تعالى بالطاعة وآثر رضاه وقال: (وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)وهو سبيل الأنبياء والأولياء والصالحين. ولا خصوصية للشرك هنا، بل الملاك معصية الله سبحانه، فلا تجوز إطاعة أمر أحد فيما جاوز الحق، فإنّه «لاَ طَاعَةَ لِمخْلُوق فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ» نهج البلاغة: قصار الحكم برقم ١٦٥، كما ورد في الحديث الشريف.

روي أنّ عمر بن هبيرة (أمير العراق في عهد يزيد بن عبدالملك) قال للحسن البصري في ملأ من الناس، منهم الشعبي وابن سيرين: يا أبا سعيد، إنّ أمير المؤمنين يأمرني بالشيء، أعلم أنّ في تنفيذه الهلكة في الدين، فما تقول في ذلك؟ قال الحسن: ماذا أقول، إنّ الله مانعك من يزيد، ولن يمنعك يزيد من الله . يا عمر خف الله ، واذكر يوماً يأتيك تتمخّض ليلته عن القيامة، أنّه سينزل عليك ملك من السماء، فيحطّك عن سريرك إلى قصرك، ويضطّرك من قصرك إلى لزوم فراشك، ثم ينقلك عن فراشك إلى قبرك، ثمّ لا يغني عنك إلاّ عملك. فقام عمر بن هبيرة باكياً يصطكّ لسانه . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ١٥٨ .ثم أخبر عن

مرجع الجميع إليه سبحانه بعد الموت، كما قال: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)فيخبر كلّ إنسان بما عمل (فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، ثم يجازي كلاًّ بعمله، فالآية وازنت بين العقل والعاطفة، أمّا العقل فلأنّ الأمر بإكرام الوالدين لأجل أنّهما يبتغيان سعادة الأولاد فإذا كان أمرهما مضاداًّ للسعادة، فالعقل يحكم بعدم اتّباعهما، ولكنّه لا يصدّ الأولاد عن رعايتهما وإظهار العطف والحنان لهما ومعاشرتهما بالحسنى.

وقد تجسّدت هذه الموازنة في كلام الإمام علي(عليه السلام) حيث قال: «وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقّاً. فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْء، إِلاَّ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحانَهُ». شرح نهج البلاغة: ٣٦٥/١٩.

ترى أنّه يأمر بإطاعة الوالد على نحو الإطلاق خضوعاً للعاطفة، ولكنّه يستثني معصية الله خضوعاً للعقل، إذ ليس فيه سعادة الولد بل شقاؤه.

والآية إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ الإسلام يبعث المكلّف إلى لزوم كون الاعتقاد نابعاً عن علم ويأمره باجتناب الاعتقاد عن شكّ أو جهل، كما يقول:(وَ لاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) الإسراء:٣٦.

١٦. (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّة مِنْ خَرْدَل فَتَكُنْ فِي صَخْرَة أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ):

بدأ لقمان الحكيم برنامجه التربوي بالتوحيد ومكافحة الشرك، ثمّ انتقل إلى الحديث عن الاعتقاد بالمعاد ويوم الجزاء، وما هذا إلاّ لأنّهما ركنان أساسيان في عامّة الشرائع السماوية، فحذف المعاد من صحيفة الدين، يجعل الدين برنامجاً بشرياً لا صلة له بربّ السماء والأرض، فقوام كلّ دين سماوي هو الاعتقاد بالله الواحد وبيوم الجزاء، ومن هنا ذكر في وصيّته أنّ كلّ عمل يصدر من مكلّف وإن كان صغيراً جدّاً كوزن حبّة من الخردل، حتى لو ستره في داخل صخرة أو نقطة ما في السماوات والأرض، فالله يأتي به.

ويتّضح عظم هذا التمثيل إذا اطّلع الإنسان على بعض ما توصّل إليه علماء الفلك من سعة السماوات، وهو ما يدهش العقل، فهذه الشمس، مثلاً (الّتي يبلغ قطرها ١،٣٩٢،٠٠٠ كم، وهي تعادل ١٠٩ مرات قدر قطر الأرض) ما هي إلاّ نجم متوسط الحجم بين النجوم الأُخرى، وهي ليست إلاّ واحدة من ١٠٠ بليون نجم في مجرّة درب التبّانة، وهذه المجرّة واحدة من ١٠٠ بليون مجرّة على الأقل يتألّف منها الكون الظاهر لنا. وإحدى هذه المجرّات الّتي يمكن رؤيتها من الأرض (دون الاستعانة بالتلسكوب) وتعرف بمجرّة المرأة المسلسلة (الأندروميدا) تبعد عن الأرض بأكثر من مليوني سنة ضوئية السنة الضوئية: هي المسافة الّتي يقطعها الضوء في سنة، وإذا علمنا أنّ سرعة الضوء هي نحو ٣٠٠،٠٠٠ كم في الثانية، تصبح المسافة نحو ٥ ،٩ ترليونات كيلومتر.!! فسبحان مَن قال في كتابه المجيد: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) غافر:٥٧..

فالمعلم النموذجي «لقمان» يؤدّب ابنه بالنحو التالي، فيقول:(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ) المظلَمة أو السيئة أو الحسنة (مِثْقَالَ): أي وزن (حَبَّة مِنْ خَرْدَل فَتَكُنْ فِي صَخْرَة): أي في جوفها (أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ): أي في أيّ ناحية من أنحاء السماء أو الأرض وسعى الإنسان في سترها فإنّه (يَأْتِ بِهَا اللهُ): أي يحضرها يوم القيامة حين يضع الموازين، قال تعالى: (وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) الأنبياء:٤٧..

ثم ذكر وجه إتيانها بالقول: (إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ)يعلم الخفيّ والأخفى(خَبِيرٌ) يعلم مكانها ومستقرّها.

وهذه النصيحة المبنيّة على سعة علمه سبحانه بكل شيء صغيراً كان أم كبيراً، تدلّ على أنّ لقمان كان حكيماً متوغّلاً في المعارف الإلهية حتى أنّه وصف الله تعالى بما وصف سبحانه به نفسه في غير واحدة من الآيات نظير:

أ. قوله تعالى: (لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّة فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين). سبأ:٣.

ب. قوله تعالى: (وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَة إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَ لاَ حَبَّة فِي

ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْب وَلاَ يَابِس إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين). الأنعام:٥٩.

ج. قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ). آل عمران:٥.

هذا، وفي قوله: (يَأْتِ بِهَا اللّهُ) إلماع إلى تجسّم الأعمال وأنّ كلّ فعلة حسنة أو سيئة يأت بها الله يوم القيامة بثوب يناسب وجودها يوم القيامة، فهذه المعرفة التي ذكرها لقمان الحكيم ممّا جاءت مراراً في الذكر الحكيم أيضاً:

أ. قال تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُحْضَرًا).(آل عمران:٣٠.)

ب. قال تعالى: (وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا). الكهف: ٤٩.

ج. قال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْرًا يَرَهُ).(الزلزلة:٧.)

ثمّ إنّ الظاهر أنّ قوله: (إِنَّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)من كلام لقمان حيث اختار من أسمائه تعالى ما يناسب مضمون النصيحة، فالذي يستحقّ العبادة، هو الّذي ينفذ علمه في كلّ شيء، ويعلم مواضع الأشياء، وهو الله جلّ شأنه.

وأين هذا البيان ـ أعني: علمه سبحانه بكلّ دقيق وجليل وكلّ ما أُخفي في مكامن الأرض والسماوات ـ ممّا جاء في التوراة في سفر التكوين الإصحاح الثالث الذي يتحدّث عن آدم وحواء حينما كانا ماشيين في الجنة وسمعا صوت الربّ كما يقول: وسمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ في وسط شجر الجنة، فنادى الربّ الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنّي عريان فاختبأت.(التوراة، (الكتاب المقدّس):٦.)

١٧. (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ):

بعد أن فرغ لقمان الحكيم من الأصل الأوّل من أُصول تعاليمه الأربعة، أعني: الدعوة إلى الاعتقاد الصحيح بالله سبحانه ويوم المعاد، شرع في الوصية بالأصل الثاني من تعاليمه، أي الدعوة إلى الأعمال الصالحة، وذكر منها أُموراً أربعة:

١. إقامة الصلاة.

٢. الأمر بالمعروف.

٣. النهي عن المنكر.

٤. الصبر على الأذى.

ثم وصف جميع هذه الأُمور بأنّها (مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ): أي الأُمور المحتومة على عباده، والّتي لا محيص عنها، وإليك تبيينها:

١. (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوةَ).

دعا لقمان الحكيم ابنه إلى إقامة الصلاة، وهي غير إتيان الصلاة، فالمكلّف إذا صلّى يصدق عليه أنّه صلّى، وإنّما يصدق عليه أنّه أقام الصلاة إذا سعى في طريق قيام المجتمع بهذه الوظيفة المهمة التي هي صلة الإنسان بربّه. ويحتمل أن يراد بإقامتها، أداؤها مع شروطها مصحوباً بالخضوع والخشوع وأنْ لا يدور في خَلَده سوى الله سبحانه.

ثمّ إنّ الصلاة من أفضل الأعمال التي دعا إليها عدّة من أنبياء الله :

١. فهذا إبراهيم الخليل(عليه السلام) يذكرها في دعائه ويقول: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَاد غَيْرِ ذِي زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوةَ) إبراهيم:٣٧. وكأنّهم لم يقطعوا الفيافي حتّى النزول في تلك الأرض إلاّ لإقامة الصلاة عند البيت.

٢. وهذا هو إسماعيل(عليه السلام) يثني عليه سبحانه بقوله:(وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَاةِ) مريم:٥٥.

٣. وهذا هو المسيح (عليه السلام)يتكلّم في المهد ويقول:(وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا). مريم:٣١.

فالصلاة أقدم عبادة قام بأمرها وبإقامتها الأنبياء والرسل حتى جاء دور خاتمهم(صلى الله عليه وآله وسلم)فحثّ على إتيانها

وإقامتها بالآيات النازلة عليه في الكتاب المجيد. وللصلاة أحكام وآداب وأسرار، وبما أنّ المقام لا يسع بيانها، فلنقتصر على شيء يسير ممّا ورد في الذكر الحكيم.

قال سبحانه: (وَ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي) طه:١٤. فالصلاة تذكّر بالله سبحانه، وذكره رأس كلّ المعارف، يقول سبحانه:(أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد:٢٨، فمن يريد تهذيب نفسه والإنابة إلى الله سبحانه فعليه بذكر الله ، فهي الجُنّة أمام الهوى والهوس وطغيان النفس.

ولو قال سبحانه: (إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) العنكبوت:٤٥. فلأنّها ذكر الله ولا تنفكّ عنه، وهو يعالج كلّ داع نفساني ويكافح كلّ رغبة شيطانية.

وللإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)كلام يوصي به أصحابه بالصلاة ويقول: «تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا. فَإِنَّهَا(كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً). النساء: ١٠٣. أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا:(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قالوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). المدثر: ٤٢ ـ ٤٣ . وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم)بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّات، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاع، وَلاَ قُرَّةُ عَيْن مِنْ وَلَد وَلاَ مَال. يَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ : (رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ). النور: ٣٧. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ :(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)، طه: ١٣٢. فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا اَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ».

نهج البلاغة: الخطبة ١٩٩؛ الوسائل: ٣ ، الباب ٧ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٨ .

٢. (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ).

إذا عاش الإنسان معيشة فردية فأثر أفعاله الصالحة والفاسدة يرجع إليه ولا يشاركه فيهما غيره، وأمّا إذا عاش ضمن مجتمع ما، فهو يشارك المجتمع في كلا الأمرين، فإذا سادت الأخلاق الفاضلة في المجتمع انتفع بها هو أيضاً، ولو ساد الفساد فيه، أصابه هو أيضاً، ولم ينجُ من آثاره، فلذلك نرى الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)يشبّه المجتمع بالسفينة التي تجري في البحر، فعامّة ركّاب السفينة لهم مصير واحد، فلو رسَتْ على ساحل النجاة انتفع بذلك جميع ركّابها، ولو تحطّمت غرق الجميع. وهذا المعنى جاء في الحديث الّذي رواه الثعلبي عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «مثل الفاسق في القوم كمثل قوم ركبوا سفينة فاقتسموها فصار لكلّ إنسان منها نصيب، فأخذ رجل منهم فأساً فجعل ينقر في موضعه، وقال له أصحابه: أي شيء تصنع، تريد أن تغرق وتغرقنا؟ قال: هو مكاني، فإن أخذوا على يده نجَوا ونجا، وإن تركوه (يخرقها) غرق وغرقوا». تفسير الثعلبي:٣/١٢٣؛ المعجم الأوسط للطبراني:٩/١٢٤. وفي مسند أحمد(بلفظ آخر): ٤/٢٧٤.

وجاء في مسند ابن المبارك زيادة في آخر هذا الحديث: «فخذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا». مسند ابن المبارك:٤٢.

فلسفة الرقابة العامّة

أشار القرآن الكريم إلى الرقابة العامّة تحت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سور مختلفة، ومن خلال ملاحظة وحدة الرابطة والعلاقة بين أفراد المجتمع، لا يمكن اعتبار الرقابة العامّة التي تتمّ من خلال كافّة أفراد المجتمع، ومن خلال إجراء المقرّرات، وتنفيذ القوانين وتطبيق العقوبات على المخالفين، لا يمكن اعتبارها مخالفة لقوانين وسنن الحرية والاستقلال، وذلك لأنّ الحياة الاجتماعية لا يمكن بحال من الأحوال أن تقوم من دون تلك المراقبة ومن دون تنفيذ القوانين والمقرّرات. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ كلّ فرد حينما يختار الحياة الاجتماعية لابدّ أنّه قد اختار أيضاً تلك المقررات والقوانين التي سوف تحدّ

من صلاحياته واستقلاله وحريته.
وبسبب كون الحياة الاجتماعية هي حياة المسؤوليات والتعهّدات الاجتماعية، نجد القرآن الكريم قد أولاها أهمية خاصّة، ووضع على عاتق الإنسان المسلم الكثير من المسؤوليات والتكاليف تجاه المجتمع والتي تشكّل القسم الأكبر من سنن ومقرَّرات الفقه الإسلامي، حتّى أنّها تفوق المقرّرات والقوانين والأحكام الفردية للإنسان المسلم.
وانطلاقاً من هذا الموقع للرقابة العامّة صار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة لكلّ مؤمن ومؤمنة، فهي مراقبة عامّة لكلّ ما يجري في داخل المجتمع حتّى يكونوا سدّاً في مقابل المفسدين الذين يحاولون إفساد المجتمع بممارساتهم وسلوكياتهم، قال سبحانه:(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) آل عمران:١١٠.
نعم ما وُضع على عاتق أفراد المجتمع عامّة، غير ما وُضع على عاتق الحكومة الإسلامية، فالفرد يقوم بهذه المسؤولية عَبر بيانه ولسانه وقلمه، وأمّا الحكومة فتنهض بتلك الوظيفة بما لها من القوّة والقدرة، فتجري الحدود وتحدّ من طغيان الفرد.
روى مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: سمعته يقول: وسئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب هو على الأُمّة جميعاً؟ فقال: لا، فقيل له: ولِمَ؟ قال: إنّما هو على القويّ المطاع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أيّ من أيّ، يقول من الحقّ إلى الباطل. الوسائل:٨، الباب٢ من أبواب الأمر والنهي، الحديث١.
ولأجل هذه الأهمية نرى أنّ الإمام عليّاً(عليه السلام) يصف إقامة تلك الوظيفة الخطرة بأُسلوب لا مثيل له في سائر الموارد ويقول: «وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، عِنْدَ الاْمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِلاَّ كَنَفْثَة فِي بَحْر لُجِّيّ». نهج البلاغة، قصار الحكم، برقم ٣٧٤.
وربّما يعجب بعض الناس من هذا التقييم الذي قام به الإمام(عليه السلام)ولكنّه إذا وقف على أنّ للأمر بالمعروف دوراً في إقامة سائر الفرائض لزال عجبه؛ لأنّه لولا الرقابة العامّة لتعطّل الكثير من الأحكام الشرعية على الصعيدين الفردي والاجتماعي، كما في قول الإمام الباقر(عليه السلام):«إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر». الكافي:٥/٥٦؛ الوسائل:١١، الباب١ من أبواب الأمر والنهي، الحديث ٦.
وكفى في أهمية الأمر بالمعروف قول الإمام علي (عليه السلام)حيث خطب يوماً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أمّا بعد؛ فإنّه إنّما هلك مَن كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك، وإنّهم لمّا تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقرّبا أجلاً ولن يقطعا رزقاً». الوسائل: ١ ، الباب ١ من أبواب الأمر والنهي ، الحديث ٧ .
إنّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان أمراً قبيحاً، لكنّ الأقبح منه ما إذا انقلبت الموازين الفكرية عند المجتمع فيصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً؛ وهذا ما يرويه مسعدة بن صدقة عن الإمام أبي عبدالله الصادق (عليه السلام)، قال: «قال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله ؟ فقال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟!». الوسائل: ١ ، الباب ١ من أبواب الأمر والنهي ، الحديث ١٢ .
ولعلّ هذا المقدار من دراسة هذا الموضوع يكفي لبيان ما وصّى به لقمان الحكيم ولده، وإليك دراسة بقية وصاياه.

٣.(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ).

عالَم الطبيعة عالَم مؤلّف من أسباب ومسبّبات وعلل ومعاليل، فمن طلب شيئاً من المسبَّبات فليطلبها عن طريق أسبابها، وهذا أمر واضح لا سترة عليه، غير أنّ الوصول إلى المسبّبات رهن عزم راسخ في طريق تحصيلها، فلولا العزم الراسخ لما بلغ الإنسان ما يتمنّاه، وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالصبر أي الاستقامة في طريق المطلوب، ولذلك نرى أنّه يقرن الصبر بالمرابطة التي لا تنفكّ عن بذل الجهد وتحمّل المشاقّ، قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران:٢٠٠. فجمع بين الأُمور:

١. الصبر، ٢. الإيصاء به، ٣. المرابطة، ٤. التقوى.

وما يربط الجميع هو لزوم وجود العزم الراسخ لتحصيله.

ثمّ إنّه سبحانه يعبّر عن الصبر في آية أُخرى بالاستقامة ويقول: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فصلت:٣٠..

فتحصيل ما يتمنّاه الإنسان في الحياة الدنيا رهن بذل جهود وتحمّل مشاقّ، وثبات في الشدائد والمصائب. قال أبو حيّة النميري:

إنّي رأيت وفي الأيام تجربة *** للصبر عاقبةٌ محمودة الأثر

وقَلَّ مَن جَدَّ في أمر يحاوله *** واستصحب الصبَر إلاّ فاز بالظّفرِ

كما أنّ نيل السعادة الأُخروية رهن الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، ولذلك نرى أنّ الملائكة يهنّئون المؤمنين عند دخولهم الجنة لأجل صبرهم ويقولون لهم:(سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ). الرعد: ٢٤.

وهذا هو الوحي الإلهي يصرّح بأنّ عشرين مؤمناً مدَّرعين جُنّة الصبر يغلبوا مئتين من أعداء الله ، يقول تعالى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ).(الأنفال: ٦٥.)

وقد وردت في الصبر آثار كثيرة، فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال: «الصبر ستر من الكروب، وعون على الخطوب». كنز الفوائد للكراجكي: ١ / ١٣٩ .

وقال الإمام علي (عليه السلام): «أفضل الصبر عند مُرّ الفجيعة».(غرر الحكم: الحكمة ١٩٧٥ .)

وقال (عليه السلام): «الصبر عن الشهوة عفّة، وعن الغضب نجدة، وعن المعصية ورع». غرر الحكم: الحكمة ١٩٢٧ .

وقال الإمام الحسن (عليه السلام): «جرّبْنا وجرّب المجرِّبون، فلم نرَ شيئاً أنفع وِجداناً ولا أضرّ فِقداناً من الصبر، تُداوى به الأُمور، ولا يداوى هو بغيره».. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١ / ٣١٩ .

وممّا جاء في الصبر من الشعر، قول أعشى همْدان شاعر اليمانيين بالكوفة، وفارسهم في عصره، وأحد الفقهاء القرّاء. انضمّ إلى ابن الأشعث في ثورته على الحجّاج الثقفي، ثم جيء به إلى الحجّاج أسيراً بعد فشل الثورة، فقتله صبراً سنة (٨٣ هـ). انظر: الأعلام: ٣ / ٣١٢.:

إنّ نلت لم أفرح بشيء نلتُهُ *** وإذا سُبقتُ به فلا أتلهّفُ

ومتى تُصبك من الحوادث نكبةٌ *** فاصبر، فكلّ غيابَة تتكشّفُ

وبذلك يعلم قوّة تفكير لقمان الحكيم حيث يوصي ولده برأس المكارم ومفاتيح السعادة، ويصفه وما قبله بقوله: (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) و (ذلِك) إشارة إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المصاب، ويصف الكلّ بأنّه من معزوم الأُمور، أي التي عزمها الله وأوجبها.

١٨. (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور):

لمّا أتمّ لقمان ما يرجع إلى حسن الأعمال انتقل إلى أدب المعاملة وحسن المعاشرة مع الناس، وخصّ هناك أمرين بالذكر يجمعهما النهي عن التكبّر، وعن التفاخر على الناس وتحقيرهم.

أمّا الأوّل: فأشار إليه بقوله:(وَ لاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) والتصعير عبارة عن إمالة العنق إلى جانب، أو الإعراض بالوجه عمّن يكلّمه تحقيراً للمخاطب واستعلاءً عليه، فإنّ الإقبال على المخاطب آية التكريم، والإعراض عنه بالوجه آية التحقير. كلّ ذلك نابع عن التكبّر. ولذلك لما قيل للمنافقين(تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رسولُ الله)أظهروا الكبر و:(لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ). المنافقون:٥.

وأمّا الثاني:فأشار إليه بقوله:(وَ لاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا): أي مختالاً متبختراً لأنّه مشي المتكبّرين الذين يترفّعون على الناس لأسباب واهية، ويتصوّرون أنّ الآخرين أذلاّء بين أيديهم. ونعمَ ما قيل في حكمة معاصرة: «الماكر يخدع الآخرين، والمتكبّر يخدع نفسه».(التعايش السلمي للدكتور محمود الموسوي: ٣٦ .)

ثمّ إنّه يذكر علّة النهي عن هذين النهيين ويقول:(إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور): أي لا يحب المعجَب بنفسه الفخور على غيره.

إنّ من بواعث التكبّر هو أنّ المتكبّر يجد في نفسه ذلّة وحقارة فيريد تغطيتها بالتكبّر على الناس، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الصادق(عليه السلام) في قوله: «ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلّة يجدها في نفسه». الكافي:٢/٣١٢.

وأمّا الإنسان المتّزن السالم من عقدة الحقارة فيتواضع للناس، ويكسب في ذلك محبّة في القلوب.

قال الشاعر:

تواضعْ تكن كالبدر تُبصر وجهَه *** على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالدُّخان يعلو بنفسه *** إلى صفحات الجوّ وهو وضيعُ

قال الشريف الرضي(رحمه الله) حول قوله تعالى:(وَ لاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ): وقرئ «ولا تصاعر» وهذه استعارة وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في رؤوسها حتى تقلب أعناقها، فكأنّه أمره أن لا يشمخ بأنفه ويعرض بوجهه من الكِبْر تشبيهاً بالبعير إذا أصابه ذلك الداء، ومن صفات الكبر رفع الطرف حتى كأنّه معقود بالسماء، وعلى ذلك قول كثير في صفة قوم بالكِبْر:

تراهم إذا ما جئتهم فكأنّما *** يشيمون أعلى عارض متراكبِ

أي يرفعون رؤوسهم كبراً ويطمحون بأبصارهم عجباً. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٦.

١٩. (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ):

لما أتمّ لقمان الحكيم غرضه في المقصد الثالث ـ أعني: حسن المعاشرة مع الناس ـ عطف نظره إلى تعليم الابن بأحسن الآداب، وخصّ بالذكر المشي والصوت، فمع أنّهما أمران جزئيان غنيّان عن الإيصاء ولكن نرى أنّ الحكيم اعتنى بهما، وما ذلك إلاّ لأنّهما أوّل شيء يظهر للغير من الإنسان، فأمر بالاعتدال في المشي والصوت وقال:

٤. (وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ): أي خذ جانب الاعتدال في المشي، أي امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتثبّط ولا بالسريع المفرط.

٥. (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ): أي اخفض منه ولا ترفعه عالياً، لأنّه خلاف الوقار، ويؤذي السامع. ثم علّل وجه خفض الصوت بقوله: (إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ): أي أبشعها وأقبحها (لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)، فكلّ من يسمع هذا الصوت يشمئز منه.

ثمّ إنّه كان اللازم ـ حسب الظاهر ـ أن يقول: لصوت الحمار، دون الحمير، وإنّما عدل عنه لأجل حفظ وحدة الفواصل في الوزن؛ لأنّ الفواصل في الآيات المتقدّمة هي: الأُمور، فخور.

إنّ هذا الحيوان يرفع صوته فوق الحاجة بل من دون حاجة، فإنّ كلّ حيوان قد يفهم من صوته أنّه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير، أو لغير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح، ولو قتل لا يصيح وربما يصيح بلا حاجة، وينهق بصوت أوّله شهيق وآخره

شهيق أيضاً (بخلاف سائر الحيوانات فإنّ صوتها زفير فقط).

ثمّ إنّ الأمر بغضّ الصوت ناظر إلى الحوار بين اثنين أو ثلاثة وهكذا، وأمّا إذا استدعى رفع الصوت ـ كما في الخطب والصلوات ـ فلا بأس به، ولذلك روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) الاستثناء بأن يكون داعياً أو يقرأ القرآن. مجمع البيان:٨/٩٦.

إلى هنا تمّت وصايا لقمان لابنه التي ذكرها القرآن الكريم، غير أنّ المفسّرين يذكرون له وصايا كثيرة نقتبس منها شيئاً.

وصايا أُخرى للقمان الحكيم

روى الصدوق أنّ لقمان قال لابنه: يا بنيّ إنّ الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله ، واجعل شراعها التوكّل على الله ، واجعل زادك فيها تقوى الله ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك. من لا يحضره الفقيه:٢/٢٨٢، برقم ٢٤٥٧.

وروى الطبرسي عن أبي عبد الله [الصادق] (عليه السلام) قال: في وصية لقمان لابنه: يا بنيّ سافر بسيفك وخفّك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك ومخرزك، وتزوّد معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلاّ في معصية الله عزّ وجلّ. يا بنيّ إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأُمورهم، وأكثر التبسّم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، فإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدوك على الحقّ فاشهد لهم.

واجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تثبت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد، وتنام، وتأكل، وتصلّي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإنّ من لم يمحض النصيحة من استشاره، سلبه الله رأيه، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر أو سألوك شيئاً فقل: نعم، ولا تقل: لا، فإنّ «لا» عِيٌّ ولؤمٌ، وإذا تحيّرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا.

وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم، ولا تسترشدوه، فإنّ الشخص الواحد في الفلاة مريب، لعلّه يكون عين اللصوص، أو يكون هو الشيطان الذي حيّركم، واحذروا الشخصين أيضاً، إلاّ أن تروا ما لا أرى، لأنّ العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحق منه، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

يا بنيَّ إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء، صلّها واسترح منها فإنّها دين، وصلّ في جماعة ولو على رأس زجّ، ولا تنامنَّ على دابتك فإنّ ذلك سريع في دَبْرها، وليس ذلك من فعل الحكماء، إلاّ أن تكون في محمل يمكنك التمدّد لاسترخاء المفاصل، فإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك، وابدأ بعلفها قبل نفسك فإنّها نفسك، وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لوناً، وألينها تربة، وأكثرها عشباً، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فابعد المذهب في الأرض، وإذا ارتحلت فصل ركعتين، ثم ودّع الأرض التي حللت بها، وسلّم على أهلها، فإنّ لكلّ بقعة أهلاً من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدئ فتصدّق منه فافعل، وعليك بقراءة كتاب الله مادمت راكباً، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملاً عملاً، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً، وإيّاك والسير في أوّل الليل إلى آخره، وإيّاك ورفع الصوت في مسيرك. مجمع البيان:٨/٨٣.

سورة لقمان: الآيات ٢٠ ـ ٢٦ (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ... إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

الآيات: العشرون إلى السادسة والعشرين

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْم وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَاب مُنِير * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى

عَذَابِ السَّعِيرِ * وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

المفردات

سخّر: التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهراً، فالله هو المسخر، والمنتفع هو الإنسان.

أسبغ: أي أتمّ، يقال: أسبغ الله عليه النعمة: أتمها، وأسبغ الثوب: أوسعه.

العروة: المقبض من الدّلو والكوز.

الوثقى:المعتمد عليها.

غليظ: الغلظة: ضد الرقّة، لقوله تعالى:(وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) التوبة:١٢٣..

التفسير

تقدّم في قوله سبحانه:(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) آيات التوحيد وأنّه سبحانه هو الخالق والمدبّر، فعاد البيان القرآني ـ بعد ذكر نصائح لقمان التي اشتملت على الدعوة إلى التوحيد ـ إلى بيان آيات أُخرى تدلّ على أنّه الخالق والمدبّر، فقال:

٢٠. (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ):

ذكر سبحانه في هذه الآية أمرين:

الأوّل: تسخير ما في السماوات وما في الأرض لانتفاع الإنسان.

الثاني: إتمام نعمه الظاهرة والباطنة على الإنسان.

وفي آخر الآية يشير إلى جدال الكافرين بالرغم من وجود هذه البراهين الواضحة.

أمّا الأوّل: فيقول: (أَلَمْ تَرَوْا) الرؤية إمّا بصرية بالنسبة إلى المبصرات من النّعم، أو العلمية بالنسبة إلى ما لا يرى (أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ): أي لانتفاعكم (مَا فِي السَّمَاوَاتِ) من الشمس والقمر والسحاب المطر والنجوم التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر إلى غير ذلك ممّا ينتفع به الإنسان من فوق رأسه (وَ مَا فِي الأَرْضِ)من المزارع والأشجار والمياه والبحار والسفن التي تجري فيها، والمعادن وغير ذلك ممّا ينتفع به البشر في حياته وغذائه، فهذه كلّها في خدمة الإنسان دون أن يكون له دور في إيجادها.

وأمّا الثاني: أي إتمام نعمه فقد أشار إليه بقوله:(وَ أَسْبَغَ): أي أتمّ (عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً) ما يرى بالأبصار (وَ بَاطِنَةً) ما يدرك بالعقل، فإنّ النعم التي أسبغها الله على الإنسان على قسمين:

قسم يدركه الإنسان بالحواسّ الخمس، وقسم لا يدرك إلاّ بالحواسّ الباطنية، وعلى هذا فالشعور والإرادة والعقل حتى الجوانح الباطنية من القلب والكبد وغيرهما من النّعم الباطنة. ولو أنصف الإنسان لوجد أنّ الدين الذي به تنتظم الحياة في الدنيا والآخرة هو أيضاً من النعم، وعلى هذا فالأنبياء والأولياء الذين صرفوا أعمارهم من أجل هداية الإنسان هم من النّعم أيضاً . روي عن ابن عباس قال: سألت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)عن قوله: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) قال: «أمّا الظاهرة فالإسلام وما سوّى من خلقك، وما أسبغ عليك من رزقه، وأمّا الباطنة فما ستر من مساوئ عملك، يا ابن عباس إنّ الله تعالى يقول: ثلاث جعلتهنّ للمؤمن: صلاة المؤمنين عليه من بعد، وجعلت له ثلث ماله كفّر عنه من خطاياه، وسترت عليه من مساوئ

عمله، فلم أفضحه بشيء منها، ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم».

وعنه أيضاً في قوله: (وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَباطِنَةً) قال: «النعمة الظاهرة: الإسلام، والنعمة الباطنة: كلّ ما ستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود». تفسير الدر المنثور:٦/٥٢٥ـ٥٢٦.

وروى علي بن إبراهيم عن جابر الجعفيّ قال: قال رجل عند أبي جعفر] الباقر [(عليه السلام): (وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَباطِنَةً) قال: «أمّا النعمة الظاهرة فهو النبي وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده، وأمّا النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت، وعقد مودتنا...». تفسير القميّ: ٢ / ١٤٢ ؛ نور الثقلين:٤/٢١٢ـ٢١٣.ولا منافاة بين هذه التفاسير لأنّ الجميع بصدد بيان المصاديق.

لكنّ الإنسان الجاهل بدل أن يعرف النعم وخالقها ومُنْزلها فيعبده، يتّخذ في مقابلها موقف الرفض والعناد كما يقول: (وَ مِنَ النَّاسِ): أي بعض الناس (مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ): أي في وحدانيّته ومدبِّريته (بِغَيْرِ عِلْم): أي بلا دلالة العقل (وَ لاَ هُدًى) ولا بدلالة الأنبياء(وَ لاَ كِتَاب) سماويّ (مُنِير). تُكشف به ظلمات الجهل والضلالة.

فهذا الإنسان المشرك لا يمتلك أي دليل عقليّ أو سمعيّ.

والشاهد على أنّه لا يستند في عقيدته إلى دليل راسخ، هو الآية التالية:

٢١. (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ):

قوله:(وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ): أي الهداية الإلهية السماوية التي أُشير إليها في الآية السابقة بقوله: (وَلاَ هُدًى) ويحتمل أن يراد من الموصول الكتاب السماوي، أي القرآن المجيد (قَالُوا): أي مكان أن يخضعوا للدعوة الإلهية أجابوا بقولهم: (بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)، وهذا دليل على عنادهم وتعصّبهم وانغلاق تفكيرهم، فإنّ اتّباع الآباء إنّما يحسن إذا كان مقروناً بالدليل لا مفصولاً عنه، لذلك يقول: (أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) ونظير الآية قوله تعالى: (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) البقرة:١٧٠..

ثمّ إنّ الشيطان إنّما يدعوهم إلى سلوك طريقة الآباء، ولكنّه لمّا كان سبباً للعذاب أسند المسبّب إلى الشيطان وقال: (أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ): أي إلى النار الملتهبة.

قال محمد عزّة دروزة وهو يعلّق على الحملة القرآنية على التمسّك بتقاليد الآباء:

ومن المرجّح أنّ الموقف الشديد الّذي وقفوه من الدعوة النبوية الّتي فيها تهديم لكثير من تلك التقاليد متأت من ذلك، أو أنّ ذلك من أهمّ أسبابه. ومن تحصيل الحاصل أن يقال إنّ هذا ليس خاصاً بالعرب، وإنّما هو قدر مشترك بين الناس جميعاً حيث لا يستسيغ التساهل في التقاليد الموروثة أو تركها إلاّ الفئة النيّرة الفتيّة الّتي تفتّحت أذهانها، ولم تكن تلك التقاليد راسخة فيها.

ثم قال: ولعلّ هذا يفسّر لنا حكمة الله عزّ وجلّ في اختصاص النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)بالرسالة ولمّا يتجاوز سنّ الشباب، ويفسّر لنا كون معظم أفراد الرعيل الأوّل من السابقين إلى الإسلام هم من زمرة الشباب وغير المتقدّمين في السنّ... فكثير من أفراد هذا الرعيل من قريش شبّاناً وفتيات آمنوا رغم آبائهم، بل ومنهم من كان آباؤهم يقودون حملة المعارضة الشديدة ضدّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)ودعوته.

وأضاف: ولقد بقي معظم شيوخ بني هاشم عشيرة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)الأقربين على الشرك تمسّكاً بتقاليد الآباء، وفي مقدّمتهم أبو طالب عمّه وحاميه، وأبو جعفر وعلي اللّذين اتّبعا دين ابن عمّهم وأسلما في أوّل الدعوة، مع أنّهم كانوا يعلنون حمايتهم له بدوافع العصبية . التفسير الحديث: ٤ / ٢٥٥

أقول: لنا على هذا التعليق ملاحظات، نقتصر منها على اثنتين:

الأُولى: إنّ قوله: (ولعلّ هذا يفسّر لنا حكمة الله عزّ وجلّ في اختصاص النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بالرسالة ولمّا يتجاوز سنّ الشباب) ينطوي على إساءة للنبيّ، الّذي لم تدنّسه الجاهلية بأدناسها ولم تلبسه المدلهمّات من ثيابها، ولم يتأثر بتقاليدها، بل ترفّع عنها وتحلّى بكلّ خلُق كريم، وتنزّه عن كلّ عيب وشين، حتّى وصفه قومه بالصادق الأمين، وكيف لا يكون كذلك، وقد حظي برعاية مَلك كريم يرشده إلى معالم الهداية ومدارج الكمال، أو كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ (وتسمّى القاصعة).)

الثانية: إنّ وصف أبي طالب بأنّه كان في مقدّمة شيوخ بني هاشم الّذين بقوا على الشرك، ينطوي على تنكّر للحقيقة الواضحة، وعلى ظلم للحقّ الصراح، ولو أنّ الأُستاذ دروزة تعامل مع هذا الموضوع بذهن مفتوح وقلب مفتوح، بعيداً عن التمسّك بالدعايات الموروثة عن الأمويّين لما فاه بهذا الكلام، ولكن ما الحيلة والرجل لم يسعفه حظّه حتّى يكون من الفئة النيّرة الفتيّة الّتي لم يرسخ فيها أثر تلك الدعايات المغرضة، خاصّة إذا عرفنا أنّه ألّف كتابه في التفسير هذا بعد أن جاوز السبعين. كان مولده في سنة (١٣٠٥ هـ)، وحرّر مقدمة تفسيره في سنة (١٣٨٠ هـ) .

ومن العجيب أن تُفسَّر كلّ مواقف الحماية والدفاع والإيثار، الّتي وقفها أبو طالب من أجل النبيّ، وكلّ المواقف والكلمات والأشعار الّتي تجلّى فيها إيمانه بالنبيّ وعطفه وتحنّنه عليه.. أن تُفسَّر كلّها (بدوافع العصبية) حسب تعبير دروزة.

وهنا نتساءل: لِمَ لم تحمل تلك الدوافع أبا لهب على حماية ابن أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟! بل لِمَ لم تحمله على أن يقف على التلّ، ويترك ابن أخيه والقوم، ولم يتّخذ موقف العداء الشديد منه (صلى الله عليه وآله وسلم)ومن أنصاره؟!

ومثل ذلك يقال في غيره كأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عمّ رسول الله ، وأخيه من الرضاع، حيث مكث عشرين سنة عدوّاً لرسول الله ، شديداً على مَن آمن به، وكان يهجو النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)ويهجو أصحابه، ولم يُسلم إلاّ بعد أن تحرّك (صلى الله عليه وآله وسلم)لفتح مكة!! انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤ / ٤٩ .

ونتساءل أيضاً: إذا كانت دوافع العصبية هي السبب في حماية أبي طالب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما يُزعم، وصدّقنا أن أقواله فيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، مثل قوله:

كذبتم وبيتِ الله نُخلي محمداً *** ولمّا نُطاعِن دونه ونناضلِ
ونُنصره حتّى نُصرَّعَ حوله *** ونَذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ[1]

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣ / ٢٥٨ .

كانت انطلاقاً من تلك الدوافع، فبماذا نفسّر ذلك الحرص على حياة المهاجرين إلى الحبشة وعلى مصيرهم، والّذي تكشف عنه أبياته التالية الّتي خاطب بها ملك الحبشة:

ألا ليت شعري كيف في النَّأْي جعفرٌ *** وعمرو وأعداء العدوّ الأقاربُ
فهل نال أفعال النجاشيّ جعفراً *** وأصحابه، أو عاق ذلك شاغبُ
تعلَّمْ، أبَيتَ اللّعْن، أنّك ماجدٌ *** كريم، فلا يشقى لديك المجانبُ
تعلَّمْ، بأنّ الله زادك بسطةً *** وأسبابَ خير كلّها بك لازبُ
وأنّك فيض ذو سجال غزيرة *** ينال الأعادي نفعَها والأقارب[2]

[2] . انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٣٥٧، ط . دار إحياء التراث العربي.

وهل هذا القلق الّذي تمور به هذه الأبيات على ابنه جعفر وأصحابه، وهذا الأُسلوب في استثارة نوازع الخير لدى النجاشي، إلاّ تعبيراً عن حقيقة الهمّ الرسالي الّذي كان يحمله سيّد البطحاء، وعن المنطلقات الإيمانية الّتي تدفعه إلى مناصرة المهاجرين في أشدّ الظروف قساوة عليه وعلى المؤمنين؟!

٢٢. (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ):

الآية تقارن بين صنفين:

صنف يتّبع سبيل الآباء ويتمسّك بتقاليدهم الموروثة الّتي لا تستند إلى دليل، لا من العقل ولا من النقل، وهناك صنف يتمسّك بدين الله كما يقول: (وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ): أي انقاد بكلّ وجوده إلى الله سبحانه، فإنّ توجّه الوجه إلى الله كناية عن توجّه كلّ الإنسان.

ويمكن أن يراد من الوجه هو الذات، أي يسلم بكلّ وجوده خالصاً لله، وربما يطلق الوجه ويراد به الذات، كما في قوله سبحانه:(وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) الرحمن:٢٧، والشاهد على أنّ المراد من الوجه هو الذات مجيء الوصف مرفوعاً حيث قال: (ذُو الْجَلاَلِ) فهو وصف للوجه لا للربّ وإلاّ لكان اللازم أن يقال: ذي الجلال، ومن المعلوم أنّ صاحب هذا الوصف هو ذاته سبحانه.

ولابدّ أن يكون التسليم بكلّ الوجود إلى الله بعمل صالح كما يقول:(وَ هُوَ مُحْسِنٌ) في عمله وسلوكه الّذي يتجلّى في الإخلاص في العبادة وممارسة الأعمال الصالحة، فمن انقاد لله سبحانه وبادر إلى الإحسان في أعماله فهو على نقيض من انتظم في الصنف السابق (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى): أي بأوثق العُرى وأمتنها، وهو مثَل، وأصله أنّ مَن يرقى في جبل شاهق أو يتدلّى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع.

قال الإمام علي (عليه السلام): «فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلاَمِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ». نهج البلاغة: الخطبة ١٦١ .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ مرجع كلا الطائفتين إلى الله، كما يقول: (وَ إِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) فيجازي كلاًّ بما يستحق .

٢٣. (وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ):

لمّا تقدّم وصف موقف المجادلين العنيد من الدعوة إلى الهداية، انطلاقاً من حرصهم على التقليد الأعمى لِما وجدوا عليه آباءهم، جاء البيان القرآني لتسلية النبي وأنّه لا يحزنه كفر هؤلاء، كما يقول:(وَ مَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ): أي لا يغمّك (كُفْرُهُ)وذلك لأنّه (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا): أي نخبرهم بأعمالهم ونجازيهم بحسبها (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ): أي بما في الصدور من العداء.

فالله سبحانه يدفع كيدهم في نحورهم وينتقم منهم ويعاقبهم على أعمالهم، فلا موجب للحزن في استمرار كفرهم.

٢٤. (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَاب غَلِيظ):

الآية بصدد تفسير قوله: (فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) فبيّن أنّ إنباءهم بأعمالهم مقدّمة لجزائهم كما يقول:(نُمَتِّعُهُمْ) زماناً(قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَاب غَلِيظ).

شبّه إلزامهم التعذيب باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك عنه، فصار تعذيبهم كارتعاش المرتعش الذي لا ينفكّ عنه سواء أراد أم لم يُرد. وغلظ العذاب شدّته.

٢٥. (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

هذه الآية بصدد التنديد بالمشركين وتسفيه عقولهم حيث إنّهم يُقرّون بأنّ الله خالق السماوات والأرض، فإذا كان هو الخالق

للسماوات والأرض، والخلق لا ينفكّ عن التدبير، فالله هو الخالق والمدبّر، وعندئذ كيف يعبدون غيره؟! وهذا يدلّ على نقصان عقولهم أو قلّة تدبّرهم.

فالاعتراف بأنّ الله هو الخالق لكلّ شيء يلازم الاعتراف بأنّه المدبّر وهو يلازم كونه المعبود لا غيره.

ولقد جاء اعترافهم بأنّ الله هو الخالق في غير هذه الآية أيضاً، قال تعالى: (وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ). الزخرف:٩.

ولمّا اعترف الخصم عند النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه الخالق الّذي يلازمه كونه ربّاً، أمر الله النبي بالحمد، لأجل أنّهم اعترفوا على خلاف ما يدّعون. فقال: (قُلِ الْحَمْدُ للهِ)ثمّ وصف أكثرهم بقوله:(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ): أي جاهلون بربوبيّته تعالى. نعم قليل منهم يعلمون الحقّ ولكنّهم يعاندونه، استجابة للهوى، وإيثاراً لزينة الحياة الدنيا.

٢٦. (للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ):

الآية تشتمل على نتيجة مترتّبة على ما ورد في الآية السابقة، وهي أنّه إذا كان هو الخالق للسماوات والأرض وهو المدبّر دون غيره، فيكون الكون ملكاً له دون غيره، ولذلك يقول:(للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)وبذلك ثبت أنّ لله سبحانه الصفات الثلاث التالية: خالقاً للكون، مدبّراً، مالكاً له. ثم رتّب سبحانه عليه قوله: (إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)، أمّا كونه غنيّاً فلأنّه خالق الكون ومدبّره ومالكه، فمن كان كذلك يكون غنيّاً بالذات وأمّا كونه حميداً فلأنّ الحمد والثناء في مقابل الثناء على الجميل، وكلّ جمال في الكون فمنه سبحانه، فيكون الحمد مختصّاً به.

سورة لقمان: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨ (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَة أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ ... إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ):

الآيتان: السابعة والعشرون والثامنة والعشرون

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَة أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْس وَاحِدَة إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ):

المفردات

أقلام:جمع قلم، وأصله المقصوص من الشيء الصلب كالظفر، وخُصّ ذلك بما يُكتب به.

يَمُدّه: أي يزيده مِداداً، والمداد هو الحبر الذي يكتب به، ولا يصحّ تفسيره بالإمداد، للفرق الواضح بين قوله: «يَمدّه» بفتح الياء، وقوله: «يُمدّه» بضم الياء، فالأوّل ثلاثي مجرّد، والثاني مزيد فيه، وكلّ ما أُريد به الإعانة والإمداد يستعمل على الوجه الثاني كما في قوله تعالى:(وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ). نوح:١٢.

نَفِدت: النَّفاد: الفناء، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَاد).(ص:٥٤.)

كلمات: جمع كلمة، وتطلق على اللفظ المعبّر عمّا يقوم في الذهن من معنى، وأُريد في الآية كلّ وجود مُفاض من الله سبحانه، وقد أُطلقت الكلمة على المسيح قال تعالى: (وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) النساء:١٧١، ويحتمل أن يراد كلمات علمه وحكمته.

التفسير

٢٧. (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَة أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ):

تقدّم منّا أنّ السورة مكيّة بشهادة مضامينها ولكن مقتضى سبب النزول الذي يرويه المفسّرون أنّ هذه الآية مدنية، فقد أخرج ابن جرير عن عكرمة: سأل أهل الكتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الروح، فأنزل الله : (وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) الإسراء:٨٥.. فقالوا: تزعم أنّا لم نؤتَ من العلم إلاّ قليلاً، وقد أوتينا التوراة

وهي الحكمة، ومَن أُوتي الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً، فنزلت: (وَ لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...). تفسير الدر المنثور:٦/٥٢٨.

ومهما يكن، فقد نزلت آية أُخرى بهذا المضمون، كقوله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا). الكهف:١٠٩.

والغرض من الآية بيان سعة علمه وأنّه غير متناه، وهذا يمكن بيانه بوجهين:

الأوّل: ما جاء في هذا الآية وحاصلها: لو فُرض أنّ البحر مِداد، والأشجار أقلام لكتابة كلماته، لنفد البحر، ولو فرضنا ضمّ سبعة أبحر إليه، لانتهت البحار وبقيت كلمات الله إلى ما لا نهاية له.

وبعبارة أُخرى: لو جعل جميع أشجار الأرض أقلاماً والبحر مداداً وأضيف إليه سبعة أبحر من مثله وجعل المجموع حِبراً مداداً للكتابة فكتبت كلمات الله بتبديلها إلى الألفاظ الدالّة عليها بتلك الأقلام من ذلك المداد الهائل لنفدتْ البحار وفنيتْ قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية.

وأمّا صلة الآية بما قبلها فواضحة، حيث إنّ الآية السابقة دلّت على أنّ الكون (أي كلّ شيء موجود من أصغر الذرّات إلى أكثر الأجرام الفلكية بُعداً) له، وهو كلماته التكوينية، فناسب أن توصف تلك الكلمات بشيء يدلّ على عدم انتهائها.

الثاني: أن نمثّل سعة علمه بالرقم الرياضي ونقول: إنّ علمه سبحانه على حدّ عدد صحيح أمامه أصفار كثيرة إلى ألف أو أكثر، لكن هذا التقرير لا يجسّد سعة علمه بصورة غير متناهية بل يتناهى في حد العدد المكتوب، ولهذا يقول:(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ) بيان للموصول وأُريد الاستغراق أي كلّ شجرة في الأرض (أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)السبعة كناية عن التكثير (مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ)لعدم كونها متناهية (إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ): أي غالب لا يقهره شيء، فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده، (حَكِيمٌ)لا يفوّض التدبير إلى غيره.

ثمّ إنّه سبحانه قال:(مِنْ شَجَرَةٍ) ولم يقل «أشجار» لأنّه في معنى التمييز لِما قلنا أنّه لبيان الموصول ويشترط فيه الإفراد، وفي الوقت نفسه عبّر عن القلم بالجمع وقال: (مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ) وذلك لأنّ الشجرة الواحدة تصلح لأن تصنع منها أقلام عديدة من سيقانها وأغصانها، وتحدّث عن مدّ المداد دون القلم، لأنّ المداد ينفد شيئاً فشيئاً، بخلاف القلم.

٢٨. (مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ):

ذكر الطبرسي عن مقاتل أنّ كفّار قريش قالوا: إنّ الله خلقنا أطواراً نطفة، علقة، مضغة، لحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة، فنزلت الآية. مجمع البيان:٨/١٠١.

ولعل نظرهم في الإشكال أوسع ممّا ذكر، وهو أنّه سبحانه خلق الخلائق من بدء الخلقة إلى يومنا هذا عبر قرون كثيرة، فكيف يمكن أن يعيد الجميع في يوم واحد وساعة واحدة، فوافاهم الجواب بقوله: (مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)، فإعادة جميع الخلائق في يوم واحد كخلق وبعث نفس واحدة، فإنّ تعلّق قدرته بمقدور واحد كتعلّقها بمقدورات غير محصورة، لأنّ اقتداره لا يتوقّف على آلة وعُدّة، وإنّما ذلك له ذاتيّ يكفي فيه الإرادة. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٩ / ١٤٥ .

ثمّ إنّه سبحانه أشار إلى أنّه يسمع ما يقول هؤلاء ويبصر ما يعملونه، كما قال:(إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

وأساس الإشكال أنّهم أخذوا بالقياس وقاسوا قدرة الباري التي لا تنفد كلماته، بقدرة الإنسان المحدودة، قال سبحانه في آية أُخرى:(وَ مَا قَدَرُوا اللهِ حَقَّ قَدْرِهِ) الأنعام:٩١.. ثمّ إنّ صلة الآية بما قبلها واضحة، فإنّ من لا تنفد كلماته، قادر على أن يعيد جميع الخلائق الذين هم بعض كلماته في يوم واحد.

سورة لقمان: الآيات ٢٩ ـ ٣٢ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ... إِلاَّ كُلُّ خَتَّار كَفُور):

الآيات: التاسعة والعشرون إلى الثانية والثلاثين

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَل مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِكُلِّ صَبَّار شَكُور * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّار كَفُور):

المفردات

يولج: الولوج: الدخول في مضيق، قال تعالى: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) الأعراف:٤٠.والمراد هنا التنقيص من أحدهما (النهار والليل) بإدخال الآخر عليه.

الظُّلل: جمع ظُلّة وهو ما أظلّك وعلاك من كلّ شيء.

مقتصد: سالك للقصد والطريق المستقيم، وهو طريق التوحيد.

ختّار: من الختر وهو أقبح الغدر، يقول عمرو بن معدي كرب:

فإنّك لو رأيت أبا عُمير *** ملأتَ يديك من غَدر وخَترِ

التفسير

٢٩.(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَل مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ):

لمّا تقدّمت في الآية السابقة الإشارة إلى سعة قدرته وأنّ خلق الجميع وبعثهم كخلق وبعث نفس واحدة، أشار هنا إلى بعض المظاهر الدالّة على قدرته سبحانه، تارة بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)وأخرى بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ).

ففي الأوّل يخبر عن عظمة قدرته بأنّه هو الذي يدخل الليل في النهار فينقص من ساعات النهار، وأُخرى على العكس يدخل النهار في الليل فينقص من ساعات الليل، فالله سبحانه خلق الأرض على نحو تتغير أوقات الليل والنهار نقصاناً وزيادة في عامّة نقاطها إلاّ نقطتان:

أحدهما: الأرض الواقعة تحت خط الاستواء الدقيق حيث يتساوى فيها الليل والنهار طول السنة.

ثانيهما: النقطة الحقيقية للقطبين الشمالي والجنوبي حيث إنّ الليل والنهار هناك ستة أشهر، وأمّا سائر النقاط فالليل والنهار يختلفان، فالله سبحانه خلق الكون على وجه يكون الليل والنهار مختلفين حسب اختلاف الشهور، وبذلك يتّضح معنى قوله: (أَلَمْ تَرَ) والخطاب بظاهره للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ولكن أُريد به عامّة الناس أو المشركون، (أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) وهذا إن يكشف عن شيء فإنّما يكشف عن عجيب قدرته، وعظيم أفضاله.

ثمّ إنّ إيلاج الليل في النهار وبالعكس ربّما يشير إلى أنّ مواجهة الإنسان بضوء النهار أو بظلمة الليل ليس أمراً دفعياً وإنّما يتدرجان شيئاً فشيئاً، فبإيلاج الليل في النهار تتدرّج الظلمة في الأُفق شيئاً فشيئاً، كما يتدرّج الضوء كذلك على العكس.

وأشار سبحانه أيضاً إلى مظهر آخر من مظاهر قدرته وهو تذليل الشمس والقمر لمصلحة الإنسان فقال:(وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) فكلّ يجري في مسيره دون أن يتخلّف واحد منهما عن المسير الّذي عيّن له، فالله هو المسخِّر، والنيّران هما المسخَّران،

والمنتفع هو الإنسان، لكن جريانهما وسيرهما ليس أمراً أبدياً بل له أمد معلوم كما يقول:(كُلٌّ): أي من الشمس والقمر (يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فالنظام الشمسي كسائر المنظومات نظام محدّد، يتبدّد عند بلوغه أجله.

ثم قال تعالى: (وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) والفقرة معطوفة على قوله: (أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)فيصدّر بقوله: (أَلَمْ تَرَ) فيكون التقدير: ألم تر أنّ الله بما تعملون خبير، فهم يعملون على خلاف علمهم، فإنّ هذا النظام البديع المحيّر للعقول ليس إلاّ من صنع الله سبحانه، فمن شاهد هذا النظام ينتقل ذهنه إلى ذلك، وهم أيضاً يعلمون ذلك لكنّهم لا يجرون على وفق علمهم، بشهادة أنّهم يتركون عبادة الله ويلجأون إلى عبادة الأوثان.

٣٠. (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ):

قوله: ذا في (ذلِكَ)إشارة إلى ما تقدّم من إيلاج الليل في النهار وعكسه، وتسخير الشمس والقمر، والباء في قوله: (بِأَنَّ اللهَ) للسببية، كما أنّ المراد من الحقّ هو الثابت على الإطلاق لا يحوم حوله البطلان، كما أنّ المراد من الباطل ما يقابل الحقّ أي ما لا ثبات له، فيكون معنى الآية: «ذا» أي ما سبق من الآيات أيّها المخاطب بسبب (بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ)الذي خلق هذا النظام على النحو الذي يشاهد، لا غيره من الأصنام والأوثان (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ): أي الجامع لصفات الكمال المنزّه عن كلّ نقص (الْكَبِيرُ): أي العظيم في وجوده وقدرته.

وقد اجتمعت في هذه الآية الأوصاف الثلاثة للباري تعالى وهي: الحق، والعليّ، والكبير، ولعلّ الأوّل إشارة إلى وجوب وجوده لأنّ الثابت المطلق هو ما وجب وجوده، والوصف الثاني ـ أعني: العليّ ـ إشارة إلى تنزّهه عن الصفات السلبية، والوصف الثالث إشارة إلى صفاته الثبوتية.

والآية من أغزر الآيات مفاداً، وقد تكرّرت هاتان الآيتان في غير هذه السورة بتفاوت يسير، قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). الحج:٦١ و ٦٢.

إنّ الله سبحانه وصف نفسه في هذه الآية بالحقّ، بل حصر الحقّ فيه بشهادة توسّط ضمير الفصل وقال:(بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ) ويكون من قبيل قصر الوصف على الموصوف، ووجه ذلك واضح لأنّ الحقّ بمعنى الوجود الثابت الذي لا يتسرّب إليه البطلان، فالله سبحانه بما أنّه واجب الوجود لا يتطرّق إليه العدم، وإلاّ خرج عن كونه واجب الوجود، فهو حقّ على الإطلاق، وأمّا غيره فبما أنّه ممكن الوجود فهو في حدّ ذاته غير واجد للوجود وإنّما يكتسب وجوده من جانب الله سبحانه، فيكون في حدّ الذات باطلاً غير ثابت، ويتجلّى ذلك المعنى إذا علمنا أنّ الممكن يكتسب فيض وجوده آناً بعد آن، فلو انقطعت صلته بالله سبحانه آناً ما، يسود العدم على ما سوى الله ، فلذلك يصحّ أن يقال:إنّ الله هو الحقّ وأنّ ما سواه باطل بهذا المعنى، ولنعمَ ما قال لبيد:

ألا كلّ شيء ما سوى الله باطلُ *** وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

وربّما يقال إنّ عثمان بن مظعون اعترض على الشاعر وقال: إلاّ نعيم الجنّة. البداية والنهاية:٢٤٨/٧؛ السيرة النبوية لابن إسحاق:١٥٩/٢.

والاعتراض صحيح من جانب وغير صحيح من جانب آخر، فهو صحيح من جانب أنّ الله سبحانه لم يكتب على الجنة وما فيها الفناء، ومن جانب آخر فهو اعتراض غير صحيح لأنّ الجنة وما فيها من النّعم، من الممكنات، والممكن يفقد وجوده في حدّ ذاته، فلولا إفاضة الفيض في كلّ آن حق على الجنة ونعيمها لساد عليها العدم.

٣١. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ):

جاءت الآية على غرار الآيتين المتقدّمتين أعني:

١. (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ). لقمان:٢٠.
٢. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ). لقمان:٢٩.
والهدف من الجميع بيان قدرته سبحانه أوّلاً، وتبيين النّعم التي أنعم الله بها على الإنسان ثانياً، غير أنّ الآيتين السابقتين تستهدفان بيان مظاهر قدرته في السماء، ولكن هذه الآية تركّز على تبيين نعمه سبحانه في الأرض، وخاصّة في البحر، وتقول: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ)فالباء في قوله: (بِنِعْمَةِ) للسببية، وأمّا ما هو المراد من نعمة الله فهذا هو الذي تفسّره الآيتان التاليتان، أعني: قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) الحج:٦٥، وقوله: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ). يونس:٢٢.
والظاهر أنّ المراد من النعمة والأمر هو سنن الله تعالى في المياه والفُلك ثم الريح الطيّبة، وكلّها من نعم الله سبحانه، إذ لطبيعة الماء وخواصه غير العادية دور في حمل الفلك على سطحه دون أن ترسب فيه، وتستقرّ في قعر البحار.
كما أنّ للمواد التي تصنع منها السفن دوراً خاصّاً في بقائها عائمة على سطح الماء.
فإذا تمّ هذان الأمران يأتي دور الريح التي تحرّك السفن من مكان إلى آخر، فلولا هذه السنن لوقفت السفن فوق الماء دون أن تتحرّك أو أنّها ترسب في الماء، ولك أن تضيف هنا نعمة رابعة وهي أنّ الله سبحانه أعطى للإنسان عقلاً خلاّقاً حيث يقوم بصنع الفلك أوّلاً وجعله فوق الماء ثانياً، كلّ ذلك من نعم الله سبحانه التي صارت سبباً لجريان الفلك.
ثمّ إنّه سبحانه يعلّل كلّ ذلك بقوله: (لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ): أي بعض آياته الدالّة على وحدانيته، أمّا وجه الإراءة فإنّ من تأمّل في حركة السفن وجريها في البحر يقف على أنّها رهن أنظمة وقوانين تحكم المياه والفلك والإنسان على نحو لولاها لما استطاع الإنسان أن ينتقل من نقطة إلى نقطة بعيدة عن طريق السفن، وينقل الأمتعة الثقيلة من بلد إلى آخر، ولكن لا يدرك تلك الآيات إلاّ من اجتمع فيه وصفان كما قال:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)، فالصبّار صيغة مبالغة أي كثير الصبر في الضرّاء، والشكور للمبالغة أيضاً أي كثير الشكر لنعمه سبحانه، وبما أنّهما من سمات المؤمن، فكأنّه سبحانه يقول: إنّ في ذلك لآيات للمؤمنين.
ثمّ إنّ قوله:(صَبَّارٍ شَكُورٍ) هو في مقابل ما يأتي في الآية التالية أعني قوله تعالى: (كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ).
٣٢. (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ):
إنّ المؤمنين والكافرين إذا ركبوا في السفينة وفوجئوا بأمواج يركب بعضها بعضاً كالسحاب، التجأوا إلى الله سبحانه كما يقول:(وَإِذَا غَشِيَهُمْ): أي ركّاب السفن (مَوْجٌ) هائل وأصبح (كَالظُّلَلِ) من فوقهم (أي كأنّه يظلّلهم) وفوجئوا بهذا البلاء ارتفع الغطاء عن وجه الفطرة التي خلقوا عليها وعلموا أنّه لا مناص منه ولا خلاص إلاّ بالالتجاء إلى الله سبحانه لأنّه القادر على أن ينجي السفينة ومن عليها دون الأصنام والأوثان وسائر المعبودات، ولذلك تراهم يتوجّهون إلى الله بالدعاء كما يقول: (دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)ولكن (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ)صاروا فرقتين فالمؤمن يبقى على حكم الفطرة بعد نزوله البرّ، ولذلك يقول: (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ): أي سالك القصد والطريق المستقيم، والتعبير بقوله: (فَمِنْهُمْ)فيه دلالة على قلّتهم، وأمّا الكافر فينقلب على عقبيه، وينكر آيات الله كما يقول: (وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) الباء في قوله: (بِآيَاتِنا) للتأكيد لأنّ «جَحَد» متعدٍّ بنفسه، فنسوا ما رأوه بأُمّ أعينهم من آيات الله فعادوا يجحدونها. ثم إنّه سبحانه يصف هؤلاء بقوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ)أي غادر ناقض للعهد (كَفُورٍ)لنعم الله سبحانه، وقد مرّ تقابل هذين الوصفين مع الوصفين السابقين أعني:(صَبَّارٍ شَكُورٍ).

وقد ورد مضمون الآية في غير واحدة من السور. لاحظ: العنكبوت:٦٥، يونس:٢٢.

ويذكر المفسّرون هنا قصة إسلام عكرمة بن أبي جهل وهو من الذين أحلّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)إراقة دمائهم، روى السدّي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لمّا كان يوم فتح مكّة أمّن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس إلاّ أربعة نفر، قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة، وهم:

عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خَطَل، وقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأمّا عكرمة فركب البحر، فأصابتهم ريح عاصفة، فقال أهل السفينة: أخلصوا فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلاّ الإخلاص ما ينجني في البرّ غيره، اللّهُمَّ إنّ لك عليّ عهداً، إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه، أن آتي محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أضع يدي في يده، فلأجدنّه عفوّاً كريماً، فجاء فأسلم. مجمع البيان:٨/١٠٤.

نعم كون الرجل مقتصداً في أوّل إسلامه لا يكون دليلاً على كونه كذلك إلى آخر عمره، فإنّ القضاء بذلك عندئذ رهن قيام دليل على كون الرجل بقي على مسلكه السابق.

سورة لقمان: الآيتان ٣٣ ـ ٣٤ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا ... إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

الآيتان: الثالثة والثلاثون والرابعة والثلاثون

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ * إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

المفردات

اتّقوا: التقوى حالة في النفس تصير حائلة بين الإنسان والمعصية.

لا يجزي: لا يُغني.

الغَرور: ما غرَ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان.

الساعة: قطعة من الزمان، وأُريد بها هنا القيامة.

ما في الأرحام: أي ما في أرحام النساء من الأولاد.

التفسير

٣٣.(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ):

إنّ هذه الآية كالنتيجة الكاملة لما مرّ من الآيات التي دلّت على قدرته سبحانه في عالم الكون وتضمّنت التنديد بالمشركين حيث تخيّلوا عجزه سبحانه عن إعادة الإنسان، إلى غير ذلك من الأُمور التي تكون تذكاراً للمؤمن وتخويفاً للكافر، فأخذ يخاطب الجميع من باب النُصح ويقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)أي حصّلوا جُنّة الوقاية من عذاب الله ونكايته، وتعليق الحكم بالربّ يدلّ على العلّيّة، فإنّه سبحانه ربّكم وربّ العالمين، وهو مالك وأنتم مملوكون، والمملوك يجب أن يكون على حذر من مخالفة المالك، ولذلك يقول:(وَ اخْشَوْا يَوْمًا): أي يوم القيامة ووصفه بأنّه (لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ) خصّ الوالد بالذكر؛ لأنّه أعطف على ولده، فربّما كان بين الأُسر القرشية ولد كافر أسلم أبوه وربّما كان العكس، فالكافر والداً كان أو ولداً قد يتصوّر بأنّه لو كان دين محمّد حقّاً لانتفع بإسلام مَن يمتّ إليه بصلة، فجاء الوحي الإلهي لإبطال هذا الوهم وأنّ الوالد لا يغني عن ولده (وَ لاَ مَوْلُودٌ

هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)، فكلّ امرئ مشغول بنفسه عن غيره.

قوله:(إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ): أي مجيء يوم القيامة حقّ لأنّ الله قد وعد به ولا يخلف وعده، فإذا كان كذلك فالله سبحانه حذّر جميع الناس من أمرين كلاهما من أسباب تغرير الإنسان وتسهيل المعاصي:

الأوّل: (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) فإنّ الدنيا وزخارفها ربّما تغرّ الإنسان فيتصوّر أنّه خالد فيها.

الثاني:(وَ لاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) وهو كلّ ما غرّ الإنسان من الماديّات والشهوات والشياطين.

قال الإمام علي(عليه السلام):«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ: لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سَمُّهَا؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا؛ وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا». نهج البلاغة: قسم الرسائل برقم ٦٨.

وقال (عليه السلام):«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُواللُّبِّ الْعَاقِلُ!». نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم١١٩.

وقال(عليه السلام):«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاع، وَإِنَّ الاْخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاَع. أَلاَ وَ إِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ». نهج البلاغة: الخطبة ٢٨.

٣٤. (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ):

اشتهر على الألسن أنّه سبحانه استأثر بعلم خمسة أُمور، وهي:

١. العلم بوقت قيام القيامة، كما يقول:(عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ).

٢. العلم بوقت نزول الغيث، كما يقول:(وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ).

٣. العلم بما في الأرحام، كما يقول: (وَ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ).

٤. عدم دراية أحد ماذا يفعل غداً، كما يقول: (وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا).

٥. عدم معرفة أحد أين يموت، كما يقول:(وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ).

ثمّ إنّه سبحانه يختم الآية بقوله: (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) عليم بجميع الأُمور، عارف بحقيقتها وكُنهها.

هذا هو التفسير المعروف بين المفسّرين.

ولكن التدقيق في صياغة الآية يثبت أمراً غير ذلك، وهو أنّ هذه الأُمور الخمسة على نحوين:

الأوّل: قسم استأثر الله بعلمه، ولا يعلّمه لغيره إلى آخر الدنيا، وهو علم الساعة، ويؤيّده ما ورد حوله من الآيات: قال سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ). الأعراف:١٨٧.

وقسم يعلمه سبحانه ويجهله غيره، ولكن لم يستأثر هو وحده بعلمه، بل ربّما يعلّمه لغيره.

إذاً ثمّة فرق بين الاستئثار بعلم أمر وبين جهل الآخرين به، فالأوّل يلازم أن لا يُظهر علمه به إلى نهاية الدنيا، أمّا الثاني فيدلّ على أنّه سبحانه يعلَم الأمر ويجهله الآخرون لكن ربّما يُعلّمه الآخرين، وستوافيك شواهد على أنّه سبحانه علّم غيره ماذا يكسب غداً أو بأي أرض يموت، والذي يدلّ على ذلك الاختلاف في صيغ الفقرات، ففي علم الساعة يقول: (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)حيث يبتدأ الفقرة بـ«إنّ» المشدّدة للتأكيد وتقديم الظرف، بخلاف الفقرات الأُخرى فإنّ تغيير الصيغة مشاهد معلوم، فيقول في مسألة تنزيل الغيث:(وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ) فكم من فرق بين هذا وبين أن يقول مثلاً: وعنده وقت نزول الغيث.

وعلى هذا، فالله سبحانه يعلم وقت نزول الغيث والآخرون يجهلونه.

وأمّا النشرات الجوية لدائرة الأنواء الجوية فهي تعيّن أوقات نزول الغيث والثلوج، لكن كلّها مبنيّة على الظنّ والتخمين ولا تصل إلى درجة اليقين. والشاهد على ذلك أنّ الآية نزلت في حال أن لكلّ من الأُمم تجارب في نزول المطر والثلج، حتى أنّ القرويين والبدو كانوا يستطيعون التنبّؤ بحالة الطقس المقبلة من صحو أو مطر، لكن كلّ ذلك بالظنون والتخمين، ولذلك ربّما لا تكون صائبة .

ومع ذلك فالآية لا تنافي إمكان العلم بنزول المطر في وقت كذا بتعلُّم من الله ، كما أنّ جهل الإنسان به لا يلازم كونه أنّه من الأُمور الّتي اختصّ الله سبحانه بعلمها.

قوله تعالى:(وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) من زمان انعقاد النطفة إلى أن تضع الأُم ولدها أهو ذكر أو أُنثى، أهو تام الخلقة أو ناقصها، أهو سعيد أو شقي، إلى غير ذلك من أحوال الجنين، وبالجملة العلم بجميع الأحوال والأطوار، إنّما هو ممّا استأثر به الله لنفسه.

قال الإمام علي(عليه السلام) في تفسير هذه الآية: «فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحانَهُ مَا فِي الاْرْحَامِ مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيح أَوْ جَمِيل، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيل، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيد، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فَهذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إلاَّ اللهُ». نهج البلاغة: الخطبة ١٢٨.

ومع ذلك فهذا المورد ـ كما سبق ـ ممّا يعلمه الله ويجهله الآخرون، ولكن لا ينافي أن يعلّم نبيّاً أو وليّاً ما في الأرحام حتى الأوصاف والأحوال.

حكى السيد الطباطبائي(قدس سره) أنّ زوجته كانت حاملاً وكان هو غير عارف بحملها، وزارنا ـ كما يقول ـ أُستاذنا السيد علي القاضي في النجف الأشرف، والذي كانت بيننا وبينه صلة رحم، فعندما همّ بالخروج خاطب زوجتي وهي بمنزلة بنت عم له، قال: يا بنت العم ما في بطنك ذكر يبقى، فإذا ولدت فسمّيه عبد الباقي، فصار كما كان. وإنّما قال ذلك لأنّ زوجة السيد كانت قد حملت مراراً ولكنّهم جميعاً توفّوا بعد أيام.

قوله تعالى: (وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا): أي ماذا تعمل في المستقبل من خير وشرّ. وحكم هذه الفقرة حكم سائر الفقرات، فالله سبحانه يعلم والآخرون يجهلون، ولكن لا ينافي تعليم الأنبياء والأولياء بمصائر الناس.

وهذا هو يوسف ينبئ عن مصير رفيقيه في السجن، واللّذين استفتياه عمّا شاهداه في رؤياهما، قال تعالى:(قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) يوسف:٣٦، فعبّر يوسف(عليه السلام)رؤياهما بقوله:(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ)،(يوسف:٤١.) حيث أخبر عمّا سوف يكسبان غداً. وروى أبو نضرة العبدي، عن أبي هريرة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال لعشرة من أصحابه: آخركم موتاً في النار، وفيهم سمرة بن جندب.. قال أبو نضرة: فكان سمرة آخرهم موتاً. وعن ابن طاووس وغيره: قال النبيّ لأبي هريرة وسمرة بن جندب وآخر الرجل الآخر، هو أبو محذورة.: آخركم موتاً في النار. فمات الرجل قبلهما، فكان إذا أراد الرجل أن يغيظ أبا هريرة، يقول: مات سمرة، فيُغشى عليه ويصعق، فمات قبل سمرة. تاريخ الإسلام للذهبي(وفيات سنة ٤١ـ ٦٠هـ): ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

روى أبو داود الطيالسي عن أبي العالية، قال: حدّثني مزرّع صاحب علي بن أبي طالب(عليه السلام) أنّه قال: ليُقبلنّ جيش حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم. قال أبو العالية: فقلت له: إنّك لتحدّثني بالغيب! فقال: احفظ ما أقوله لك، فإنّما حدّثني الثقة علي بن أبي طالب. وحدثني أيضاً شيئاً آخر: ليؤخذنَّ رجل فليُقتلنَّ ولَيُصلبنّ بين شرفتين من شُرَف المسجد، فقلت له: إنّك لتحدّثني بالغيب! فقال: احفظ ما أقول لك: قال أبو العالية: فوالله ما أتت علينا جمعة، حتى أُخذ مزرّع، فقتل وصُلب بين شرفتين من شرف المسجد. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٢/٢٩٤ـ ٢٩٥.

فهذا النوع من التنبّؤات كثير في الروايات، ولا ينافي مضمون الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وهذه الفقرة أيضاً على غرار الفقرات السابقة، فالله سبحانه هو العالم بالأرض التي يموت فيها كلّ إنسان ولا يعلم بذلك غيره، ولكن ربّما تقتضي المصلحة أن يُعلم نبيّه أو وليّه بمصائر بعض الناس وبالأرض التي يموتون فيها، ومن أمثلة ذلك:

١. إخبار النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّ عمّاراً تقتله الفئة الباغية، فقد رُوي أنّه مرّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بعمّار (عند بناء المسجد) ومسحَ عن رأسه الغبار، وقال: ويحَ عمّار، تقتله الفئة الباغية، عمّار يدعوهم إلى الله، ويدعونه إلى النّار. صحيح البخاري: ٢ / ٢٢٦ برقم ٢٨١٢، كتاب الجهاد والسير. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام:٤٩٧/١، أُسد الغابة:٤ / ٤٦.

قال الحافظ ابن عبد البرّ: تواترت الآثار عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: «تقتل عمّاراً الفئة الباغية» وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوّته، وهو من أصحّ الأحاديث. الاستيعاب: ٣ / ١١٤٠ .

٢. روى الحاكم النيسابوري عن أُمّ سلمة: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)اضطجع ذات ليلة، فاستيقظ وهو خاثر... ثم اضطجع فاستيقظ وفي يده تربة حمراء يقبّلها، فقلت: ما هذه التربة يا رسول الله ؟ قال: «أخبرني جبريل (عليه السلام)أنّ هذا يُقتل بأرض العراق ـ للحسين ـ فقلت لجبريل: أرني تربة الأرض الّتي يُقتل بها، فهذه تربتها». المستدرك على الصحيحين: ٤ / ٣٩٨ (وصحّح إسناده على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي)؛ ورواه الطبراني في المعجم الكبير: ٣ / ١٩ برقم ١٨٢١ .

وعن عرفة الأزدي، وهو من أصحاب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: دخلني شكّ في شأن علي(عليه السلام) فخرجت معه على شاطئ الفرات، فعدل عن الطريق ووقف ووقفنا حوله، فقال ـ مشيراً بيده ـ : «هذا موضع رواحلهم، ومُناخ ركابهم، ومهراق دمائهم، بأبي من لا ناصر له في الأرض ولا في السماء إلاّ الله » فلمّا قُتل الحسين، خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوا فيه، فإذا هو الحال ما أخطأ شيئاً، قال: فاستغفرت الله ممّا كان من الشكّ وعلمت أنّ عليّاً(عليه السلام)كان على حقّ لم يقدم إلاّ بما عهد إليه منه». أُسد الغابة:١٦٩/٤.

مفاتيح الغيب خمسة

اشتهرت هذه الأُمور الخمسة بمفاتيح الغيب، ففي صحيح البخاري من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «مفاتيح الغيب خمس ثمّ قرأ (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...)». صحيح البخاري:٢٥٨/٣ برقم ٤٧٧٨، كتاب التفسير.

ومن حديث أبي هريرة: خمس لا يعلمهنّ إلاّ الله ، إنّ الله عنده علم الساعة، جواباً عن سؤال جبرئيل متى الساعة؟ صحيح البخاري: ٢٥٧/٣ برقم ٤٧٧٧، كتاب التفسير.

هذه الروايات يجب أن تفسّر بما ذكرنا وإلاّ فظواهرها مخالف لنفس الكتاب العزيز وسائر الأحاديث المتضافرة.

بقي الكلام عمّا روي من طرقنا في هذا المقام، وها نحن نذكر تلك الروايات مع ما يمكن تفسيرها به:

١. روى الصدوق عن ابن الوليد، عن الصفّار، عن إبراهيم بن هاشم، عن عبد الرحمن بن حمّاد، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي أُسامة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «قال لي أبي: ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه؟ قلت: بلى، قال: «إنّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث...». الخصال: ٢٩٠، طبعة مكتبة الصدوق.

ورجال الحديث كلّهم ثقات غير عبد الرحمن بن حمّاد وإبراهيم بن عبدالحميد، فإنّ الأوّل مهمل لم يتّضح حاله بوثاقة أو ضعف، وأمّا إبراهيم بن عبد الحميد فإنّه مختلف فيه وإن رجّح شيخنا العلاّمة التستري في قاموسه وثاقته. قاموس الرجال: ١ / ٢١٩ برقم ١٣٥ .

٢. روى الصفّار عن أحمد بن محمد، عن محمد بن سنان، عن أبي الجارود، عن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين(عليه السلام) يقول: «إنّ لله علمين علم استأثر به في غيبه فلم يُطلع عليه نبيّاً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته وذلك قول الله

تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...) بصائر الدرجات: ٣١.. والحديث ضعيف الإسناد لأجل «محمد بن سنان» فقد ضعّفه كثير من علماء الرجال، وأمّا أبو الجارود فهو زيدي.

٣. ما رواه القمّي في تفسيره تفسير القمّي:٥١٠. وقد جمع أحاديث الباب العلاّمة المجلسي في كتابه بحار الأنوار:٢٦/١٠١ـ ١٠٣، فراجعه.مرسلاً عن الصادق ومضمونه قريب ممّا رواه الصدوق في خصاله.

وأمّا ما رواه الحافظ جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور» عن عكرمة أنّ رجلاً جاء إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فقال: يا محمّد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت الآية تفسير الدر المنثور:٥/١٦٩.، فلا ينطبق على ظاهر الآية فإنّ المتبادر من قوله: (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) هو العلم بخصوصية الجنين لا العلم بوقت ولادته كما هو ظاهر الحديث، مضافاً إلى ما في سنده من الضعف الظاهر لانحراف عكرمة عن أمير المؤمنين(عليه السلام)، وأخذه الحديث من أُناس لا خلاق لهم في الدين.

هذه الأحاديث لا يصحّ الاعتماد عليها إلاّ على ما نقله الرضيّ في «نهج البلاغة» عن الإمام(عليه السلام) من أنّ علم الغيب علم الساعة، وما ذكره الله سبحانه بقوله: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...) فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله .

وهو ممّا يجب تأويله وتوجيهه على وجه لا ينافي ما تواتر من الروايات من تنبّؤ المخلصين بزمان موتهم ومكانه، وما يلمّ بهم من خير وشرّ خصوصاً إذا وقفنا على أنّ الإمام ألقى كلامه هذا تجاه النواصب والمخالفين الذين سمعوا من الإمام في البصرة من الأسرار ما لا يتحمّلون، فاعترضوا عليه بأنّه تنبّؤ بالغيب، فأجابهم وصدّ اعتراضهم بأنّه ليس بعلم الغيب، بل تعلُّم من ذي علم، وإنّما الغيب هو الساعة، وما عدّده سبحانه... .

وبما أنّ الكلام ورد في مقام إسكات الخصم فيمكن تأويله بإحدى الوجوه التي ذكرها العلاّمة المجلسي في بحاره. لاحظ: بحار الأنوار:٢٦/١٠٣ـ ١٠٤.

***

تمّ تفسير سورة لقمان

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة السجدة

٣٢سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «السجدة»، ولعلّ المراد سورة «الم السجدة»، وإلاّ فاسم سورة السجدة لا يختصّ بهذه السورة فقط . و في «مجمع البيان» سُمّيت أيضاً بـ (سجدة لقمان) لئلاّ تلتبس بـ«حم السجدة» يعني سورة فصّلت.

ولعلّه لأجل رفع التشابه سُمّيت هذه السورة بسورة السجدة، والأُخرى بسورة «حم السجدة» وما ذلك إلاّ لأنّ صدر كلا السورتين متقاربان.

ففي المقام قال تعالى:(الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وأمّا في السورة الأُخرى فقوله تعالى: (حَم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فصلت:١ و٢.وقد قلنا مراراً أنّ التسمية ليست توقيفية فيصحّ تسمية السورة باسم يكون مناسباً لشأنها.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها تسع وعشرون في عدّ البصري، وثلاثون في الباقين.

والسورة مكّية تشهد لذلك مضامينها، وقد استثنيت ثلاث آيات وهي قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) السجدة:١٨ـ٢١، وسيوافيك ما ورد حولها من الآثار.

أغراض السورة

إنّ الغرض الأصلي من السورة هو التأكيد على أنّ القرآن منزّل من لدن الله تعالى، والتنديد بمن ينسبه إلى غيره، ثم التأكيد على تقوية الإيمان بالمبدأ والمعاد، والدعوة إلى الارتباط القويّ بالله تعالى وملازمة التقوى والابتعاد عن العصيان.

هذا هو الخطّ الإجمالي في هذه السورة، وأمّا الخطوط التفصيلية فسيوافيك ذكرها خلال تفسير الآيات.

سورة السجدة: الآيات ١ ـ ٣ (الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

الآيات: الثلاث الأُولى

(الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

المفردات

تنزيل: مصدر بمعنى المنزّل، وهو من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أي الكتاب المنزّل.

قوماً: القوم يطلق على جماعة تجمعهم رابطة من النسب أو الوطن أو الدين، وهي كالقوام لهم.

نذير: من الإنذار، وهو إخبار فيه تخويف، كما أنّ التبشير إخبار فيه سرور.

التفسير

١.(الم):

عدّت آية مستقلة كما هو الحال في السور التالية: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان.

وهي من الحروف المقطّعة، التي صدّرت بها عدّة من السور، ويجمعها قولنا: صراط علي حقّ نمسكه.

وأمّا ما هو المراد، فأشرنا إليه باختصار في سورة العنكبوت، وسيأتي التفصيل عند تفسير سورة الأحقاف.

٢. (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

قوله:(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي هذا هو الكتاب المنزل، وعندئذ يكون قوله:(لاَ رَيْبَ فِيهِ) خبراً بعد خبر، أو صفة للكتاب، ونحوه قوله:(مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)أمّا خبر بعد خبر أو وصف للكتاب.

ثمّ إنّه سبحانه وصف الكتاب بقوله:(لاَ رَيْبَ فِيهِ) فهل نفي الريب عنه، نفيٌ ادّعائي وأنّ اللائق بهذا الكتاب أن لا يشكّ فيه أحد، أو هو نفي حقيقي؟ الظاهر هو الثاني، لأنّ هذه السورة هي الثالثة والسبعون حسب النزول، وهذا يعني أنّها نزلت بعد مضيّ فترة غير قصيرة من دعوة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)بمثل قوله: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيرًا) الإسراء: ٨٨ . ، فلو كان التحدّي بإمكان قريش وسائر المشركين لقاموا بالمعارضة، فعجزُهم عن المعارضة أفضل دليل على أنّهم اعترفوا في صميم ذاتهم بالعجز، وأنّه من صنع الله وإن لم يعترفوا بلسانهم، وبذلك صحّ أن يقال: (لاَ رَيْبَ فِيهِ).

ثمّ إنّه سبحانه ينسب القرآن إلى ربّ العالمين، وفيه احتمالات:

١. إشارة إلى أنّ شريعته شريعة عالمية بحجّة أنّه مرسل من ربّ العالمين.

٢. أن يكون فيه براعة استهلال لما في غرض السورة من التوحيد والمعاد اللّذين ينكرهما الوثنية لما تقدّم مراراً أنّهم لا يقولون بربّ العالمين بل يثبتون لكلّ عالم إلهاً، ولمجموع الآلهة إلهاً هو الله (تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا).(الإسراء:٤٣.)

٣. يمكن أن يكون لبيان أنّه مرسل من ربّ العالمين ومثل ذلك يؤخذ به ولا يسأل عن شيء آخر.

ومع كون القرآن ممّا لا ريب فيه لكنّ قريشاً وسائر المشركين ظلّوا يصرّون، عناداً ومكابرة، على دعواهم أنّ النبيّ افتراه، كما يقول:

٣. (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ):

قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ) إضراب عن كلام سابق لكن باستفهام إنكاري متضمّن للتعجّب، والضمير المستتر في (افْتَرَاهُ)يرجع إلى

النبي، والضمير الظاهر يرجع إلى الكتاب، أي يقولون: بل افتراه وليس الأمرعلى ما يقولون (بَلْ هُوَ الْحَقُّ) نزل عليك (مِنْ رَبِّكَ) والحقّ الثابت الذي لا يتسرّب إليه البطلان، كيف؟ وهو كلام الله الحق، فالمنزَّل حقٌّ كما أنّ المنزِّل كذلك.

ثمّ إنّ قوله: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) يدلّ على أنّه هنا منزِّل وهو الله تعالى، ومبلّغ وهو النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومنزَّل عليه، وهو ما يشير إليه بقوله:(لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ)، فالفقرة تدلّ على أنّهم لم يأتهم نذير من قبلك.

ولعلّ التركيز على هذا الوصف أي: لم يأت نذير قبل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لغاية بيان أمر، وهو أنّ القوم لو كانوا عاقلين لأخذوا بالكتاب لأنّهم أحوج إلى الهداية الإلهية من أهل الكتاب، ومع ذلك كلّه تمادوا في اللّجاجة والعناد، فلم يهتدوا بهدي القرآن كما يقول:(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)والتعبير بـ«لعلّ» للإشعار باستبعاد تحقّق الهداية.

ثمّ إنّ هنا سؤالاً وهو: أنّ الآية تدلّ على أنّ هؤلاء القوم ما أتاهم نذير، مع أنّ بعض الآيات يدلّ على أنّ لكلّ أُمّة نذيراً كما قال: (وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ) فاطر:٢٤. فكيف الجمع بين الآيتين؟

والجواب واضح، وهو أنّ الموضوع في إحدى الآيتين هو الأُمّة وفي الأُخرى القوم، أمّا الأُمّة فتطلق ـ كما في المفردات ـ على كلّ جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً.(المفردات للراغب: ٢٣، مادة «أمّ».)

وأمّا القوم فيطلق على جماعة يربطهم اشتراكهم في النسب وكأنّه قوام لهم، وربّما يستعمل في خصوص الرجال كما في قوله سبحانه: (لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَ لاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاء عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ) الحجرات:١١..

وقال الشاعر:

ولا أدري وكيف إخال أدري *** أقوم آل حصن أم نساءُ

وربما يراد به الرجال و النساء معاً، كما هو الحال في القرآن الكريم في أكثر الآيات. وعلى كلّ تقدير فالقوم مجتمع أقلّ أفراداً من الأُمّة، فالعرب أُمّة والعجم أُمّة، ولكنّ قريشاً قوم وليست أُمّة.

إذا عرفت ذلك فنقول:

أمّا قوله سبحانه: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ) فهو ناظر إلى بعث الأنبياء العظام، كنوح و الخليل وموسى وعيسى (سلام الله عليهم). وبعث هؤلاء بين كلّ أُمّة يسبّب إتمام الحجّة على القريب والبعيد.

توضيحه: جرت سنّة الله تعالى على بعث الرسل في أُمّ القرى لا في كلّ قرية وريف، يقول سبحانه:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً) القصص:٥٩.وذلك لكفاية بعث الرسل في أُمّ القرى لأهلها ولمن يسكن ما وراءها، وما ذلك إلاّ لوجود الصلة بين المركز وأطرافه، وبذلك تتمّ الحجّة على الجميع، ويؤيّد ما ذكرنا قوله تعالى: (وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَهَا) الأنعام:٩٢.

ولقد بعث الله نبيّه الخليل وابنه الذبيح بين العرب وبذلك أتمّ سبحانه الحجّة عليهم قريبهم وبعيدهم. وقد ركّزا على الدين الحنيف عن طريق توحيد العبادة ورفض الأصنام، وبذلك تمّت الحجّة على تلك الأُمّة إلى عصر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فمنهم مَن بقي على الدين الحنيف ومنهم (وهم الكثرة الكاثرة) مَن أعرض.

يقول ابن هشام: اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيّاً، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن حويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلّموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم(عليه السلام)، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً... إلى أن قال: إنّ زيد بن عمرو بن نفيل أسند ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش،

والذي نفسُ زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيري، ثمّ يقول: اللّهم لو أنّي أعلم أيّ الوجوه أحبّ إليك عبدتك به، ولكنّي لا أعلمه، ثم يسجد على راحلته. السيرة النبوية لابن هشام:١/٢٢٢ـ ٢٢٥.

قال: وقال زيد بن عمرو في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم في ذلك:

أربّاً واحداً أم ألف ربّ *** أدينُ إذ تُقسّمت الأُمورُ

عزلت اللات والعزى جميعاً *** كذلك يفعل الجلد الصبورُ

إلى أن يقول:

ترى الأبرار دارهم جنان *** وللكفّار حاميةً سعيرُ

وخزيٌ في الحياة وإن يموتوا *** يُلاقوا ما تضيق به الصدور

السيرة النبوية لابن هشام:١/٢٢٦ـ٢٢٧.

وأمّا الآية الثانية ـ أعني: قوله:(لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) ـ فهي ناظرة إلى قوم قريش أو هم مع كنانة، ومن المعلوم أنّه سبحانه لم يبعث فيهم رسولاً كسائر الأنبياء العظام أصحاب الرسالة والكتاب. وأمّا الخليل وابنه إسماعيل فقد بعثهما الله سبحانه بين العرب لا خصوص قريش وبذلك تبيّن أمران:

١. أنّ قريشاً وإن لم يُبعث فيهم رسول ونذير بالخصوص لكنّ الحجّة قامت عليهم ببعث الخليل وابنه إسماعيل بين العرب ، وبذلك تمّت الحجة، ومن انحرف فقد انحرف مع قيام الحجّة.

٢. أنّ قوم قريش ومن والاهم من سائر القبائل لم يأتهم نذير كموسى وعيسى (عليهما السلام) ، ومع ذلك لم يتركوا سدى بل تمّت الحجّة عليهم من ذي قبل.

سورة السجدة: الآيات ٤ ـ ٩ (اللَّهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ... قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ).

الآيات: الرابعة إلى التاسعة

(اللَّهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *اَلذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ).

المفردات

استوى: الاستواء بمعنى الاستيلاء والتمكّن التام، أو الاستعلاء، كما يقول: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ) المؤمنون: ٢٨. أي إذا تمكّنت في مكانك. ويقول سبحانه: (فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)،(الفتح: ٢٩.) أي تمكّن الزرع واستقام، وليس بمعنى جلس، ولو استعمل في مورد الفُلك أو ظهر الدابّة، فالجلوس من لوازم المورد، وإلاّ فمعناه المطابقي هو التمكّن سواء أكان هناك جلوس أم لا.

العرش: سرير الملك لسان العرب: ٦ / ٣١٣، مادة «عرش».، قال الراغب: العرش في الأصل شيء مسقّف وجمعه عروش قال تعالى: (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا). الكهف:٤٢. وسمّي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوّه . المفردات للراغب:٣٢٩، مادة «عرش».والأَولى أن يقول: سمّي ما يجلس عليه السلطان عرشاً باعتبار علوّه.

يدبِّر: التدبير النظر في دابر الأمر وعاقبته.

يعرج: العروج: ذهاب في صعود.

ألف: يحتمل أن يراد به العدد المحدّد بين تسعمئة وتسع وتسعين، والألف بزيادة واحد.

ويحتمل أن يراد به الزمان المتطاول وليس المقصود منه حقيقة العدد.

نسله: النَّسل: الانفصال عن الشيء، وأُريد الولد لكونه ناسلاً عن أبيه.

سلالة: الصفوة التي تُنسل وتُنزع من غيرها، ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه.

مَهين: من الهُون، وهو الضّعف والحقارة.

التفسير

٤.(اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيع أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ):

قد تقدّم أنّ من أغراض السورة التركيز على التوحيد، خالقاً ومدبّراً، وقد بدأ سبحانه به بعد الفراغ من بيان أنّ القرآن كتاب منزل من رب العالمين وقد جاءت الآية بنفس اللفظ أو باختلاف يسير في غير واحدة من السور، ففي سورة الأعراف:(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ...). الأعراف:٥٤.

وفي سورة يونس :(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ).(يونس:٣.)

وفي سورة الفرقان:(الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ). الفرقان:٥٩.

وفي سورة الرعد:(اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ).(الرعد:٢.)

وفي سورة طه:(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتَ الثَّرَى) طه:٥ و٦..

و في سورة الحديد:(هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا). الحديد:٤.

إنّ تفسير هذه الآيات المتقاربة في التعبير والمعنى، رهن بيان أُمور:

الأوّل: أنّ هذه الآيات بصدد بيان التوحيد في مجالَي الخلق والتدبير، وأنّه سبحانه هو الخالق لا غيره، وفي الوقت نفسه هو المدبّر، كما قال: (اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام) ولذلك جاء التصريح بالتدبير في قسم من الآيات، وفي قسم آخر أُشير إلى مصاديقه من تسخير الشمس والقمر وغيرهما، فالهدف من ذلك هو التنديد بالمشركين بأنّ العبادة من شؤون الخالق المدبِّر للعالَم، فلماذا أعرضوا عن عبادة الله وتوجّهوا إلى عبادة الأوثان؟

الثاني: ما هو المراد من خلق السماوات والأرض في ستة أيام؟

الظاهر أنّ الغاية من التعبير بهذا العدد، هي بيان المراحل التي مرّ بها خلق السماوات والأرض. وقد دلّت البحوث العلمية على أنّ خلق الكون قد مرّ بمراحل، وأنّ خلق هذه العوالم استغرق سنين متطاولة تحت ضوابط ونواميس خاصّة.

وأمّا التعبير عن المرحلة باليوم، فلأجل أنّ اليوم تارة يعبّر به من وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وأُخرى عن مقدار من الزمان أيّاً كان، كما في قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ)(آل عمران:١٥٥.) وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ». نهج البلاغة: قصار الكلم، برقم ٣٩٦ .

الثالث: ما هو المراد من الاستواء؟

كلّما أُطلق الاستواء يراد به الاستعلاء أو الاستيلاء أو ما أشبههما في عامّة الموارد، سواء أكان مقروناً بالجلوس أم لا؟ فإنّ الجلوس

من عوارض المورد لا من مقوّمات المعنى بشهادة ما يلي:

١. قول الشاعر:

قد استوى بِشرٌ على العراق *** من غير سيف ودم مهراقِ

يريد أنّ بشراً استعلى على العراق وبسط سلطانه عليه دون أن يسلّ سيفاً أو يهرق دماً.

٢. وفي «لسان العرب» يقال: استوى أي استولى وظهر، ثم استشهد بالشعر المذكور أعلاه، ويقال: استوى على ظهر دابّته أي استقرّ.

لسان العرب: ١٤ / ٤١٤، مادة «سوى».

وأمّا قوله سبحانه:(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) المؤمنون:٢٨.:أي إذا تمكّنت في مكانك، (فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

الرابع: ما هو المراد من العرش؟

أمّا العرش فالفرق بينه وبين السرير بأنّ الثاني يطلق على سرير النوم والجلوس العادي، وأمّا العرش فيختصّ استعماله فيما يجلس عليه الملوك لإدارة شؤون البلد، قال تعالى:(وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْء وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) النمل:٢٣.

حيث كانت ملكة سبأ تجلس على سرير ضخم ثمين مرصّع بالجواهر، ونظراً لفخامة عرشها أمر سليمان(عليه السلام) الملأ بالإتيان به. لاحظ: النمل:٣٨. وقال سبحانه: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)(يوسف:١٠٠.) أي رفع يوسف أبويه على ما كان يجلس عليه وهو يدير شؤون المملكة، وإلاّ فإجلاس الأبوين على ما كان ينام عليه أو يجلس عليه لأمر عادي ليس فيه تعظيم.

الخامس: إنّ هذه الفقرة: (اسْتَوى عَلَى العَرْش) جاءت في غير واحدة من الآيات في ثنايا أُمور تتعلّق بالكون وتدبيره، فتكون قرينة على كون المراد به الاستيلاء على عرش التدبير لا الجلوس على السرير. ولأجل إيضاح الموضوع بتفصيل واف نحيل القارئ إلى مراجعة تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف. وسيوافيك شيء من التوضيح في تفسير الآية ٤ من سورة الحديد. وبما أنّ استواءه سبحانه على العرش من الصفات الخبرية عملنا رسالة حول هذه الصفات ستوافيك في آخر هذا الجزء.

قوله تعالى:(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلاَ شَفِيع أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ) الظاهر أنّ قوله:(مِنْ دُونِهِ)بمعنى «من غيره»، كما أنّ المراد من الولي هو الذي يملك شؤون المولّى عليه وأُمور حياته وليس بمعنى الصديق، وإلاّ فللمشركين أصدقاء كثيرون من غيره سبحانه، والذي يفقدونه هو أنّهم ليس لهم ولا لغيرهم وليٌّ ـ بالمعنى الذي ذكرناه ـ غيره سبحانه، إذ هو الذي يدبر أُمور العالم وأُمور الإنسان كلّها.

إنّما الكلام في قوله:(وَلاَ شَفِيع) إذ كيف يمكن وصف الله سبحانه بالشفيع مع أنّ الشفيع عبارة عمّن يتوسّط بين المشفوع له والمشفوع إليه، والله سبحانه أعلى وأنبل من أن يتوسّط بين إنسان ومقام أسمى منه سبحانه، وهذا هو الذي صار سبباً لتفسير الفقرة بوجوه مختلفة.

والظاهر أنّه لمّا كانت الشفاعة من شؤون التوحيد، فلذلك صارت محدّدة بإذنه سبحانه من غير فرق بين الشفيع، كما يقول: (لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) مريم:٨٧. وبين المشفوع له كما يقول: (وَ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) سبأ:٢٣.، وعندئذ تكون الشفاعة على وجه الإجمال بيده سبحانه ولذلك قال: (وَلاَ شَفِيع أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ) ونظير المقام ما في قوله سبحانه:(قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) الزمر:٤٤. فعلى هذا فأُمور الشفاعة كلّها ترجع إليه، فلولا إذنه في جانبَي الشفيع والمشفوع له، لما تمّ أمر الشفاعة، فصحّ أن يقال:(قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)وقوله:(وَ لاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ). الأنعام:٥١.

ثمّ إنّ هذه الآية تثبت وجود الوليّ للكافرين أيضاً ، حيث يقول:(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ)والخطاب يعمّ المؤمن وغيره، لكن في

آية أُخرى ينفي وجود المولى لهم حيث يقول: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ). محمد:١١.

والجواب: أنّ المراد من الوليّ هو الأَولى بالنفس والنفيس، والمراد من المولى في الآية الأخيرة هو الناصر، والمعنى أنّ اللهَ ينصر الذين آمنوا ولا ينصر الكافرين، فاختلف المعنيان، كما أنّه لا يأذن لمن يشفع لهم قال: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ). البقرة:٢٥٥.

وبما ذكرنا من أنّ شفاعة الشفعاء إنّما هي بإذنه، يظهر معنى قوله سبحانه: (قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا). وبذلك نستغني عن الوجوه التي ذكرها المفسّرون في تفسير كونه سبحانه شفيعاً.

٥.(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ):

دلّت الآية السابقة على أنّ الله خالق السماوات والأرض مستولياً على عرش التدبير، ودلّت هذه الآية على أنه سبحانه يدبّر النظام السائد، ثم يطويه في يوم آخر.

وبيان ذلك يتمّ ضمن أُمور:

١. إنّ قوله: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ) حال من لفظ الجلالة في الآية السابقة.

٢. (الأَمْرَ) في الآية بمعنى الشأن وأُريد به النظام الحاكم على السماوات والأرض.

٣. اللام في (الأَمْرَ) للجنس، فهي تفيد الاستغراق في الأُمور كلّها.

٤. قوله: (مِنَ السَّمَاءِ) الظاهر أنّه متعلّق بالأمر، أي مجموع أمر السماء والأرض.

ويحتمل بعيداً أن يكون متعلّقاً بالتدبير، فيكون المراد أنّ مبدأ الأمر المدبّر من السماء نازلاً إلى الأرض.

وعلى المختار فمعنى قوله سبحانه:(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ): أي أنّ الله الخالق هو مدبّر جميع العالم المؤلّف من السماء والأرض. وهذا هو أحد القرائن على تفسير قوله سبحانه:(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) بالتمكّن من التدبير لما تحت سلطانه جلّ شأنه.

ثمّ إنّه أشار إلى المعاد بقوله:(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ).

وتوضيح الفقرة يتحقّق بالإمعان في الأُمور التالية:

١. الضمير في قوله: (يَعْرُجُ) يعود إلى (الأَمْرَ) الذي أُريد به أمر التدبير.

٢. بما أنّه سبحانه ذو جلال وإكرام عُبّر عن رجوع الأمر إليه بالعروج، نظير قوله سبحانه:(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) فاطر:١٠.

٣. أنّ هذه الفقرة تشير إلى يوم القيامة أو علائمه بعد بيان أمر التوحيد خلقاً وتدبيراً.

وحاصل معنى الفقرة: أنّ النظام الّذي يسود العالم عبر العصور يُطوى في يوم كطيّ السجل للكتب(كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ).

وخلاصة الكلام: أنّ للعالم بداية وهي خلق العالم من السماء والأرض إلى أجل مسمّى مقرون بالتدبير والنظام، وله نهاية بقيام يوم القيامة وطيّ عوالم الوجود، فالمبدأ للعالم هو الله سبحانه والمنتهى هو أيضاً، فكأنّ الآية بصدد بيان أنّ لله سبحانه برنامجين:

١. إبداع وإنشاء.

٢. إنشاء مشروع جديد بعد طيّ الإنشاء الأوّل.

ولا يتمّ الأمر الثاني إلاّ في يوم مقداره ألف سنة من سنين الدنيا.

ثمّ إنّ للمفسّرين في تفسير الآية آراء أُخرى بعيدة عن ظهور الآية وسائر الآيات التي تؤيّد ما ذكرنا، وقد ذكرها الطبرسي، منها:

١. ينزل المَلك بالتدبير أو الوحي ويصعد إلى السماء، فيقطع في يوم واحد من أيّام الدنيا مسافة ألف سنة ممّا تعدّونه أنتم، لأنّ ما

بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لابن آدم، وهو المرويّ عن ابن عباس وغيره. وعندئذ لا صلة للآية بيوم المعاد.

٢. يدبّر سبحانه الأمر ويقضي أمر كلّ شيء لألف سنة في يوم واحد، ثمّ يلقيه إلى ملائكته، فإذا مضت الألف سنة قضى لألف سنة أُخرى ثم كذلك أبداً.

إلى غير ذلك من الأقوال التي لا دليل على صحّتها.

بقي هنا سؤال، وهو: أنّ الظاهر من الآية أنّ طيّ السماء والأرض يتحقق في يوم كألف سنة، ولكن الظاهر من آية أُخرى أنّه يتحقّق في خمسين ألف سنة، فكيف نوفّق بينهما ؟

والجواب هو ما روي عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام)، قال في كلام طويل: «فإنّ في القيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مثل ألف سنة ممّا تعدّون» ثم تلا هذه الآية:(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ). تفسير نور الثقلين:٤/٢٢٢.

تحريف مفاد الآية

البهائية مسلك سياسي خطّه الاستعمار في القرن الثالث عشر لغاية تمزيق الأُمّة الإسلامية خصوصاً الشعب الإيراني المتمسّك بولاية الأئمّة الاثني عشر(عليهم الصلاة والسلام) أوّلهم الإمام علي(عليه السلام) وآخرهم المهدي المنتظر(ع)الذي وعد الله به الأُمم.

وقد تواتر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً منّي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً». الغيبة للشيخ الطوسي: ٤٦. وانظر: سنن الترمذي: ٦٥٠، رقم ٢٢٣٧ (تحقيق صدقي العطّار)، وصحيح ابن حبّان: ١٥ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧، رقم ٦٨٢٤

وقد ألّف غير واحد من علماء الإسلام عشرات الموسوعات ومئات الكتب حول الإمام المهدي(عليه السلام)وسجّلوا كلّ دقيق وجليل ممّا يتعلّق بحياته من ولادته عام ٢٥٥هإلى أوان ظهوره، فلم يُبقوا لمشكّك شكّاً ولا لمريب ريباً.

وبالرغم من وضوح هذه الحقائق إلاّ أنّه ظهر رجل يدعى علي محمد، وهو من مواليد عام (١٢٢٥ ه) في شيراز، وادّعى عام (١٢٦٠ ه) أنّه باب الإمام الثاني عشر، ثم بالغ وقال إنّه نفس الإمام إلى أن آل أمره إلى ادّعائه النبوّة الناسخة لنبوّة خاتم الأنبياء، وقد استجاب لدعوته زمرة قليلة بين جاهل لا يميّز الحق عن الباطل، ومغرض عميل مرتزق، منهم: أبو الفضل الجرفادقاني، الّذي صار داعية من دعاتهم، وألّف كتاباً باسم «الفرائد» باللغة الفارسية، ونشره في مصر، فخبط فيه خبط عشواء، وتقف على مقدار علمه وتعميته الأمر على الجهلة من أتباع مسلكه، ممّا نذكره هنا:

استدلّ على نبوة ذلك الرجل الذي ادّعاها عام (١٢٦٠ ه) بالآية التالية: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ). السجدة:٥.

وقال: إنّ الله ينزل الدين المبين من السماء إلى الأرض ثم بعد نزوله وكماله بالنبيّ والأئمة المعصومين يزول شيئاً فشيئاً ويصعد إلى السماء، فمعنى الآية: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ): أي ينزل دينه (مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ) فبعد ما كَمُلَ وأخذ الدين بالزوال والضعف ضمن ألف سنة، (ثُمَّ يَعْرُجُ) هذا الدين (إِلَيْهِ): أي إلى الله (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَة).

ثمّ حاول تطبيقه على دعوة إمام مسلكه فقال: الأنوار الإلهية أي الوحي النازل على قلب سيد المرسلين والإلهامات الواردة على قلوب الأئمّة الطاهرين كملت ضمن (٢٦٠) سنة، وبعدما توفّي الإمام العسكري(عليه السلام)وأحيل أمر الدين إلى الفقهاء فصار الدين لأجل اختلاف الآراء يضعف تدريجياً، وصاعداً إلى الله شيئاً فشيئاً حتى بلغ الأمر إلى أنّه لم يبق من الإسلام إلاّ الاسم، فعندئذ ظهرت في (١٢٦٠ ه) من أُفق فارس شمس الهداية وتحقق ما بشّر به القرآن الكريم. الفرائد:٣٧ـ ٣٨، طبعة مصر.

أقول: لا يخفى ما فيه من المغالطات والتحريفات، وهي أفضل دليل على أنّ الرجل اتخذ لنفسه عقيدة مسبقة ثم حاول أن يستدلّ

عليها بشيء من القرآن حتى يقنع الرّعاع الدهماء، وإلاّ فالعالم باللغة العربية وقواعدها يقف على أنّه ليس لهذا الاستدلال مسحة من الحقّ ولا لمسة من الصدق، وأنّ الجميع أغلوطة بعد أغلوطة، وإليك بيانها:

أمّا أوّلاً: فلأنّه فسّر قوله: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ) بأنّه ينزل الشريعة مع أنّ تلك الفقرة وردت في القرآن الكريم أربع مرّات وأُريد بها في الجميع تدبير أمر الخلق من السماء إلى الأرض لاحظ: يونس: ٣، ٣١، الرعد:٢، السجدة:٥، لا نزول الشريعة.

وثانياً: لو أراد الله سبحانه تنزيل الشريعة لكان من اللازم أن يقول: «ينزل الشريعة»، ولذلك نراه، فيما إذا أراد نزول القرآن، يقول: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) الإسراء: ١٠٦.وقال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً) الإنسان:٢٣.إلى غير ذلك من الآيات، ولم يُرَ في القرآن الكريم تعبير عن نزول الوحي والشريعة بتدبير الأمر.

وثالثاً: أنّه لو تمّ الاستدلال بأنّه سبحانه ينزل شريعته وينسخها بعد ألف عام، فإنّه يجب أن ينسخها بعد مضيّ ألف عام من نزول القرآن الكريم أو من هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أو وفاته، وكلّ ذلك لا ينطبق على ألف ومئتين وستين، بل ينقص عنه.

وقد حاول أن يتخلّص من هذا الإشكال بإدخال حياة الأئمّة الممتدة إلى سنة (٢٦٠ هـ)، ويجعلها جزءاً من كمال الشريعة وتمامها، وقد تمّت عنده بوفاة الإمام العسكري(عليه السلام)، وهو كما ترى فإنّ الشريعة تمّت بوفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وكمل الدين في يوم الغدير.

ورابعاً: أنّ ما ذكره من الضابطة لا ينطبق على سائر الأنبياء، فإنّ الفاصلة الزمانية بين النبي موسى والمسيح(عليهما السلام) أزيد من ألف سنة فهي تناهز ١٥٠٠ سنة، كما أنّ الفاصل الزماني بين المسيح(عليه السلام) ونبيّ الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلم)أقلّ من ألف سنة بكثير، حيث بُعث (صلى الله عليه وآله وسلم) في سنة (٦١٠م) من ميلاد المسيح(عليه السلام).

وخامساً: أنّ القرآن الكريم كتاب عربي نزل بأوضح العبارات وأبلغها، فلو كان المراد أنّه ينزل كلّ ألف سنة شريعة ثم ينسخها، لكان عليه أن يبيّن ذلك بعبارة واضحة كاشفة لمعنى أنّ الله سبحانه ينزل كلّ شريعة وتدوم ألف سنة ثم تنسخ بعد الألف، حتى لا يشتبه المراد.

والحقّ أنّ الرجل من مصاديق قوله سبحانه:(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) البقرة:٧٩..

٦. (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ):

قوله: (ذَلِكَ) إشارة إلى لفظ الجلالة في الآية المتقدّمة، ووصفه بقوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)يشعر بذلك، فالله سبحانه عالم بكلّ شيء ظاهر أو خفيّ، قادر على إنشاء عالم جديد فلا يشذّ شيء عن علمه.

ثم وصف نفسه بـ (الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ، فهو عزيز قادر لا يُغلب، وليس عاجزاً عن الإنشاء الجديد، وفي الوقت نفسه هو رحيم بمن خلقهم.

٧. (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِين):

وقبل البدء في تفسير الآية نذكر إعرابها:

١. قوله:(الَّذِي أَحْسَنَ)خبر رابع لما تقدّم في قوله: (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ). قلنا خبر رابع لأنّ قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أخبار ثلاثة.

٢. قوله: (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْء) صلة الموصول و(كُلَّ شَيْء) مفعول (أَحْسَنَ) وفعل الماضي أعني:(خَلَقَهُ) صفة شيء.

إذا عرفت ذلك، فالآية تتضمّن أمرين:

الأوّل: أنّ الله سبحانه هو الذي أحسن خلق الأشياء وأجملها.

الثاني:ابتدأ خلق الإنسان من طين.

أمّا الأمر الأوّل: ـ أعني خلق الأشياء بأحسن الوجوه ـ فأُريد به أنّ أجزاء كلّ شيء متلائمة بعضها مع بعض، ولأجل ذلك التلاؤم والتنسيق الدقيق أصبح كلّ شيء تامّاً وجميلاً في المنظر. قال الراغب: الحسن: عبارة عن كلّ مُبْهج مرغوب فيه، وذلك ثلاثةُ أضرُب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسّ. وأُريد به هنا القسم الثالث، فحسن كلّ شيء يكمن في تلاؤم أجزائه بعضها مع بعض ومع الكلّ. ثمّ إنّ تلاؤم الأجزاء بعضها مع بعض كالذريعة إلى إيصال الشيء إلى الكمال المطلوب، فقد جُهّز كلّ موجود بجهاز تدور عليه رحى حياته من غير فرق بين الإنسان والحيوان والنبات.

نعم، ربّما يطرح هنا سؤال وهو: كيف يجتمع حسن كلّ مخلوق مع وجود التضادّ بين الإنسان وبعض الحشرات، أو بينه وبين السِّباع؟

والجواب: أنّ الآية تركّز على أنّه سبحانه خلق كلّ شيء على الوجه الأكمل والأتمّ وزوّده بأجهزة تتوقّف عليها حياته من غير فرق بين الإنسان والعقرب أو الإنسان والذئب، فما هو المخلوق حسن كلّه، نعم عند المقايسة بين مخلوقين يتولّد منهما التضادّ وعدم التلاؤم. وليس هذا أمراً مخلوقاً لله سبحانه وإنّما هو خصيصة ذات شيء بالنسبة إلى شيء آخر، وإلاّ فالشوك حسن في خلقته والورد كذلك، والتضادّ بينهما أمر يتولّد من قياس الإنسان شيئاً بشيء ومقارنته بالآخر، ولا صلة له بفعل الله سبحانه. ونوضح ذلك بمثال :

لو افترضنا أنّ إنساناً بنى داراً على مئتي متر مربع ثم بنى داراً أُخرى على ألف متر مربع، فهو قام بعملين: بناء دار على مئتي متر وبناء دار أُخرى على ألف، وأمّا كون الأُولى أصغر من الثانية أو كون الثانية أكبر من الأُولى، وإن كان أمراً صحيحاً لكنّه ليس من فعل الباني وإنّما ينتزعه ذهن الإنسان عند مقايسة إحدى الدارين بالأُخرى.

وبما ذكرنا يظهر حال المقام، فالله سبحانه خلق الإنسان كما أنّه خلق الحيوان المفترس، ولا شكّ أنّ بينهما تضادّاً وتنازعاً، لكنّه ليس من فعله سبحانه وإنّما هو أمر ينتزعه الإنسان من مقارنة أحدهما بالآخر، ولذلك لا يُعدّ التضادّ ولا عدم التلاؤم نقضاً لقوله سبحانه: (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْء خَلَقَهُ). وقد بسط الحكماء الكلام في هذا المقام عند البحث في الشرور، واستوفينا نحن الكلام في ذلك في محاضراتنا في الإلهيات . لاحظ : الإلهيات: ١ / ٢٧٣ ـ ٢٨٥ .

وأمّا الثاني ـ أي مبدأ خلق الإنسان : فأشار إليه بقوله:(وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِين) والمراد هنا خلق آدم أبي البشر من الطين، ولا صلة لهذه الفقرة بخلق أولاد آدم بشهادة الآية التالية.

٨ . (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَة مِنْ مَاء مَهِين):

والضمير في (نَسْلَهُ) يرجع إلى الإنسان وأُريد بالنسل ذرية آدم، ومعنى الآية: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَة)أي ما ينسل وينفصل من صلب الإنسان، ثمّ فسّره بقوله:(مِنْ مَاء مَهِين) وأُريد به المنيّ، الذي هو مائع تسبح فيه الحيوانات المنوية، ومع ذلك كلّه فهو ضعيف لا يصل إلى الغاية المتوخّاة إلاّ بإمدادات من الله سبحانه.

إلى هنا تبيّن أنّ مبدأ الإنسان هو الطين حيث إنّ الله سبحانه خلق الإنسان من طين، وجعل استمرار نسله عن طريق مائع فيه خلايا حيّة ولكنّها في نفسها ضعيفة لا تشكّل إنساناً إلاّ بعد طيّ مراحل، يتولاّها سبحانه بقدرته ورعايته.

وربّما يفسّر الإنسان في الآية بكلّ إنسان موجود على البسيطة، وأمّا كون الطين مبدأً لخلقته فهو أنّ الطين ماء وتراب مجتمعان، والآدمي أصلة منيّ، والمنيّ من الغذاء والأغذية إمّا نباتية أو حيوانية، والحيوانية ترجع إلى النباتية، والنبات وجوده بالماء والتراب

وهو الطين. تفسير المراغي:٢١/١٠٦.

يلاحظ عليه: أنّه لو أُريد من الآية ما ذكر يستلزم الاستغناء عن قوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) لأنّ ما ذكره ينطبق على تلك الآية.

قال السيد الرضي ـ حول هذه الآية ـ: وهذه استعارة، لأنّ المَهين لا يكون حقيقة إلاّ الإنسان، قال الله تعالى: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ) الزخرف:٥٢، وقال تعالى: (وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ) القلم:١٠.ومَهين فعيل من المَهنة وهي الخدمة، يقال: مَهَن القومَ، يمهنهم مهنة إذا خدمهم، والمِهنة بكسر الميم خطأ، فيكون معنى (مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) على ما قدّمناه أي من ماء مستذلّ، لأنّ ماهِن القوم إذا خدمهم يكون ذليلاً لهم ومبتذلاً بينهم. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٧.

٩. (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ):

ثمّ إنّه سبحانه أجمل بيان خلق الإنسان إلى أن يصير إنساناً كاملاً، بَيْد أنّه ذكر تفصيله في آية أُخرى وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) الحج:٥..

والظاهر أنّ المراد من قوله:(ثُمَّ سَوَّاهُ) هو التصوير أي تصويره على أحسن صورة وجعلها مؤهّلة لنفخ الروح، والشاهد على ذلك أنّه سبحانه عبّر في آية أُخرى عن التسوية بالتصوير، وقال:(وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) الأعراف:١١، (وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)الضمير في (رُوحِهِ)يرجع إلى الله سبحانه، والإضافة تشريفية، فيكون معنى الآية: الله سبحانه خلق الإنسان من الطين، ولأجل بقاء نسله على الأرض جعل نسله وذريته من سلالة أي من شيء ينسل وينفصل عن وجوده وهو عبارة عن ماء مهين، ثمّ سوّاه وأكمل خلقته إلى أن صار لائقاً بنفخ روح شريفة منه إليه.

ثمّ إنّه سبحانه أكمل نعمته على الإنسان، فإنّ الروح الموجودة في الإنسان موجود مجرّد ذاتاً غير مجرّد فعلاً، فهو يحتاج في صلته بالخارج إلى الحواسّ التي يعبّر عنها بأدوات المعرفة، وأشار سبحانه إلى أفضلها وأحسنها وقال: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ) حتى يتمّ اتّصال الإنسان بالخارج، وقد عدل من الغيبة إلى الخطاب في قوله: (وَجَعَلَ لَكُمُ...)لغاية إلفات نظر الإنسان إلى تلك النِّعم العظام.

نعم، هناك نعمٌ أُخرى لم يشر إليها كنعمة البيان وغيرها، لأنّ الآية ليست بصدد بيان التفصيل.

والمتوقّع من الإنسان هو الشكر قبال تلك النِّعم، ولكن الواقع ليس كذلك، كما قال :(قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ): أي تشكرون قليلاً، لأنّ شكر النِّعم هو صرفها في محالّها، وهم كثيراً ما يصرفونها في غير محالّها من المناهي والمحرّمات.

ثبات الأنواع أو تطوّرها

ظهرت عام ١٨٥٩م نظرية تطوّر الأنواع (أو النشوء والارتقاء) التي ترى أنّ الإنسان وكافة الكائنات الحيّة تطورت تدريجياً من أُصول مشتركة خلال الملايين من السنين التّي مرّت عليها. وهذه النظرية على خلاف القول بأصالة الأنواع، وأنّ كلّ كائن حيّ خُلق بطريقة مستقلّة عن غيره، ولم يتحوّل من نوع آخر.

ثمّ إنّ صاحب النظرية عالم الطبيعة الإنجليزي تشارلز داروين (١٨٠٩ـ ١٨٨٢م) بناها على أركان أربعة:

١. قانون التنازع على البقاء أو قانون الصراع.

٢. قانون الانتخاب الطبيعي أو البقاء للأصلح.

٣. قانون الوراثة.

٤. قانون الملاءمة مع البيئة.

وقد شرحنا هذه القوانين التي اعتمد عليها داروين في محاضراتنا التي حرّرها ولدنا الفاضل المحقّق الشيخ جعفر الهادي في كتاب «الله خالق الكون» فمن أراد الوقوف على تفصيل هذه المباحث فليرجع إليه. الله خالق الكون: ٦٦٨ ـ ٦٨١ .

إنّما الكلام فيما يستفاد من القرآن حول نظرية خلق الإنسان، وهل القرآن يؤيّد ثبات الأنواع، وبالأخصّ خلقة الإنسان؟ وأنّه خلق يوم خلق بهذا النحو أو أنّ خلقه رهن تحوّل تدريجي من نوع إلى نوع حتى صار إنساناً؟

أقول: مَن قرأ القرآن الكريم حول خلق أبي البشر آدم يقف على مراحل ثلاث مرّت على خلقه (عليه السلام)ولا صلة لها بالتطوّر الذي يدّعيه أتباع نظرية تطوّر الأنواع، وإليك بيان تلك المراحل الثلاث:

المرحلة الأُولى: التراب المتحوّل
تدلّ الآيات على أنّه مرّت على المرحلة الأُولى التي هي التراب حالات مختلفة، وهي: ١. التراب، قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب). آل عمران:٥٩. ٢. الطين، قال تعالى: (اَلذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْء خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِين).(السجدة:٧.) ٣. الطين اللازب، قال: (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِين لاَزِب). الصافات:١١. ٤. الحمأ المسنون، قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون).(الحجر:٢٦.) ٥. سلالة من طين، قال تعالى:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَة مِنْ طِين). المؤمنون:١٢. ٦. الصلصال، قال تعالى:(خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَال كَالْفَخَّارِ). الرحمن:١٤. هذه هي المرحلة الأُولى من خلقة الإنسان التي تتشكّل من حالات ست.
المرحلة الثانية: مرحلة التصوير
يقول سبحانه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ). الأعراف:١١. فكأنّ قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ) كناية عن المرحلة الأُولى بحالاتها الست، ولذلك أجمل الكلام وعطف عليه التصوير. وفي سورة أُخرى يقول: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ). الحجر٢٨، ٢٩. فعبّر عن التصوير بالتسوية. وأمّا نسبة هذه الأُمور إلى عامّة الإنسان كما هو الظاهر من ضمائر الجمع في قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)، فلأجل أنّ خلق آدم رمز لخلق أولاده، ولذلك نسب ما للوالد إلى الأبناء أيضاً.
المرحلة الثالثة: مرحلة نفخ الروح
تدلّ الآيات على أنّه سبحانه بعد ما سوّى آدم أبا البشر نفخ فيه من روحه، قال تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ). الحجر:٢٩. هذه هي المراحل التي تدلّ عليها الآيات الشريفة وقد عرضناها على وجه الإجمال، وتدلّ الآيات بوضوح على أنّ آدم قد خُلق خلقاً مستقلاًّ، ولا صلة له بسائر الأنواع. ولاشكّ في أنّ ما توصّل إليه علم التشريح المعاصر من وجود فروق هائلة بين الإنسان والحيوانات (بما فيها القردة الّتي هي أقرب الحيوانات شكلاً إليه) يثبت أنّه لا يمكن أن تكون هناك صلة سلفية بين الإنسان الحالي وبين أي حيوان، وهذا ما جعل حقّ التطوّريّن (الّذين جاءوا بعد داروين) ينفون اندراج الإنسان تحت قانون الانتخاب الطبيعي، فيقول عالم الطبيعية الانجليزي والاس (١٨٢٣ ـ ١٩١٣ م) على سبيل المثال إنّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولابدّ من القول بخلقه خلقاً مستقلاًّ.

ويؤكّد ذلك أنّ علماء الأجنّة والأحياء اكتشفوا أنّ كلّ جنس من أجناس الكائنات الحيّة يتكوّن من مجموعة خلايا، وأن نواة كلّ خلية من خلايا الإنسان تتكوّن من (٤٦) كروموسوماً (صبغياً)، وهو عدد ثابت في كلّ خلية من خلايا الإنسان، فإن زاد العدد أو نقص تعرّض الإنسان لخلل عقلي أو اضطراب خَلْقي، كما وجد العلماء أنّ نوى خلايا القرد تتكوّن من (٤٤) كروموسوماً، وهو عدد ثابت أيضاً، وهذه الكروموسومات (الصبغيات) هي الّتي تحدّد النوع، وهي العامل الرئيسي الّذي يحدّد صفات كلّ كائن حيّ.

وقد أثبت علم الأجنّة أنّ عوامل الوراثة تجعل من المستحيل تطوّر نوع إلى نوع آخر، لأنّ هناك عوامل وراثية كامنة في خليّة كلّ نوع، تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتّم أن يظلّ في دائرة النوع الّذي نشأ منه، ولا يخرج قطّ عن نوعه، ولا يتطوّر إلى نوع جديد.

انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٥ / ٣٥٦ .

دليل القائل بتطوّر الأنواع من القرآن

وربّما يستدلّ على النظرية الداروينية ببعض الآيات أوضحها قوله سبحانه: (إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْض وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) آل عمران:٣٣ و ٣٤، وظاهر الآية أنّه سبحانه اصطفى كلاًّ من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران من الناس الموجودين في زمانهم، ولازم ذلك وجود إنسان في زمان آدم أيضاً حتى يتحقّق الاصطفاء بالنسبة إليه بتقديمه عليه، فلو كان آدم أبا البشر ولم يكن ثمّة إنسان قبله فما معنى أنّه اصطفاه؟

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكر مبنيّ على أنّ المراد من العالمين هو الناس الموجودون في عصر كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء، مع أنّ المراد بالعالمين هو كلّ إنسان يظهر على صحيفة الوجود من عصر آدم إلى يوم القيامة، والله سبحانه هو الذي اصطفى هؤلاء منهم.

ويكفي في صدق الاصطفاء في حقّ آدم وجود أقوام بعد عصره إلى يوم القيامة.

هذه هي شجرة وجود آدم أبي البشر، وهي شجرة طيّبة لم تختلط بسائر الأنواع النازلة، وأمّا شجرة أبنائه فقد ذكرها سبحانه بقوله:(ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَة مِّن مَّاء مَّهِين).

وبذلك ظهر أنّه لم يتدخّل في خلق أبناء آدم غير شيء واحد، وصفَه سبحانه بقوله: (مِن مَّاء مَّهِين).

وهنا يجب أن ننوّه إلى وجود أمر نفسي، وهو أنّ القول بتطوّر الأنواع، وأنّ الإنسان كان في بدء وجوده خلية ثم تطوّر إلى نوع بعد نوع حتى أصبح حيواناً ذا قوائم أربع إلى أن تحوّل إلى حيوان ذي قائمتين، كلّ ذلك يورث العقدة في نفس الإنسان حيث يرى أنّ شجرة وجوده حقيرة مهينة، فأي النظريتين أطيب في النفس؟

سورة السجدة: الآيات ١٠ ـ ١٧ (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْق جَدِيد... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

الآيات: العاشرة إلى السابعة عشرة

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْق جَدِيد بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْس هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِني لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُن جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

المفردات

ضَلَلنا: تفرّقت أجزاء أبداننا، قال الراغب: قوله:(أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ)كناية عن الموت واستحالة البدن. المفردات للراغب: ٢٩٨،

مادة «ضلل».

يتوفّاكم: التوفّي: أخذ الشيء على تمامه، يقال: استوفى الدَّين إذا قبضه على كماله.

ناكسوا: النَّكس ـ بالفتح ـ : قلب الشيء على رأسه، يقال: نكس رأسه: طأطأه من ذلّ، والناكس: الرجل المطأطئ رأسه ويقال في

المرض: النُّكس ـ بضم النون ـ .

خرّوا: خرّ: سقط مع صوت.

تتجافى: التجافي: الابتعاد والارتفاع.

جنوبهم: واحدها الجنب، وهو الشِّقّ.

المضاجع: واحدها مضجع، وهو مكان النوم.

أُخفيَ لهم: أي خُبّئ لهم.

قرّة أعين: القُرّة: اسم لما يحصل به الفرح والسرور، يقال: قرّت عينه وتقرّ: سُرّت، قال سبحانه:(كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا). طه:٤٠.

التفسير

كان الموضوع في الآيات السابقة بيان بدء خلق الإنسان، فناسب أن يُشار إلى معاده، وأنّ القادر على إنشائه ابتداءً قادر على إعادته ثانياً، فبدأ بنقل اعتراض منكري المعاد، الذي طرحوه بصورة التعجّب، كما قال:

١٠. (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْق جَدِيد بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ):

جملة:(وَقَالُوا) حالية (أَئِذَا ضَلَلْنَا) أي الحال التي تفرّقت أجزاء أبداننا (فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْق جَدِيد): أي في إنشاء آخر.

وهذا النوع من الاعتراض بلسان التعجّب جاء في آية أُخرى، قال تعالى: (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُل يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّق إِنَّكُمْ لَفِي خَلْق جَدِيد) سبأ:٧، والبيان القرآني يجيب عن استبعادهم بجوابين:

الأوّل:(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)إنّ إنكارهم المعاد ليس مبعثه هذا الاستبعاد والتعجّب، إذ لو كان هذا هو السبب لكفى في رفعه تلك الدلائل الواضحة على سعة قدرة الله سبحانه، فالقادر على الإنشاء ابتداء قادر على الإعادة نهاية، ولكن الباعث على هذا الاستبعاد هو أنّهم غير مؤمنين بلقاء ربّهم يوم القيامة للحساب والجزاء، عناداً ولجاجاً، فصار ذلك سبباً للتشبّث بهذه الشبهة.

قال السيد الرضي ـ حول الآية ـ : «وهذه استعارة لأنّها عبارة عن حال الموت والميت لا يوصف بالضلال الذي هو المتاه والضياع، فكأنّ المعنى إذا دُفنّا في الأرض فكنّا كالشيء الضالّ الضائع لتفرّق أوصالنا وتمزّق أعضائنا تُستأنف بعد هذه الحال إعادتنا وتستجدّ حياتنا؟ كأنّهم قالوا على سبيل الاستبعاد وأخرجوه مخرج الاستطراف والاستغراب، فأعلمهم الله سبحانه أنّهم لا يضلّون عن علمه ولا يلطفون عن جمعه وإن صاروا رميماً وتراباً وفرَقاً وأوزاعاً، وفي عرف كلام العرب أن كلّ شيء غلب عليه حتى يغيّبه باشتماله عليه فقد ضلّ فيه، ويسمّون الدافنين للأموات مضلّين لأنّهم يغيّبونهم في الأرض، قال النابغة الذبياني في ذلك:

فآب مضلّوه بعين جليَّة *** وغودر بالجولان حزم ونائلُ

يريد دافنيه، وحكى الأصمعي أنّه رواه مصلّوه بالصاد وفتحها، والمصلّي الوارد بعد السابق، قال: فكأنّ المعنى أنّ ناعيه الأوّل جاء بنعيه فشكك في قوله، ثم جاء الثاني بجملة الخبر فوقع العلم وارتفع الشكّ، والعين الجليّة الواضح الذي يتجلّى بعد خفائه أو يجلو الشكّ بعد التباسه، وأنشد المخبّل السّعدي يمدح قيس بن عاصم المِنقَري:

أضلّت بنو قيس بن سعد عميدها *** وفارسها في الدهر قيس بن عاصم

أي دفنته في التراب وغيبته في الأرض. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٨٧ ـ ١٨٨.

الثاني: ما سيرد في الآية التالية:

١١. (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ):

يأمر سبحانه النبي بقوله:(قُلْ): أي يا محمّد (يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ): أي يأخذكم الملك الموكّل بقبض أرواحكم كعزرائيل الذي وكّل بقبض روح كلّ ميّت في الوقت المحدّد لانتهاء أجله (ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ): أي ثمّ إلى لقاء ربّكم ترجعون.

إنّما الكلام في تبيين كون مفاد الآية جواباً للشبهة.

بيانه: إنّ أساس الشبهة هو أنّ شخصية الإنسان ببدنه وجسده، فإذا مات وتفرّقت أجزاء بدنه وغاب بعضها عن بعض بالبثّ في أطراف الأرض فكيف يمكن إعادة هذا الشخص؟ فجاء الوحي مبطلاً لهذا الزعم بأن تشخّص الإنسان وواقعه ليس هو البدن المتفرّق، بل تشخّصه بنفسه وروحه الذي يأخذه ملك الموت وهو محفوظ عندنا بشهادة قوله: (ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) وعلى هذا فما ظلّ من الجسد وأجزائه بعد الموت ليس واقعَ الإنسان؛ وذلك لأنّ الروح في بدء وجوده ليس مجرداً تاماً غنيّاً عن البدن في تكامله وإنّما يتكامل شيئاً فشيئاً بالانتفاع بالنعم المادّية، ولا يتحقّق ذلك إلاّ إذا كان مع البدن، فلو ضلّ فإنما ضلّ وسيلة من وسائل حياته الدنيوية، بعد الاستغناء عنه، فلا يضرّ ضلاله وتفرّقه في الأرض لكفاية بقاء نفسه وروحه عند الحشر، وأمّا ما هو الأصل فمحفوظ عندنا، وعلى ذلك فلو تجسّدت الروح في أي جسد وبدن فهو نفسُ ذلك الشخص، سواء أكان ذلك الجسد نفس البدن المتفرّق أم غيره، مضافاً إلى أنّهم ما قدروا الله حقّ قدره، فالله سبحانه هو القادر، العارف بأجزاء بدن كلّ إنسان مات، فيجمعها ويتشكّل منها بدنه.

والآية من أظهر الأدلّة على أنّ واقع الإنسان هو روحه ونفسه المجرّدة، فإذا مات وصار جسده كالجماد، فالروح تؤخذ من قبل ملك من ملائكة الله وهي محفوظة إلى يوم القيامة، فإذا شاءت إرادته سبحانه إعادة الإنسان يوم البعث، تحرّكت الأجزاء المتفرّقة المبعثرة في الأرض إلى تلك النفس المجرّدة ويتعارفان، فيكون المُعاد هو نفس المبتدى بأمر الله تعالى.

برهان تجريبي على تجرّد الروح

ثم إنّ الشيخ الرئيس ابن سينا(المتوفّى ٤٢٨هـ) أقام برهاناً تجريبياً على تجرّد الروح، وحاصل البرهان: علم الإنسان بنفسه مع الغفلة عن بدنه.

توضيحه: أنّ الإنسان قد يغفل في ظروف خاصّة عن كلّ شيء.. عن بدنه وأعضائه، مع أنّه لا يغفل عن نفسه وواقعه.

وبتوضيح أكثر: إفرض نفسك في حديقة زاهرة غنّاء، وأنت مستلق لا تُبصرُ أطرافَك ولا تتنبّه إلى شيء، ولا تتلامس أعضاؤك، لئلاّ تحسّ بها، بل تكون منفرجة، ومرتخية في هواء طلق، لا تحسّ فيه بكيفية غريبة من حرٍّ أو برد أو ما شابه، ممّا هو خارج عن بدنك؛ فإنّك في مثل هذه الحالة تغفل عن كلّ شيء حتّى عن أعضائك الظاهرة، وقواك الداخلية، فضلاً عن الأشياء الّتي حولك، إلاّ عن ذاتك، فلو كانت الروح نفس بدنك وأعضائك وجوارحك وجوانحك، للزم أن تغفل عن نفسك إذا غفلت عنها، والتجربة أثبتت خلافه.

وبكلمة مختصرة: «المغفول عنه، غير اللامغفول عنه». وبهذا يكون إدراك الإنسان نفسه من أوّل الإدراكات وأوضحها.

وللفلاسفة الإلهيّين براهين مختلفة أقاموها على تجرّد الروح، ونحن نذكر منها برهانين:

***

البرهان الأوّل: ثبات الشخصية في دوّامة التغيّرات الجسدية
هذا البرهان يتألّف من مقدّمتين: الأُولى: أنّ هناك موجوداً تنسب إليه جميع الأفعال الصادرة عن الإنسان ذهنية كانت أو بدنية، ولهذا الموجود حقيقة وواقعية يشار إليها بكلمة (أنا). الثانية: أنّ هذه الحقيقة الّتي تُعدّ مصدراً لأفعال الإنسان ثابتة وباقية ومستمرة في مهبّ التغييرات، وهذا آية التجرّد. توضيحه: أمّا المقدّمة الأُولى، فلا تحتاج إلى بحث كثير، لأنّ كلّ واحد ينسبُ أعضاءه إلى نفسه ويقول: يدي، رجلي، عيني، أُذني، قلبي،... كما ينسب أفعاله إليها، ويقول: قرأت، كتبت، أردت، أحببت، وهذا ممّا يتساوى فيه الإلهي والمادّي ولا ينكره أحد، وهو بقوله: «أنا» و «نفسي»، يحكي عن حقيقة من الحقائق الكونية، غير أنّ اشتغاله بالأعمال الجسمية، يصرفه عن التعمّق في أمر هذا المصدر والمبدأ، وربّما يتخيّل أنّه هو البدن، ولكنّه سرعان ما يرجع عنه إذا أمعن قليلاً حتّى أنّه ينسب مجموع بدنه إلى تلك النفس المعبّر عنها بـ «أنا». وأمّا المقدّمة الثانية، فكلّ واحد منّا يحسّ بأنّ نفسه باقية ثابتة في دوّامة التغيّرات والتحوّلات الّتي تطرأ على جسمه، فمع أنّه يتّصف تارة بالطفولة، وأُخرى بالصبا، وثالثة بالشباب، وأخيراً بالكهولة، إلاّ أنّه يبقى هناك شيء واحد تسند إليه جميع هذه الحالات، فيقول: أنا الّذي كنت طفلاً، ثم صرت صبياً، فشاباً، فكهلاً، وكلّ إنسان يحسّ بأنّ في ذاته حقيقة باقية وثابتة رغم تغيّر الأحوال وتصرّم الأزمنة، فلو كانت تلك الحقيقة الّتي يحمل عليها تلك الصفات أمراً مادّياً، مشمولاً لِسُنّة التغيّر والتبدّل، لم يصحّ حمل تلك الصفات على شيء واحد، حتّى يقول: أنا الّذي كتبت هذا الخط يوم كنت صبياً أو شاباً، فلولا وجود شيء ثابت ومستمر إلى زمان النطق، للزم كذب القضية، وعدم صحّتها، لأنّ الشخصية الّتي كانت في أيام الصبا، قد زالت ـ على هذا الفرض ـ وحدثت بعدها شخصية أُخرى. لقد أثبت العلم أنّ التغيّر والتحوّل من الآثار اللازمة للموجودات المادّية، فلا تنفك الخلايا الّتي يتكوّن منها الجسم البشري، عن التغيّر والتبدّل، فهي كالنهر الجاري تخضع لعملية تغيير مستمر، ولا يمضي على الجسم زمن إلاّ وقد حلّت الخلايا الجديدة مكان القديمة. وقد حسب العلماء معدّل هذا التجدّد، فظهر لهم أنّ التبدّل يحدث بصورة شاملة في البدن، مرّة كلّ عشر سنين. وعلى هذا، فعملية فناء الجسم المادّي الظاهري مستمرة، ولكن الإنسان، في الداخل (أنا)، لا يتغيّر. ولو كانت حقيقة الإنسان هي نفس هذه الخلايا لوجب أن يكون الإحساس بحضور «أنا» في جميع الحالات أمراً باطلاً، وإحساساً خاطئاً. وحاصل هذا البرهان عبارة عن كلمتين: وحدة الموضوع لجميع المحمولات، وثباته في دوّامة التحوّلات. وهذا على جانب النقيض من كونه مادّياً.

البرهان الثاني: امتناع انطباع الكبير في الصغير
لا شكّ أنّ كلّ واحد منّا يدرك صور الموجودات العظيمة ويتصوّرها بما لها من الحجم والمقدار، فلو كانت حقيقة الإدراك ممحّضة في انطباع الصور على المخّ والأعصاب، وجب أن يكون هذا العالم الكبير بسمائه وأرضه وشمسه وقمره وبحاره ومدنه وبساتينه قد تمركز في صفحة الدماغ ومواضع الإدراك التي لا تزيد على عدة سنتيمترات قال صدر المتألّهين: ومحلّ هذه الصور يمتنع أن يكون شيئاً جسمانياً، فإنّ جملة بدننا بالنسبة إلى الصور المتخيّلة لنا قليل من كثير، فكيف تنطبق الصور العظيمة على المقدار الصغير، وليس يمكن أن يقال: إنّ بعض تلك الصور منطبعة في أبداننا، وبعضها في الهواء المحيط بنا، إذ الهواء ليس من جملة أبداننا ولا هو آلة لنفوسنا في أفعالها، فبما أنّ محلّ هذه الصور أمر غير جسماني وهو النفس الناطقة، فقد ثبت تجرّد النفس عن كونها شيئاً مادّياً. وهذا البرهان منقول عن الحكيم اليوناني «أفلاطون».

(الأسفار لصدر المتألّهين : ٤٧٩/٣).، فكيف يسع دماغنا الصغير الحجم صور هذه الأشياء العظيمة، والآفاق الرحبة الواسعة؟ وكيف توجد صور هذه الأشياء الكبيرة جدّاً في تلك المساحة الصغيرة الّتي يتألف منها الدماغ المدرك للأشياء؟!

إنّ المادّي عندما وقف على هذا البرهان وعرف بوجدانه أنّ الصور الكبيرة لا يمكن أن تنطبق على جسم صغير، دافع عن معتقده بقوله: إنّ الصور الكبيرة لم تكن في أوّل إدراكها صوراً كبيرة خارجة عن مقدار المخّ وحجمه ولكنّ التفاعلات داخل المخّ هي الّتي أدّت إلى تكبير الصورة بعد ذلك .

إنّنا لا ننكر ـ كما أسلفنا ـ دور العلل الطبيعية للإبصار، ولا التفاعلات التي تنتهي إلى تكبير تلك الصور في الذهن، ولكن هذا لا يرفع الإشكال، وهو كيف يمكن أن تنطبق الصور العظيمة بعد تكبيرها ملايين المرّات أكثر من المخّ على هذا الجهاز الصغير؟! وأين محلّ هذه الصور الكبيرة، بعد التفاعلات الفيزياوية والكيماوية داخل المخّ؟!

هل يمكن أن يتمّ ذلك إذا كان لهذه الصور واقعاً مادّياً؟

ألا يدلّ ذلك على أنّها موجودات مجرّدة لا تشغل حيّزاً كما هو الحال في المادّة، ولذلك تقوم بالذهن حتّى إذا كان حجمها أكبر من المخّ؟

أجل إنّ الإلهي يعتقد بأنّ هذه الصور الّتي يُسمّيها بالمعقولات أو الصور العلمية أُمور مجرّدة عن المادّة. وبعبارة أُخرى أدقّ: لها تجرّد برزخي، أي أنّ لها طولاً وعرضاً وعمقاً دون أن يكون لها جِرم وثقل.

وهذه الصور موجودة بوجود النفس قائمة بها في عالم يناسبها، وهو عالم التجرّد .

وقد اقتصرنا في بيان تجرّد النفس على هذين البرهانين المشرقين، وإلاّ فالبراهين الفلسفية أكثر من ذلك، وقد أوردنا قسماً منها في بحوثنا الفلسفية. لاحظ: الله خالق الكون: ٤٥٠، والأُصول الفلسفية للسيد الطباطبائي بتعريب منّا.

***

بقي هنا شيء وهو أنّه سبحانه تارة ينسب أخذ الروح إلى ملك خاص ـ كما في الآية، حيث قال: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ) ـ وأُخرى إلى الملائكة بصورة الجمع، قال: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) النحل:٢٨.، وثالثة إلى الله تعالى نفسه، كما يقول:(اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) الزمر:٤٢.، أمّا وجه الجمع بين الملك والملائكة حيث إنّ لملك الموت أعواناً يأخذون الأرواح، فصحّت النسبة إلى الملك والملائكة، وأمّا نسبته إلى الله ، فلأنّ الجميع جنود الله تبارك وتعالى، قال تعالى: (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). التحريم:٦.

١٢. (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ):

لمّا ذكر إنكار جاحدي المعاد واستبعادهم كما ذكر الجواب عنه، ناسب أن يصف حال المنكرين يوم المَعاد، وأنّ هؤلاء إذا بعثوا يوم القيامة ورأوا بأُمّ أعينهم مصيرهم السيّئ، ندموا على إنكارهم وأعمالهم، على نحو يُرَون فيه مطأطئي الرؤوس ذلّة وخزياً وندماً، كما يقول:(وَلَوْ تَرى) يا رسول الله (إِذِ الْمُجْرِمُونَ)المنكرون للمعاد المفسدون في الأرض بزعم أنّه لا حساب ولا كتاب (نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ): أي عند سلطة ربّهم، وهم لا يرون لأنفسهم مخلصاً ولا خروجاً عن المحشر فيلتجأون إلى الله قائلين: (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا)الرُّشد (وَسَمِعْنَا) الحقّ، وقد كنّا صمّاً وعمياناً في الحياة الدنيا (فَارْجِعْنَا) إلى الدنيا (نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) لا نرتاب أبداً في أنّ البعث حقٌّ.

وقد جاء هذا المضمون في آية أُخرى، قال سبحانه حاكياً عن المجرمين:(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الشعراء:١٠٢. .

ويظهر من بعض الآيات أنّ قسماً من الكافرين تطغى عليهم الندامة حتى عند الموت ويتمنّون الرجوع، يقول سبحانه: (حَتَّى إِذَا

جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِي مَا تَرَكْتُ).(المؤمنون:٩٩ و١٠٠)

لكنّه سبحانه لا يستجيب دعاءهم لأنّه جلّت حكمته، قضى بأن تكون الدنيا دار عمل، والآخرة دار حساب وجزاء، أو كما قال أمير المؤمنين(عليه السلام):«وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ، وَلاَ عَمَلَ» نهج البلاغة: الخطبة ٤٢. كما أنّه سبحانه أتمّ عليهم الحجّة بإرسال الأنبياء والرسل، وبإعطائهم الفرصة الكافية في الدنيا لأن يعرفوا ربّهم، ويعملوا فيها بما يرضيه، كما قال سبحانه:(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) فاطر:٣٧..

ثمّ إنّ هؤلاء المجرمين كاذبون في وعدهم بإصلاح عملهم، لخبث سرائرهم وخلوّ نفوسهم من عناصر الخير والصلاح، ولذا علم الله تعالى أنّهم لو رجعوا إلى الدنيا ـ على سبيل الفرض ـ لعادوا إلى الضلال واجتراح السيئات، كما يقول: (وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) الأنعام:٢٨..

١٣. (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْس هُدَاهَا وَلَـكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ):

ولمّا كانت هنا مظنة سؤال، وهو أنّه سبحانه لماذا لم يهدِ هؤلاء هداية تسوقهم قهراً إلى الاعتراف بالتوحيد والمعاد وتصدّهم عن المعاصي والمحرّمات؟ أجاب عنه بقوله سبحانه:(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْس هُدَاهَا): أي لم يكن كفر هؤلاء عن عجز منّا ولو شئنا لهدينا كلّ إنسان إلى الحقّ ولكن لم نشأ، وما ذلك إلاّ لأنّ الإنسان خُلق خليفة لله في أرضه فيحكي بفعله وأعماله أسماء الله سبحانه وصفاته حتى يكون مصداقاً حقيقياً للخلافة عن الله ، يقول سبحانه:(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) هود:٦١. فكلّف الإنسان إعمار الأرض لينهض بمسؤولية الخلافة فيها عن الله سبحانه. ومن المعلوم أنّ اللائق بهذه الخلافة هو من آمن بالله ورسوله وعمل بشرائعه عن علم ووعي وعن اختيار وانتخاب، وإلاّ فالعامل بلا اختيار بل بجبر من الخارج لا يُقام له وزن ولا قيمة ولا يوصف بفضل وفضيلة، ولأجل ذلك خلَق الإنسان وجعله مخيّراً بين الهداية والضلالة:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا) الإنسان:٣، ولهذا يقول:(وَلَـكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ): أي ثبت وسبق قضائي عندما قال إبليس: (لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ص: ٨٢ ـ ٨٣ . أنّني سأجعل النار قراراً لمن انقاد لإغوائه وعصى وأفسد، كما حكى سبحانه ذلك في جوابه لإبليس(قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) ص: ٨٤ ـ ٨٥ . فصار ذلك سبباً لجزائهم حسب ما عملوا، كما يقول:

١٤. (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

قوله: (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ) جواب لطلبهم:(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا) والشاهد على ذلك وجود الفاء في قوله: (فَذُوقُوا). ثمّ إنّه سبحانه يخاطبهم بقوله: (إِنَّا نَسِينَاكُمْ)، ومن المعلوم أنّ النسيان ممتنع على الله سبحانه، إذ هو من صفات الممكن، فالفقرة محمولة على المشاكلة، فبما أنّ المجرمين نسوا الله وآياته بتركهم طاعته وانهماكهم في الشهوات واقتراف الآثام، فإنّهم جوزوا على ذلك بالحرمان من رحمته ومن نعيمه، فعبّر عن الجزاء بنسيان الله إياهم مشاكلة المشاكَلَة: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. أمّا تحقيقاً، فمثل الفقرة من الآية التي نحن بصددها، ومثل قوله سبحانه: (وَجَزَاءُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) فإنّ اللفظة الثانية لكونها حقّ لا تكون سيئة، ولكن لمّا وقعت في صحبة الأُولى، صحّ التعبير عنها بالسيئة. وأمّا تقديراً، فمثل قوله: (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) فالمراد من قوله:(صِبْغَةَ اللهِ) تطهير الإنسان، لأنّ الإيمان يطهّر النفوس. راجع كتابنا: تهذيب البلاغة:٢٤٨.، وذلك لأنّ الناسي لا يظهر منه شيء ينتفع به الطالب.

١٥. (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ):

لمّا تضمّنت الآيات السابقة أقوال المجرمين وأفعالهم من الاعتراض على البعث وإحياء الموتى ومن ثمّ نسيان الله وآياته، ناسب أن

يذكر سبحانه حال المؤمنين كما هو الأُسلوب الرائج في الذكر الحكيم، إذ كلّما يذكر شيئاً عن حال المجرمين والكافرين ومآلهم، يتطرّق إلى حال المؤمنين ومصيرهم، فذكر سبحانه في آيتنا هذه خصائص المؤمنين فقال:(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) التشريعية أو الكونية، ولعلّ الأرجح هو الوجه الأوّل، بقرينة قوله:(الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا): أي بالآيات فهي قرينة على أنّ المراد بالآيات ما جاء في القرآن المجيد، فالمؤمنون هم الذين إذا تُليت عليهم آيات الله يقومون بالأُمور التالية:

١. (خَرُّوا سُجَّدًا) قال الراغب: فاستعمال الخرّ تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط، وحصول الصوت منهم بالتسبيح.

ولكن الظاهر أنّ الصوت أيضاً ناشئ من السقوط بشهادة أنّه يذكر التسبيح بعده.

٢. (وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ): أي ينزّهون الربّ عن طريق تحميده، فإنّ الحمد هو الثناء على الجميل وهو يلازم التنزيه. وقد أُشير إلى هذا الأمر في آية أُخرى قال سبحانه: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكِيًّا) مريم:٥٨.

ولعلّ المراد من الآيات القرآنية ما يرجع إلى توحيده سبحانه وصفاته وما بشّر به عباده المؤمنين من الجنة، وأنذر المجرمين من نار الجحيم.

٣. (وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ): أي يتواضعون. والتعبير بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والشاهد على تواضعهم هو سجودهم عند ذكر آيات الله تعالى.

إلى هنا تمّت الصفات التي يتحلّى بها المؤمنون، وأمّا أفعالهم الجميلة التي يُعرفون بها، فذكر منها أُموراً ثلاثة وهي ما في قوله:

١٦. (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ):

٤. (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ): أي يبتعدون عن الفراش ويقومون عنه، ويهرعون إلى الصلاة.

وربّما يفسّر بالذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة، روي عن أنس: أنّ الآية نزلت فينا معاشر الأنصار كنّا نصلّي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلّي العشاء الآخرة مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مجمع البيان:١١٩/٨. ، ولكن الظاهر هم الذين يقومون عن مضاجعهم لصلاة الليل بقرينة ما سيأتي من قوله:(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا)فإنّ هذه الحالة أي دعاء الله سبحانه لأجل هذين العملين يناسب العبادة في غسق الليل منفرداً عن سائر الناس. ويؤيّد ذلك أيضاً ما ورد عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام).

روى علي بن إبراهيم بإسناده عن عاصم بن حُميد]الحنّاط[عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) قال: «ما من عمل حسن يعمله العبد إلاّ وله ثواب في القرآن، إلاّ صلاة الليل، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يبيّن ثوابها لعظيم خطرها عنده، فقال: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ). تفسير القمّي:١٤٦/٢؛ تفسير نور الثقلين:٢٢٦/٤.

وروى الواحدي بإسناده عن معاذ بن جبل قال: بينا نحن مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك، وقد أصابنا الحر فتفرّق القوم، فإذا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أقربهم منّي فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله ، أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدّي الزكاة المفروضة، وتصوم شهر رمضان»، قال: «وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير» قال: قلت: أجل يا رسول الله ، قال: «الصوم جُنّة، والصدقة تكفّر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله ، ثمّ قرأ(صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ). نقله الطبرسي في مجمع البيان:١١٨/٨ـ ١١٩. وانظر: سنن الترمذي:٧٢٣، برقم ٢٦٢٥، تحقيق صدقي جميل العطّار.

حكى سيدنا الأُستاذ الطباطبائي رضوان الله عليه عن أُستاذه السيد علي القاضي الطباطبائي العارف الواصل، أنّه كان يقول: كلّما تطلب من الله سبحانه اطلبه بصلاة الليل وعليكم بها وفيها كلّ ما تطلبون.

٥. (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا): أي يدعون ربّهم خوفاً من عذاب الله وطمعاً في رحمته سبحانه، وهذا أيضاً من صفات المؤمنين،

فإنّ الخوف من عذاب الله أو الطمع في رحمته نابع من الإيمان بأنّه سبحانه أرحم الراحمين «في موضع العفو والرحمة وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة»، فصاحب هذا المقام اكتسب درجة عالية من الإيمان وإن لم يصل إلى أسماها، وقد نقل عن بعض الأعلام أنّه قال: «إنّ من يعبد الله سبحانه خوفاً وطمعاً ضعيف الولاية،بشهادة أنّه لا يريد إلاّ مصلحة نفسه»، فلابدّ أن يحمل على أنّه لم يبلغ درجة عالية من درجات الولاية الواردة في كلام الإمام علي(عليه السلام)الآتي، ولكنّها في حدّ نفسها درجة ممتازة قد ورد المدح بها في هذه الآية وآيات أُخرى، قال سبحانه: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ). الأنبياء:٩٠.مع أنّ ما ذكرناه من البيان لا يتمّ في مورد النبيّين، أعني: زكريا وابنه يحي الواردين في الآية.

وأمّا ما روي عن الإمام علي(عليه السلام) أنّه قال: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الاْحْرَارِ»، نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٢٣٧.وقريب من ذلك ما رواه الصدوق في غير واحد من كتبه عن الإمام الصادق(عليه السلام). لاحظ: الوسائل:١، الباب٩٠ من أبواب مقدمات العبادة، الحديث٢.

أقول: بما أنّه سبحانه وصف الأنبياء العظام بأنّهم يعبدون الله رغباً ورهباً فلابدّ من حمل تلك الروايات على أنّها في درجة ثانية من الإخلاص في العبادة، وأمّا الدرجة الأُولى فهي عبادة الأحرار التي نسب إلى علي(عليه السلام) أنّه قال:«إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك، ولا طمعاً في ثوابك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك». بحار الأنوار:٤١/١٤، عن ابن ميثم في شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين (عليه السلام): ٢١٩.

طوبى لمن قام في كلّ ليلة، مرتعدة فرائصه، مضيئاً قلبه بنور الصلاة، يناجي ربه في ليلة ظلماء لا يراه فيها أحد ولا يرى أحداً إلاّ نوره سبحانه وجلاله، فيكون عمله خالصاً لله سبحانه، وقد حثّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)والأئمّة(عليهم السلام)على قيام الليل، وبيّنوا ما يتفضّل به سبحانه على القائمين فيه من عظيم الأجر والمكافأة، ومن ذلك ما رواه أبو أُمامة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: «عليكم بقيام الليل فإنّه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربّكم، ومَكْفَرَة للسيّئات، ومنهاة للإثم». سنن الترمذي:١٠١٨، ذيل الحديث:٣٥٦٠.

وقال الإمام علي(عليه السلام) في وصف المتقين: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لاِجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلا. يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ يَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

وروي عن الإمام علي بن الحسين، زين العابدين(عليه السلام) دعاء، كان يدعو به في صلاة الليل، أوّله: «اللّهمّ يا ذا المُلك المُتأبِّد بالخلود، والسُّلطانِ المُمتَنِع بغير جنود ولا أعوان...»، ويقول فيه: «فهذا مقامُ العائذِ بكَ، ومَحَلُّ المعترفِ لك، فلا يَضيقَنَّ عنّي فضلُك، ولا يَقصُرَنّ دوني عفوُك، ولا أكنْ أخيَبَ عبادِكَ التائبين، ولا أقنَطَ وفودِكَ الآملين، واغفر لي إنَّك خيرُ الغافرين». الصحيفة السجادية:١٦٨، برقم ٨٨ (الدعاء بعد الفراغ من صلاة الليل).

٦. (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقال سبحانه في موضع آخر: (وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ) الذاريات:١٩.، وفي آية ثالثة قال تعالى: (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَل قَرِيب فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ). المنافقون:١٠.

فدلّت الآيات على أنّ من صفاتهم السجود عند سماع آيات الله تعالى وتسبيحه وحمده، ومن أفعالهم هجران النوم والتوجّه إلى الله سبحانه خوفاً وطمعاً، والإنفاق في سُبُل البِرّ والخير.

بقي هنا سؤال وهو أنّه سبحانه ابتدأ الآية بقوله: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا...)فلو كانت الآية في مقام الحصر، فهل

معنى ذلك أنّ من لم يخرّ ساجداً عند التذكير بآيات الله ليس بمؤمن؟ والجواب: أنّ الآية بصدد بيان المرتبة الكاملة من الإيمان، كما هو واضح.

١٧. (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

لمّا ذكر سبحانه جزاء المجرمين بقوله: (وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ناسب أن يذكر جزاء المؤمنين، وهو ممّا لا يعلم حقيقته أحد غيره جلّ شأنه، كما قال: (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) إذ ليس لما أعدّه الله سبحانه من نعم للمؤمنين نظير في الدنيا ولا شبيه حتى يتعرّفوا عليه من خلال ذلك، ولذلك روي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «قال الله تعالى:

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» مجمع البيان:٨/١١٩. فإنّ الحقائق الأُخروية أسمى وأعلى من أن يقف الإنسان على كُنهها وأوصافها، وإنّما نتعرف عليها بشيء يوصلنا إلى حسنها وجمالها لا إلى حقيقتها. وهذه النعم تُعدّ (جَزَاءً)لهم (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الطاعات وصالح الأعمال.

وهناك سؤال يُطرح، وهو أنّه سبحانه لماذا أخفى هذه النّعم؟ والوجه ما ذكرنا من أنّ الحقائق الأُخروية أسمى وأعلى من أن يقف عليها الإنسان قبل أن يخرق الحجب، ومع ذلك كلّه فقد نقل الطبرسي عن بعضهم وجوهاً في فائدة الإخفاء، قال:

أحدها: أنّ الشيء إذا عظم خطره، وجلّ قدره، لا تستدرك صفاته على كنهه إلاّ بشرح طويل، ومع ذلك فيكون إبهامه أبلغ.

وثانيها: أنّ قرّة العيون غير متناهية، فلا يمكن إحاطة العلم بتفاصيلها.

وثالثها: أنّه جعل ذلك في مقابلة صلاة الليل، وهي خفية، فكذلك ما بإزائها من جزائها. مجمع البيان:٨/١٢٠.

سورة السجدة: الآيات ١٨ ـ ٢٢ (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ ... إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ).

الآيات: الثامنة عشرة إلى الثانية والعشرين

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ).

المفردات

فاسقاً:يقال: فسَقَ الرُّطب أي خرج عن قشره، ومن هنا يقال: فسق فلان أي خرج عن حجر الشرع وهو يشمل الكافر وغيره.

المأوى: المكان الذي يُؤوى ويُرجَع إليه، ويطلق على البيت لأنّ الإنسان يرجع إليه بعد الفراغ من العمل.

نُزُلاً: النُّزُل: ما يُعدّ للنازل (الضيف) من الطعام والشراب.

الأدنى: الأقرب.

منتقمون: النقمة: العقوبة.

التفسير

١٨. (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ):

لمّا تقدّم ذكر المجرمين ومصيرهم ثمّ المؤمنين وما أُعدّ لهم من قرّة أعين، جاءت الآية لنفي أي موازنة بين الطائفتين وقالت: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا) فبينهما بَون بعيد، فأين المعتقد بالله سبحانه وصفاته وأنبيائه ورسله، الملتزم بالمنهج

الإلهي في حياته، من الفاسق المنكر لصفات الله ورسله وشرائعه التابع لهواه في حياته؟!(لاَ يَسْتَوُونَ)عند الله .

وممّا يجدر ذكره أنّه أخرج غير واحد من المفسّرين وغيرهم أنّ الآية نزلت في الإمام عليّ(عليه السلام) والوليد بن عقبة بن أبي معيط فيما شجر بينهما، أخرج الطبري في تفسيره بإسناده عن عطاء بن يسار قال: كان بين الوليد وعليّ كلام، فقال الوليد بن عقبة: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، وأردّ منك للكتيبة.

فقال علي(عليه السلام): «اسكت، فإنّك فاسق».

فأنزل الله فيهما: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ). تفسير الطبري(جامع البيان): مج ١١/١٢٩ برقم ٢٨٢٦٥.

قال العلاّمة الأميني: وأخرجه الواحدي من طريق ابن عبّاس في أسباب النزول، أسباب النزول:٢٣٥. والخوارزمي في المناقب (المناقب :٢٧٩، الحديث٢٧١)، والكنجي في الكفاية، كفاية الطالب:١٤٠، الباب٣١.والنيسابوري في تفسيره، غرائب القرآن:١٦٠/٩.وابن كثير في تفسيره، تفسير القرآن العظيم:٤٦٢/٣.والزرندي في نظم درر السمطين. نظم درر السمطين:٩٢، ولاحظ : الغدير: ٨٣/٢ .

وأورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» من طريق ابن أبي ليلى، عن الحكم، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، وقال: إسناده قويّ. سير أعلام النبلاء:٤١٥/٣، ترجمة الوليد بن عُقبة(٦٧).

ومن العجب أنّ ابن عاشور ذكر في تفسيره في صدر السورة أنّه قيل: إنّ الآية نزلت يوم بدر في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة، وسيأتي إبطاله. ولكنّه عندما وصل في تفسيره إلى هذه الآية لم يذكر شيئاً من سبب النزول ولا من غيره. التحرير والتنوير:١٦٢/٢١.

حتى أنّ حسّان شاعر عهد الرسالة أودعه في شعره وقال:

أنزل الله والكتاب عزيزٌ *** في عليٍّ وفي الوليد قُرانا

فتبوّا الوليد من ذاكَ فِسْقاً *** وعليٌّ مبوٌّأ إيمانا

ليس من كان مؤمناً عَرفَ الله *** كمن كان فاسقاً خوّانا

فعليٌّ يلقى لدى الله عزّاً *** ووليدٌ يلقى هناك هواناً

سوف يُجزى الوليدُ خزياً وناراً *** وعليٌّ لا شكَّ يُجزى جِنانا[٣]

[٣]تذكرة الخواص لابن الجوزي:٢٠٢؛ الغدير:٢/ ٨١ ـ ٨٢ . وانظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٩٢/٦ ـ ٢٩٣.

وسيأتي عند تفسير قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) الحجرات:٦.، أنّ المراد بهذا الفاسق ـ كما هو مشهور بين المؤرّخين والمفسّرين ـ هو الوليد بن عقبة، وإذا كان القرآن الكريم قد دمغه بالفسق، فلا يُعبأ بقول مَن يحاول أن يدرأ عنه هذا الوصف بمعاذير واهية، كما فعل محمد عزّة دروزة في كتابه: التفسير الحديث:٣٥٢/٥، والدكتور حجازي. في كتابه: التفسير الواضح:٥٨/٣.

١٩. (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

جاءت هذه الآية والآية التالية لبيان عدم تساوي الطائفتين في المصير، أمّا المؤمن فمصيره ما يذكره سبحانه بقوله: (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، (فَـ)أُولئك(لَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى) التي فيها المساكن والغرف العالية، وغيرها من النّعم، كلّ ذلك (نُزُلاً): أي للضيافة والكرم (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي بسبب ما قدّموه من صالح الأعمال.

ويحتمل أن يراد من قوله: (نُزُلاً): أي منزلاً ومسكناً.

قال السيد الرضيّ ـ حول هذه الآية ـ :إنّ هذه اللفظة (نُزُلاً) عند عامّة المفسّرين بمعنى المنزل والنزول، فكأنّه تعالى قال: كانت لهم جنان الفردوس منزلاً ينزلونه وقراراً يستوطنونه، فلمّا بلغنا إلى هذا الموضع من هذه السورة نظرنا فإذا لهذه اللفظة مجاز آخر

يُدخلها في حيّز الاستعارة فذكرناها لهذه العلّة، وهو أنّ لفظ النُّزُل عند بعضهم قد عبّر به عمّا يُقرى به الضيف عند طروقه ويُعدّ له قبل نزوله، فيجوز أن يكون معنى قوله تعالى:(فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي قِرىً معدّاً كما يُقرى الضيوف، لأنّهم ضِيفان الله تعالى في جنّاته، وجيرانه في داره... تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٨٨ـ١٨٩ .

هذا كلّه حول جزاء المؤمن ومصيره، وأمّا جزاء الفاسق ومآله فيقول عنهما سبحانه:

٢٠. (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ):

قوله:(وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا): أي خرجوا عن طريق الإيمان (فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) في مقابل المؤمنين، فإنّ مأواهم هو الجنّات. وبما أنّهم كتب عليهم الخلود فيها فهم يحاولون التخلّص من مأواهم كما يقول:(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) وفي موضع آخر يقول سبحانه: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ).(الحج:٢٢.)

قوله: (وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)تأنيباً وتقريعاً.

ثمّ أقسم سبحانه أنّه قد أعدّ للفاسقين عذابين:

عذاباً أدنى وهو عذاب الدنيا، وعذاباً أكبر وهو عذاب الآخرة، ويقول:

٢١.(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ):

قوله: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ): أي الكفّار والعصاة (مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى): أي بعض العذاب الأدنى من مصائب الدنيا وآفاتها، وذلك لطف من الله سبحانه لغاية رجوعهم، ونؤخّر العذاب الآخر، كما يقول: (دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ)، أمّا إذاقة العذاب الأقرب في الدنيا لغاية رجوعهم عن ضلالهم وعصيانهم كما يقول: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)فمن المحتمل أن يراد به ما أصاب قريشاً في بدر وأُحد أو السِّنين التي أصابتهم. وإذا كان المعنيّ به مطلق العصاة الفاسقين فيراد به الآفات والبلايا. وأمّا تأخير العذاب الأكبر فلأنّ موطنه الحياة الأُخروية.

ثمّ إنّ مقتضى المقابلة أن يوصف العذابان بالأدنى والأبعد لا بالأدنى والأكبر، فما الوجه في ذلك؟

يقول السيد الطباطبائي(رحمه الله): سُمّي عذاب الدنيا أدنى ولم يقل: الأصغر، حتى يقابل الأكبر، لأنّ المقام مقام الإنذار والتخويف ولا يناسبه عدّ العذاب أصغر، وكذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى، لعدم ملاءمته مقام التخويف. الميزان في تفسير القرآن:١٦/٢٦٤.

٢٢. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ):

لمّا تقدّم بيان صفة المؤمن وأنّه إذا ذُكّر بآيات الله خرّ ساجداً، ذكر في هذه الآية من يقابله وقال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ) فمكان أن يفتح، هذا الذي تُعرض عليه آيات ربّه، قلبه لها ويخرّ ساجداً، تراه يُعرض عن تلك الآيات كبراً وعناداً، ويتصامم عنها كأن لم يسمعها فهو قد ظلم نفسه أوّلاً بحرمانها من الانتفاع بهذا التذكير الذي يقوده إلى الهدى والخير، وظلم الرسول ثانياً، حيث إنّ إعراضه ينادي بتكذيبه وأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قد افترى على الله ، ومن هنا صار هذا المُعرض في عداد المجرمين. ومن المعلوم أنّ المجرمين يؤاخذون ويعاقبون، كما يقول: (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ).

سورة السجدة: الآيات ٢٣ ـ ٣٠ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَة ... وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ).

الآيات: الثالثة والعشرون إلى الثلاثين

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَة مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ

الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات أَفَلاَ يَسْمَعُونَ * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ).

المفردات

مِرْية:المرية: التردّد في الأمر، قال الراغب: وهو أخصّ من الشكّ. والمماراة المحاجّة فيما فيه مرية. مفردات الراغب:٤٦٦، مادة «مرأ».

لقائه: اللقاء: مصدر لقي على خلاف القياس، واللُّقيّ هو المصدر القياسي، ومعناه مقابلة الشيء ومصادفته معاً.

الجُرُز: الأرض منقطعة النبات من أصله، وقال ابن فارس: أرض جارزة أي يابسة غليظة يكتنفها رمل، وامرأة جارز أي عاقر. معجم مقاييس اللغة:٤٤١/١، مادة «جرز».

الفتح: نقيض الإغلاق، ويطلق على النصر، قال تعالى:(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ).

التفسير

لمّا تقدّم ذكر المشركين وإعراضهم عن القرآن الكريم، جاء البيان القرآني لتسلية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه يلاقي ما لاقاه نبيّ الله موسى(عليه السلام) قبله، وكأنّ إيذاء الأنبياء والإعراض عن دعوتهم سنّة قائمة بين الظالمين العتاة، فليس لهم ما يستعينون به على ما يلقونه من الأذى والضرّ إلاّ الصبر، قال سبحانه: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الأحقاف:٣٥، وعلى ضوء ذلك يقول سبحانه:

٢٣. (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَة مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ):

الآية متشكّلة من فقرات ثلاث:

الأُولى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ): أي التوراة التي وصفها سبحانه في غير واحدة من الآيات بالنور وغيره، كما في قوله تعالى: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ) الأنعام:٩١..

الثانية:(فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَة مِنْ لِقَائِهِ) الظاهر أنّ الخطاب للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لا للمشركين وإلاّ لجاء الخطاب بصورة الجمع، فالفقرة تنهى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عن المرية من لقائه، إنّما الكلام في مرجع الضمير، حيث تعدّدت فيه الأقوال، ومنها:

١. أنّ الضمير في (لِقَائِهِ) يرجع إلى الكتاب لأنّه أقرب وأُريد به التوراة، والمعنى: لا تشكّ في أنّ موسى(عليه السلام)تلقّى الكتاب السماوي الذي أُلقي إليه من قبَل الله تعالى. وربّما يؤيّد هذا التأويل بذكر إيتاء الكتاب لموسى في الفقرة الأُولى، ثمّ بيان أنّ هذا الكتاب هدى لبني إسرائيل.

وهذا التأويل بعيد جدّاً، لأنّ النهي عن الشيء فرع مظنّة وجوده، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن شاكّاً في نزول الكتاب على موسى (عليه السلام) حتى يُنهى عن الشكّ.

٢. أنّ الضمير يرجع إلى الكتاب وأُريد به القرآن، فيكون المعنى: لا تكن في شكّ من لقاء(أي تلقّي) الكتاب ونزوله عليك، فإنّك تتلقّى الكتاب كما تلقّاه موسى، وهو نظير قوله سبحانه:(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) يونس:٩٤، ويقول سبحانه: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيم عَلِيم) النمل:٦. وهو خيرة صاحب الكشّاف بتبيين منّا. لاحظ: تفسير الكشّاف:٢٢٣/٣.

ويردُ على هذا التأويل مضافاً إلى ما يردُ على التأويل الأوّل، أنّه يلزم ارتكاب الاستخدام، حيث أُريد من المرجع التوراة، ومن الضمير القرآن.

٣. أنّ الضمير يرجع إلى موسى(عليه السلام) والمراد: لا تشكّ أنّك تَلقى ما لقي موسى من التكذيب، حيث كذّبه فرعون، وكذّب النبيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قومُه.

وهذا الوجه أوضح لمقام التسلية، ويمكن أن يكون وجه الشبه هو الغلَبة حيث غلب موسى(عليه السلام)الفراعنة، وسينتصر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على قومه المشركين.

الثالثة:(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) الظاهر أنّ الضمير يرجع إلى الكتاب، وقد تقدّم قوله سبحانه في وصف التوراة، أعني قوله: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ) الأنعام:٩١.

٢٤. (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ):

الآية تخبر أنّه سبحانه جعل من بني إسرائيل أئمّة يهدون الناس بأمره كما قال:(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) وقد بلغوا هذا المقام بعملين:

١.(لَمَّا صَبَرُوا): أي الصبر والمقاومة في طريق نشر الدين، والثبات عليه.

٢. (وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ): أي كانوا من أصحاب اليقين بالآيات.

هذا هو تفسير ظاهر الآية، بقي فيها أمران:

١. ما هو المراد من قوله:(يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)؟، فيه احتمالان:

أ. يراد بالأمر، الأمر التشريعي، وهي الشرائع التي شرّعها الله لهم، فكانوا يدعون الناس إلى ما في التوراة من عقيدة وتكليف، فلو دلّت الفقرة على شيء فإنّما تدلّ على أنّ هداية الناس يجب أن تستند إلى تشريعه سبحانه لا خارجاً عنه، ولو جاء ذكر من خارج فإنّما يذكر تأييداً أو ترغيباً.

ب. يراد به الأمر التكويني، وهذا هو خيرة السيد الطباطبائي وقد شرح نظريته عند تفسير قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) البقرة:١٢٤،

وحاصله: أنّ الأمر أُطلق وأُريد به الأمر التكويني، قال سبحانه: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)،(يس:٨٢.) وقوله:(وَ مَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) القمر:٥٠، فالإمام له ولاية على الناس، وهدايته عبارة عن إيصالهم إلى المطلوب بأمر الله ، وهذا النوع من الهداية غير إراءة الطريق الذي هو شأن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، والرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وكلّ مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة، فهؤلاء الأئمّة قد بلغوا مقاماً سامياً يسوقون معه النفوس المستعدّة لبلوغ الأهداف التربوية والإنسانية العالية، سَوقاً تكوينياً لا لفظياً. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١/٢٧٢.

وما ذكره من المعنى أمر محتمل، لا يقف عليه إلاّ المتعمّق في سائر الآيات.

٢٥. (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ):

تضمّنت الآية السابقة أنّ جماعة من بني إسرائيل الموصوفين بكونهم أئمّة، يهدون بأمر الله ، ولمّا كان هناك مظنّة سؤال وهو: هل أصبح الكلّ مهتدين أو دبّ الخلاف فيما بينهم؟ وعلى الثاني ما هو مصير المختلفين؟ فجاءت الآية جواباً عن هذا السؤال وهو أنّهم اختلفوا كسائر الأُمم، لكنّه سبحانه لا يتركهم سُدى بل يقضي بينهم كما يقول:(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ)يقضي (بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) من أُمور الدين (بَغْيًا بَيْنَهُمْ). الجاثية:١٧.

٢٦. (أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ):

تقدّم في قوله سبحانه:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)أنّ قريشاً ومن والاهم قد أعرضوا عن ذكر الله ، وبهذا

ظلموا أنفسهم كما ظلموا النبيّ المرسل(صلى الله عليه وآله وسلم)، فجاء البيان القرآني يهدّدهم بأُسلوب الاستفهام الإنكاري بأنّ مصيرهم قد يكون مثل مصير الأُمم الماضية الهالكة كعاد وثمود وقوم لوط، فإنّ مساكنهم على مسير قريش في الرحلة الصيفية، فليعتبروا بما حلّ بهم من الهلاك والعذاب، كما قال: (أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ)الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو للعطف، إمّا إلى قوله سبحانه:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ) أو إلى مقدّر يقتضيه السياق، أي: أ غفلوا؟ وقوله: (لَمْ يَهْدِ)يتضمّن معنى التبيّن بشهادة تعديته باللام، أي أ غفلوا ولم يتبيّن لهم؟ (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ) الأُمم السابقة (يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)الجملة حال من الضمير في (لَهُمْ)مثل ديار عاد وثمود ومدين حيث استأصلهم الله سبحانه لإنكارهم نبوّة أنبيائهم، فهؤلاء يمرّون في أسفارهم على ديارهم ويرون مساكنهم، ويشاهدون بأُمّ أعينهم آثار هلاكهم وعروشهم الخاوية، فكأنّ هؤلاء صاروا صمّاً مع (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات أَفَلاَ يَسْمَعُونَ).

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى أعظم نعمه والتي هي أساس حياة الإنسان بل الأحياء جميعاً، ولولاه لما بقي حيّ على وجه الأرض، ألا وهو الماء، فقال:

٢٧. (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ):

قوله تعالى:(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ) عن طريق السُّحب الحاملة للماء (إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ)اليابسة الخالية من النبات، فعندئذ تنبت فيها الأعشاب والنباتات، كما يقول: (فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ) ذلك فيستدلّون به على طلاقة قدرته وعظيم إنعامه؟

ومن لطيف الكلام أنّ الآية السابقة ختمت بقوله: (أَفَلاَ يَسْمَعُونَ) وأمّا هذه الآية فختمت بقوله:(أَفَلاَ يُبْصِرُونَ) وذلك لأنّ هلاك الأقوام الغابرة بلغ إليهم عن طريق الأخبار، ولذلك قال: (أَفَلاَ يَسْمَعُونَ)، ولكن سَوق الماء إلى الأرض الجرز وخروج الزرع لغاية عيش الأنعام والأنفس أمر محسوس بالبصر، ولذلك قال:(أَفَلاَ يُبْصِرُونَ)، وهذا أحد نوعي فنّ المناسبة، وهو المناسبة في المعاني، والآخر المناسبة في الألفاظ.

وتسأل: ما هي الصلة بين هذه الآية وما تقدّم من هلاك الأُمم السابقة؟

ويمكن الإجابة بوجهين:

الأوّل: أنّ النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بُعث بشيراً ونذيراً فجمع الله في الآيتين بين الإنذار والبشارة.

الثاني: أنّ الأُمم السابقة قد أُهلكوا بريح صرصر عاتية، فصارت الريح هناك سبباً للهلاك والدمار ولكنّها في الآية التالية صارت سبباً للحياة، إذ أنّ إرادة الله هي التي تسوق السُّحب من بلد إلى بلد.

٢٨. (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

يظهر من الآية أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين كانوا يهدّدون المشركين بيوم الفتح، ثمّ إنّ المشركين يستهزئون (وَيَقُولُونَ) بصورة التحقير وقلّة الاكتراث(مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فيما تقولون؟

إنّما الكلام في تعيين يوم الفتح، وهناك احتمالات:

١. أُريد بالفتح فتح مكّة، ولكنّه لا ينسجم مع الآية التالية، حيث إنّها تدلّ على عدم انتفاع الكافر بإيمانه في ذلك اليوم، مع أنّ كلّ مشرك آمن في ذلك اليوم وما بعده قد انتفع بإيمانه، وعدّه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)في صفوف المؤمنين.

٢. أُريد به يوم القيامة، وتشهد لذلك وحدة الصياغة في الاستعجال بالنسبة إلى هذا اليوم في بعض الآيات. قال تعالى: (وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يونس:٤٨ و الملك:٢٥..

ويؤيّده أيضاً قوله سبحانه:(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) الأنعام:١٥٨..

وقد جاء هذا المضمون في الآية التالية:

٢٩. (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ):

ولكن الذي يبعد هذا الاحتمال أنّه سبحانه يأمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بالإعراض عنهم والانتظار كما يقول:

٣٠. (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ):

فإنّ الأمر بالانتظار وتوصيف هؤلاء بالانتظار يومئ إلى أنّ هذا اليوم من أيام الدنيا، ولا صلة له بالأيام الأُخروية.

٣. المراد عذاب الاستئصال الذي عمّ سائر الأُمم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم.

ويشهد له قوله سبحانه حاكياً عن النبي نوح(عليه السلام):(قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). الشعراء:١١٧ـ ١١٨.

وقال سبحانه: (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَاب شَدِيد إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ). المؤمنون:٧٧.

ولكنّ الذي يبعده أنّ هذا الوعيد لم يتحقّق في عهد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولا بعده فكيف يقول: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)، إذ معنى ذلك أنّه سيتحقّق ذلك الأمر.

٤. أنّ المراد به يوم بدر، وهو الظاهر.

***

تمّ تفسير سورة السجدة

وبه تمّ الجزء الواحد والعشرون

الصفات الخبرية في الكتاب والسنّة

تقدّم منّا أعلاه عند تفسير قوله سبحانه:(ثُمّ اسْتوى عَلَى العَرْشِ) أنّه قد ألّفنا رسالة حول الصفات الخبرية، وإليك تلك الرسالة.

قسّم المتكلّمون صفاته سبحانه إلى قسمين: ثبوتية وسلبية، أو جمالية وجلالية. ويشير الأوّل إلى وجود صفة في ذاته سبحانه كالعلم والقدرة والحياة، ويشير القسم الثاني إلى نفي نقص عنه سبحانه كنفي الجسم والتحيّز والحركة والتغيّر.

وتسمية هذين القسمين بالجمالية والجلالية مأخوذة من الكتاب العزيز، قال تعالى:(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَ الإِكْرَامِ) الرحمن:٧٨..

كما أنّهم قسّموا صفاته سبحانه إلى صفة الذات وصفة الفعل. ويشير الأوّل إلى ما يكفي في وصف الذات به فرض نفس الذات فحسب كالقدرة والحياة والعلم. ويشير الثاني إلى ما يتوقف توصيف الذات به على فرض الغير معه وراء الذات وهو فعله سبحانه، وهذا كالخلق والرزق ونظائرهما.

وهناك تقسيم آخر وهو يختص بأهل الحديث حيث يقسّمونها إلى ذاتية وخبرية، وأُريد من الأُولى الصفات الكمالية، وأُريد من الثانية ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به النبي(صلى الله عليه وآله)ككونه ذا وجه، ويدين، وأعين، إلى غير ذلك من الصفات التي لو وصف بها سبحانه بمعانيها المتبادرة عند العرف للزم التجسيم والتشبيه.

هذه هي التقسيمات الرائجة في صفاته سبحانه.

ما هو الميزان في معرفة صفاته تعالى

اتّفق المسلمون ـ عدا المشبهة والمجسّمة ـ على أنّ الميزان في وصفه سبحانه بأي وصف من الأوصاف هو تنزيهه سبحانه عن الجسم والجسمانية والتشبيه بالممكنات ذاتاً ووصفاً، لقوله سبحانه:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الشورى:١١. وقوله سبحانه: (وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).(التوحيد:٤.)

وهذا هو الأساس المهم، فعلى الباحث في صفاته سبحانه أن يهتمّ به.

صرف الظاهر عن ظاهره

لا شكّ أنّ ظواهر القرآن حجّة بلا كلام، فمَن أراد صرف الظاهر عن ظاهره فقد أخطأ خطأً كبيراً، بل يُعدّ عمله هذا داهية كبرى وطامّة عظمى، فإنّ تأويل الظاهر هو مخطّط أهل الكتاب خصوصاً في هذه السنوات التي دلّت البحوث العلمية على بطلان شيء كثير من العهدين فصاروا يأوّلون الظواهر ويصرفونها عن ظواهرها لكي يستروا به عوار العهدين، فما نُقل عن أحمد بن محمد الصاوي (المتوفّى ١٢٤١ هـ) من أنّ الأخذ بظواهر الكتاب والسنّة من أُصول الكفر حاشية تفسير الجلالين في تفسير قوله تعالى:(وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا) (الكهف: ٢٣).، أمر غير مقبول، وسيوافيك ما لعلّه هو المقصود منه.

فما هو الأصل بين المحقّقين من علماء الإسلام؟

نعم لو دلّ دليل قطعي أو حجّة شرعية على خروج فرد من تحت العام، ممّا لا إشكال فيه لجريان السنّة على فصل المخصّصات عن العمومات، والمقيّدات عن المطلقات، من غير فرق بين القوانين الشرعية والقوانين الوضعية، إنّما الكلام في غير هذا المورد، فما دلّ عليه ظاهر الكتاب والسنّة يجب الأخذ به دون أدنى تصرّف.

لكن الذي نلفت نظر القارئ إليه أنّ الظواهر على قسمين:

١. كلام له ظهور مستقرّ وليس له إلاّ محتمل واحد، وهذا ما لا يجوز صرفه عن ظاهره.

٢. كلام له ظهور متزلزل ومحتملات متساوية، فهذا ممّا لابدّ من إرجاعه إلى المحكمات حتى يستقرّ ظهوره. وإرجاع الظاهر المتزلزل إلى المحكَم المستقرّ ظهوره ليس من باب صرف الظاهر عن ظهوره، وإنّما هو من قسم التدبّر في الآية الذي أمرنا الله به في الذكر الحكيم(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ)(ص:٢٩). حتى يظهر ما هو المقصود وذلك عن طريق جمع القرائن الداخلية والخارجية، ولعلّ الصاوي أراد هذا القسم من الظواهر، وإلاّ فكلامه مردود.

ولنأتِ بمثال:

يقول سبحانه:(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ). ص:٧٥.

لا شكّ أنّ الآية ظاهرة ظهوراً بدْوياً في أنّ لله سبحانه يدين اثنتين بهما خلق آدم، وفي آية أُخرى تدلّ على أنّ لله أيدي فوق الاثنتين، قال تعالى: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ).(يس:٧١.)

إنّما الكلام في أنّ هذا الظهور هل هو ظهور مستقر نأخذ به ونتّبعه؟ أو هو ظهور غير مستقر، لابدّ من إرجاعه إلى المحكَمات؟ ومن المعلوم أنّ تفسيره باليدين أو الأيدي الجسمانية أمر يرفضه جلّ المسلمين، لكونه مخالفاً لقوله سبحانه:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، ومن جانب آخر يجب تفسير الآية وفهمها، وهنا يأتي دور التحقيق والتدبّر في الآية، أمّا الآية الأُولى فالتركيز على أنّه سبحانه خلق آدم بيديه ليس إلاّ لذمّ الشيطان لتركه السجود لآدم، قائلاً بأنّ آدم لم يكن مخلوقاً لغيري حتى يمكنك يا إبليس ألاّ تسجد له، بل هو مخلوق خلقته بنفسي ونفخت فيه من روحي، فهو مخلوقي الذي قمت بخلقه ومع ذلك تمرّدت عن السجود له، فقوله

سبحانه: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)جار مجرى: لما خلقت أنا، وذلك مشهور في لغة العرب، يقول أحدهم: هذا ما كسبت يداك، وهذا ما جرّت عليه يداك.

وإذا نَفَوا الفعل عن الفاعل استعملوا فيه هذا الضرب من الكلام فيقولون: فلان لا تمشي قدمه، ولا ينطق لسانه، ولا تكتب يده، وكذلك في الإثبات ولا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح في الحقيقة، بل الغاية فيه النفي عن الفاعل. أمالي السيد المرتضى:١/٥٦٥.

وحصيلة الكلام: أنّ هذا التركيب في لغة العرب يستعمل تارة في إثبات الفعل للفاعل، وأُخرى في نفي الفعل عن غير الفاعل، فليس هذا التفسير صرفاً للظاهر عن ظهوره بل تعييناً لظهوره المستقرّ.

وبعبارة أُخرى: هناك ظهور تصوّري، وظهور تصديقي؛ فالظهور التصوّري يدفعنا إلى أنّ المراد من اليدين هو الجارحتان، ولكن الظهور التصديقي يدفعنا إلى ما هي الغاية من إلقاء هذا الكلام وهو التركيز على أنّه فعلي لا فعل غيري، فعدم سجودك لآدم إهانة لي قبل أن يكون إهانة لآدم.

وأمّا الآية الثانية، فالظهور التصوّري يدفعنا إلى القول بالتشبيه والتجسيم، ولكن الظهور التصديقي بالتدبّر في موقف الآية وما هو الغرض النهائي منها يدفعنا إلى تفسيرها بالنحو التالي:

إنّ قوله:(مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)كناية عن تفرّده تعالى في خلق الأنعام وأنّه لم يشاركه أحد فيها، فهي مصنوعة لله تعالى، والناس مكان أن يشكروا لله يكفرون بنعمته.

وهذا التفسير ليس صرفاً للظاهر عن ظاهره بل تعييناً لظهوره، وهناك آية ثالثة في هذا المضمار، يقول سبحانه:(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) الذاريات:٤٧.، فالظهور التصوّري يدفعنا إلى أنّ لله سبحانه جوارح فوق الاثنتين لكن التدبّر في الآية وموقفها وما سيقت لأجله يدفعنا إلى أنّه سبحانه بصدد بيان قوة واستحكام بناء السماء بقرينة قوله: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)وكأنّه سبحانه يقول: والسماء بنيناها بقدرة عظيمة ونوسعها في الخلقة.

وبعبارة أوضح: هل الأيدي مستعملة في القوّة والقدرة؟ كلاّ لا أقول ذلك، بل أقول: إنّ اليد والأيدي مستعملة في المعنى اللغوي، لكنّ الأخذ بالمعنى اللغوي ظهور تصوّري يؤخذ به إذا لم تدلّ قرينة على أنّ المراد هو الظهور التصديقي، وقد عرفتَ أنّ وجود القرائن، (أعني: ما سيقت الآيات لأجلها)، يدفعنا إلى جعل الكلام كناية على أنّه المباشر للفعل لا غيره كما في الآيتين الأُولين وأنّ المخلوق ـ السماء ـ ذو إحكام وإتقان لا يتصدّع ولا ينهدم في الآية الثالثة.

وبذلك يتبيّن أنّ حمل الآية على خلاف ظاهرها التصديقي الذي استقرّ ظهور الكلام فيه، أمر غير جائز مطلقاً إلاّ فيما جرت السيرة فيه، أعني: مجال التشريع، مثل: حمل المطلق على المقيّد، والعام على الخاص، وما ربّما يتراءى من المشايخ من «أنّ الظواهر خفيفة المؤونة يمكن التصرّف فيها» صحيح في الظهور البدوي أو الظهور الجزئي لا في الظهور الجملي والتصديقي الاستقراري.

فإن قلت: أو ليس هذا تأويلاً، والتأويل على خلاف القاعدة؟

قلت: سواء أسميته تأويلاً أم لا، فهذا النوع من التفسير عين السنّة الجارية في حوارات العقلاء بعضهم مع البعض الآخر، فالذي يعيّن الظهور هو الغاية التي سيق الكلام لأجلها.

فلو قال: زيد كثير الرماد، وكان الغرض ذمّه، فيؤخذ بهذا الظهور إذ يدلّ على أنّ بيته مليء بالنفايات.

وإن كانت الغاية من هذا الكلام بيان جوده وكرمه وإحسانه للضيوف، فلا يؤخذ بهذا الظهور بل بالظهور التصديقي وهو كونه كريماً. ونحن لا نستوحش من لفظة التأويل وإنّما نلفت نظر القارئ إلى سيرة العقلاء وسيرة العرب في حواراتهم.

١. فالمتَّبع، الظهور التصديقي لا التصوّري.

٢. المتَّبع، ما سيق له الكلام من الغاية دون تجريد الكلام عنها.

٣. المتَّبع، هو الظهور الجملي للكلام لا الظهور الجزئي.

إذا عرفت هذه المقدّمات، فلنذكر الآراء في الصفات الخبرية التي شغلت بال المحدّثين وقسماً من أهل السنّة عبر قرون.

١. قول المشبِّهة

وهو إجراء الصفات على الله سبحانه بنفس المعاني المرتكزة في أذهان الناس، من دون تصرّف فيها، فقد زعموا أنّ لله عينين ويدين ورجلين مثل الإنسان.

وبما أنّ هذا القول إلحاد في دين الله وخروج عن الدين لا نحوم حوله، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا بحوث في الملل والنحل. الملل والنحل:٢/١٢١ـ ١٢٧.

٢. قول المثبِّتة

إنّ جمهور محدّثي السنّة وتبعهم الشيخ أبو الحسن الأشعري (المتوفّى ٣٢٤هـ) يجرون الصفات الخبرية على الله بالمعنى المتبادر منها في العُرف، لكن لما استشعروا بأنّ ذلك يورث التشبيه أضافوا إليه قولهم: بلا كيف. يقول الشيخ الأشعري: وأنّ الله استوى على عرشه، كما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) طه:٥، وأنّ له وجهاً بلا كيف، كما قال: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ). الرحمن:٢٧. وإنّ له يدين بلا كيف، كما قال: (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ص:٧٥. وكما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) المائدة:٦٤ وإنّ له عيناً بلا كيف، كما قال: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) القمر:١٤.. الإبانة:١٨.

بين التشبيه والتعقيد

أقول: إنّ عقيدة الأشعري دائرة بين التشبيه والتعقيد، وكلاهما مرفوضان.

توضيحه: إنّ اليد والوجه والرجل موضوعة للأعضاء الخاصّة في الإنسان، ولا يتبادر منها إلاّ ما يتبادر عند أهل اللغة، وحينئذ فإن أُريد منها المعنى الحقيقي يلزم التشبيه، وإن أُريد غيره فذلك الغير إمّا معنى مجازي أُريد منه بحسب القرينة فيلزم التأويل وهم يفرّون منه فرار المزكوم من المسك، وإمّا شيء آخر لا هذا ولا ذاك، فما هو ذلك الغير؟

بيّنوه لنا حتى تتّسم العقيدة بالوضوح والسهولة، ونبتعد عن التعقيد والإبهام، وإلاّ فالقول بأنّ له وجهاً لا كالوجوه، ويداً لا كالأيدي، ألفاظ جوفاء وشعارات خدّاعة لا يستفاد منها شيء سوى تشويش الأفكار وتضليلها عن جادة الصواب.

وباختصار: إنّ المعنى الصحيح لا يخرج عن المعنى الحقيقي والمجازي، وإرادة أمر ثالث خارج عن إطار هذين المعنيين يعدّ غلطاً وباطلاً، وعلى هذا الأساس لو أُريد المعنى الحقيقي لزم التشبيه بلا إشكال، ولو أُريد المعنى المجازي لزم التأويل، والكلّ ممنوع عندهم، فما هو المراد من هذه الصفات الواردة في الكتاب والسنّة؟

إنّ ما يلهجون به ويكرّرونه من أنّ هذه الصفات تجري على الله سبحانه بنفس معانيها الحقيقية ولكن الكيفية مجهولة، أشبه بالمهزلة، إذ لو كان إمرارها على الله بنفس معانيها الحقيقية لوجب أن تكون الكيفية ملحوظة حتى يكون الاستعمال حقيقياً، لأنّ الواضع إنّما وضع هذه الألفاظ على تلك المعاني التي يكون قوامها بنفس كيفيتها، ويكون عمادها وسنادها بنفس هويتها الخارجية، فاستعمالها في المعاني الحقيقية بلا كيفية أشبه بالأسد بلا ذنَب ولا مخلب ولا ولا... فقولهم:

«المراد هو أنّ لله يداً حقيقة لكن لا كالأيدي» أشبه بالكلام الذي يناقض ذيلُه صدره.

أضف إلى ذلك: أنّه ليس في النصوص من الكتاب والسنّة من هذه «البلكفة» أثر ولا عين، وإنّما هو شيء اخترعته الأذهان،

للتذرّع به في مقام الردّ على الخصم والنقض عليه، بأنّ لازم إمرارها على الله بنفس معانيها، هو التجسيم والتشبيه.

وبما ذكرنا في المقام تقدر على تفسير الآيات التالية، وتمييز الظهور التصوّري عن التصديقي، نظير:

١. العين، كقوله سبحانه:(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) طه:٣٩..

٢. اليمين، كقوله سبحانه:(وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) الزمر:٦٧..

٣. الاستواء، كقوله سبحانه:(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) طه:٥.

٤. النفس، كقوله سبحانه:(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) المائدة:١١٦..

٥. الوجه، كقوله سبحانه:(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) البقرة:١١٥..

٦. الجنب، كقوله سبحانه:(عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) الزمر:٥٦..

٧. القرب، كقوله سبحانه:(فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) البقرة:١٨٦..

٨. المجيء، كقوله سبحانه:(وَجَاءَ رَبُّكَ) الفجر:٢٢..

٩. الإتيان، كما قال سبحانه:(أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) الأنعام:١٥٨..

١٠. الغضب، كما في قوله سبحانه:(وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) الفتح:٦..

١١. الرضا، كما في قوله سبحانه: (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) المائدة:١١٩..

إلى غير ذلك من الصفات الخبرية التي وردت في القرآن الكريم وأخبر عنها الوحي، فللجميع ظواهر غير مستقرّة لا تلائم الأُصول الواردة في محكمات الآيات، ولكن بالإمعان والدقّة يصل الإنسان إلى مآلها ومرجعها وواقعها، وهذا لا يعني حمل الظاهر على خلافه بل التتبّع لغاية العثور على الظاهر، إذ ليس للمتشابه ظهور مستقرّ في بدء الأمر حتى نتّبعه.

إكمال وإيضاح

وبما أنّ الداعي إلى هذه الدراسة هو تفسير قوله سبحانه:(اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) السجدة:٤.فلنعرّج إلى تفسير هذه الآية وتمييز ظهورها التصوّري عن التصديقي.

فنقول: قوله سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) مركّب من كلمتين: الاستواء، والعرش...

لا شكّ أنّ الاستواء يحكي عن نوع علو واستعلاء، إنّما الكلام هل المراد هو العلوّ في المكان أو المراد العلوّ المعنوي، فابن تيمية وأتباعه الذين انتشروا في البلاد يصرّون على تفسير الآية بالعلو في المكان، ولمّا رأوا أنّ هذا التفسير يوجب اتّهامهم بالتشبيه والتجسيم التجأوا إلى قولهم: «بلا كيف» أو الاستواء اللائق بالله سبحانه، وقد استخدم الكلمة الأخيرة الشيخ الشنقيطي في تفسيره المسمّى «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، حيث قال في تفسير قوله تعالى: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ): أنّها صفة كمال وجلال لائقة بالله جلّ وعلا ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله. أضواء البيان:٧/٢٩٠.

ونحن نفسّر الآية على ضوء الضابطة التي بيّناها بتمييز الظهور التصوّري عن التصديقي، والظهور الجزئي الإفرادي عن الظهور الكلّي الجملي، وبالأخصّ ملاحظة الغاية التي سيقت الآية لأجلها.

أقول: قال شيخ السلف من المفسّرين أبو جعفر الطبري(المتوفّى ٣١٠هـ): الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه، منها:

١. انتهاء شباب الرجل وقوّته، فيقال إذا صار كذلك: قد استوى الرجل...

٢. استقامة ما كان فيه أَوَد من الأُمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمره: إذا استقام له بعد أَوَد، ومنه قول الطرمّاح بن حكيم:

طال على رسم مَهْدَد أبَدُهْ *** وعفا واستوى به بلَدُهْ

يعني: استقام به.

٣. الإقبال على الشيء بالفعل، كما يقال: استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه.

٤. الاحتياز والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة، بمعنى احتوى عليها وحازها.

٥. العلوّ والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعني به علوّه عليه.

ثم قال: وأولى المعاني بقول الله جلّ ثناؤه: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ) البقرة:٢٩.: علا عليهنّ وارتفع، فدبّرهنّ بقدرته وخلقهنَّ سبع سماوات. جامع البيان (تفسير الطبري): ٢٥٢/١.

ترى أنّ هذا الشيخ السلفي لا يفسّر الاستواء على العرش بالجلوس، ولا بالاستقرار، بل هو أشبه بعلوّ الملك والسلطان على عرشه، كما هو المراد من قوله سبحانه:(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

ويدلّ على هذا عدّة أُمور:

١. أنّ العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لا يفهمون من الاستواء ـ إذا وقع وصفاً لموصوف بالقدرة والعظمة ـ شيئاً سوى العلوّ المعنوي، كما جاء في شعر الطرمّاح، قوله: واستوى به بلده، حيث فسّر بمعنى: استقام به.

٢. قال الشاعر:

قد استوى بِشرٌ على العراقِ *** من غير سيف ودم مهراقِ

يريد أنّه تسلّط على البلد وأهله بلا حرب.

٣. قال الشاعر:

ولمّا علَونا واستوينا عليهمُ *** تركناهمُ مرعى لنَسر وكاسرِ

فالاستواء في الجميع استعمل في العلوّ المعنوي والتسلّط التام، لا الاستقرار والجلوس على السرير.

٤. العرش يفارق السرير، فإنّ الثاني خاص للنوم والجلوس العادي، وأمّا العرش فهو خاصّ بالاستعلاء عليه وتدبير الأُمور مع الوزراء حوله.

٥. أنّ هذه الفقرة جاءت في القرآن الكريم في مواضع سبعة، وقد احتفّت بذكر ما يدلّ على تدبيره سبحانه صحيفة الكون.

ومن تتبّع القرآن الكريم وأمعن النظر في الموارد الّتي ورد فيها استواؤه سبحانه على العرش في موارد متعدّدة يجد أنّه ذُكر مقروناً بفعل من أفعاله، دالّ على غناه المطلق، وتسلّطه التام واستعلائه، مثل رفع السماوات بغير عمد، قال سبحانه:(اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) الرعد:٢. .

وإليك سائر الآيات الّتي جاء فيها هذا الأمر، قال سبحانه:(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ).(الأعراف:٥٤.)

وقال سبحانه: (اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ). يونس:٣.

وقال سبحانه: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا). الفرقان:٥٩.

وقال سبحانه: (اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ). السجدة:٤.

وقال سبحانه:(هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا

يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا). الحديد:٤.

والناظر في هذه الآيات يرى أنّه سبحانه عندما يذكر استواءه على العرش، يذكر آثار قدرته وعظمته من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وتدبيره الأمر (يُدَبِّرُ الأَمْرَ)، وأنّه لا مؤثّر ولا موجد إلاّ بإذنه(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ)، ومن علمه الوسيع بما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، كلّ ذلك يعرب عن أنّ الآيات تستهدف لفت الأنظار إلى علوّه سبحانه على عالم الوجود الإمكاني، وأنّه بجملته في سلطانه وقدرته، ولا يخرج شيء من حيطة قدرته، وأين هذا من تفسيره بالجلوس أو الاستقرار على العرش الذي هو فوق السماوات ناظراً إلى ما دونه؟ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا).

وهذا النوع من التفسير ليس صرفاً للظاهر عن ظاهره بل سعي لتبيين الظاهر عن غيره، وتمييز الظهور التصديقي عن التصوّري.

ونعمَ ما فسّر به الطبري لفظ (الواسع) في قوله سبحانه: (وَاللّهُ واسعٌ عَليم) النور:٣٢. بقوله: والله واسع الفضل، جواد بعطاياه، فزوّجوا إماءكم فإنّ الله (واسعٌ)يوسّع عليهم من فضله إن كانوا فقراء. جامع البيان(تفسير الطبري):١٠/١٦٠.

كما أنّ البخاري فسّر (الوجه) في قوله سبحانه: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ) القصص:٨٨. بالمُلك. صحيح البخاري:٣/٢٥٤، كتاب التفسير.

وليس لأنصاف المتعلّمين في هذا اليوم اتّهام العلمين (الطبري والبخاري) بصرف الظاهر عن ظاهره، وبالتأويل الممقوت، وإنّما عَمَدا إلى تبيين ما هو الظاهر.

ولعلّ هذا المقدار كاف في تزييف هذا القول الذي لا يخرج عن إطار التشبيه أو التعقيد.

ولنصرف الكلام في القول الثالث حول الصفات الخبرية.

٣. التفويض أو تعطيل العقول عن التفكير

إنّ جماعة من أهل السنّة جنحوا إلى نظرية التفويض، وحاصلها: الإيمان بكلّ ما جاء في القرآن والسنّة من الصفات التي وصف الله سبحانه نفسه بها إجمالاً، وتفويض ما يراد منها إليه.يقول الغزالي: وأقلّ ما يجب اعتقاده على المكلّف هو ما يترجمه قوله: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله. ثمّ إذا صدّق الرسول فينبغي أن يصدّقه في صفات الله بأنّه حيّ قادر، عالم متكلّم مريد، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم، وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرّت الأعراب وعوام الخلق، إلاّ من وقع في بلدة تقرع سمعه فيها هذه المسائل كقِدَم القرآن وحدوثه، ونفي الاستواء والنزول، وغيره. علاقة الإثبات:١٦٢، نقلاً عن الرسالة الواعظية.

إنّا لا نلوم أصحاب هذه النظرية فإنّها نظرية مَن لا يتعرّض للأبحاث المهمّة ولا يقتحم العقبات، ويرى أنّه يكفيه في النجاة قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم شهر رمضان» صحيح البخاري: ١ / ٨ ، كتاب الإيمان، باب قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بني الإسلام على خمس. فهو يرى أنّ التفويض أسلم من الإثبات الذي ربما ينتهي عند الأخذ بالظاهر التصوّري إلى التجسيم والتشبيه المبغوض أو إلى التعقيد والإلغاز إذا قيّد به «اللا كيف» أو «اللائق بمكانه» الذي لا ينسجم مع سمة سهولة العقيدة.

٤. التأويل

إنّ تأويل نصوص الآيات وظواهرها على الإطلاق في مورد الصفات الخبرية وغيرها بلا دليل وحجّة شرعية ليس بأقلّ خطراً من الجمود، لو لم يكن أكثر، إذ ينتهي ذلك القسم من التأويل إلى الإلحاد وإنكار الشريعة.

ونحن نركّز على لزوم الأخذ بظاهر الكتاب والسنّة الصحيحة، لكن الكلام في تشخيص الظاهر التصديقي وتمييزه عن الظاهر التصوّري، والظاهر الجملي عن الظاهر الإفرادي، مثلاً: هل اليد في قوله تعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا). الإسراء:٢٩.ظاهرة في الجارحة المخصوصة، أو كناية عن الجود والبذل(بسط اليد) أو البخل

والتقتير(غلّ اليد). وهذا هو الذي يجب بذل الجهد في سبيل معرفته، بدل السبّ والشتم، أو التفسيق والتكفير.

ولو أنّ قادة الطوائف الإسلامية وأصحاب الفكر منهم، نبذوا الآراء المسبقة والأفكار الموروثة وركّزوا البحث على تمييز الظاهر عن غيره، حسب المقاييس الصحيحة، لارتفع جدال الناس ونقاشهم حول الصفات، الذي دام مئات السنين.

ونؤكّد أخيراً أنّ ما أخذناه ليس تأويلاً وإنّما هو استنطاق للمراد من الآية، ولو سمّي به فهو ليس من التأويل الممقوت الذي يتّخذ الآية دليلاً على عقيدة مسبقة، كما هو دأب الملحدين.

ثمّ إنّ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي(المتوفّى١٣٩٣هـ) مؤلّف «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» قد تأثّر بالأفكار الوهابية في تفسيره هذا، ومن غريب ما تحامل به على أصحاب التنزيه الذين يفسّرون الاستواء بالاستيلاء قوله: إنّ هؤلاء لم ينكروا أنّ كلمة القرآن هي استوى، ولكن حرّفوها وقالوا في معناها استولى، وإنّما أبدلوها بها، لأنّها أصلح في زعمهم من لفظ كلمة القرآن، لأنّ كلمة القرآن توهّم غير اللائق، وكلمة استولى في زعمهم هي المنزّهة اللائقة بالله مع أنّه لا يعقل تشبيه أشنع من تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم، باستيلاء بِشر على العراق.

وهل كان أحد يغالب الله على عرشه حتى غلبه على العرش، واستولى عليه؟

وهل يوجد شيء إلاّ والله مستول عليه، فالله مستول على كلّ شيء.

وهل يجوز أن يقال إنّه تعالى استوى على كلّ شيء غير العرش؟[1]

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ تفسير كلمة بكلمة أُخرى لو كان بمعنى أنّ كلمة القرآن توهم غير اللائق، يجب سدّ باب التفسير، فإنّ المفسّرين ـ والمؤلّف أحدهم ـ يوضّح معنى الآية بكلمة أُخرى أو بتعبير آخر، فهل معنى ذلك أنّ التعبير القرآني غير لائق؟!

ثانياً: أنّ ما زعمه: «هل كان أحد يغالب الله على عرشه حتى غلبه على العرش» كلام خاو من المعنى، وذلك لأنّه في صدد الردّ على الوثنيّين الذين يزعمون أنّه سبحانه بعد ما خلق السماوات والأرض فوّض أمر التدبير إلى العقول والنفوس أو الملائكة والجنّ أو الأصنام والأوثان، ولأجل ردّ هذه المزعمة يقول سبحانه: إنّه المدبّر لا غير، وإنّه هو مستعل على العرش، وأنّه بالقدرة التي بها خلق السماوات والأرض دبّر أمرهما بعد الخلق. وفي الصفحات التي خصّصها لبيان الصفات الخبرية التي تناهز (٢٦) صفحة ملاحظات كثيرة لا أُريد أن أُسوّد كتابي بها وبأجوبتها، عفا الله عنّا وعنه.

تمّت الرسالة

الفهرس